
أحمد خيري العمري
صانع الأنفاق
كلمات وأبحاث مهداة إليه
علماء مكرمون 11
HAZEM MASSAOD
HM
E-Books
آفاق معرفة متجددة
www.fikr.com

# أحمد خيري العمري

## صانع الأنفاق

**كلمات وأبحاث مهداه إليه**

أحمد خيري العمري صانع الأنفاق: كلمات وأبحاث مهداة إليه / طائر الضفة ...[وآخرون] .- دمشق: دار الفكر ٢٠١٠ .- ٢٩٦ ص ؛ ٢٥سم.

(سلسلة علماء مكرمون١١)

١-٩٢٢: العمري، أحمد خيري ط ٢-العنوان ٣-طائر الضفة ٤-السلسلة

مكتبة الأسد

علماء مكرمون

# أحمد خيري العمري

## صانع الأنفاق

كلمات وأبحاث مهداة إليه

| | |
| --- | --- |
| طائر الضفة | سهير علي أومري |
| نور محمد الجندلي | ريما أنيس الحكيم |
| د. محمد موسى باباعمي | أمير أوغلو |
| د. محمد عباس | د. عبد الرحمن الهاشمي |
| غياث خليل هواري | طالب شلب الشام |
| د. نهلة الشابندر | د. أثير الشيخلي |

بكاي أحمد بن صالح






2013 = 1434

**دار الفكر – دمشق  دار الفكر المعاصر - بيروت**

**00963  11  3001                    00961 1  860739**

**e-mail:fikr@fikr.net - http:/www.fikr.com**

**سلسلة علماء مكرمون**

**(11)**

**أحمد خيري العمري**

صانع الأنفاق

الرقم الاصطلاحي: 2232.011

الرقم الدولي: ISBN: 978-9933-10-397-2

الرقم الموضوعي: 920 (التراجم والسير والأنساب)

170 ص، 17 × 25 سم

الطبعة الأولى : 1434هـ= 2013م

# كلمة من الناشر .. بل من القلب

**شيء عن العمري وله**

في ذات يوم هادئ حمل البريد إلى دار الفكر كتاباً عُرض على لجنة النشر بعنوان "البوصلة القرآنية" لمؤلفه أحمد خيري العمري.. أحالته إلى أكثر من قارئ فأثار جدلاً من نوع خاص، وفي زاوية خاصة، وفي أسلوب خاص.. حارت اللجنة وقتذاك بين القبول والاعتذار، لأن في الكتاب أفكاراً هامة، ولكن فيه كذلك أشياء جديدة، تحتاج إلى إعمال نظر لما يثيره في النفس..

وجادل أعضاء اللجنة بعضُهم بعضاً، وطال انتظار المؤلف حتى ترجّح لدى الدار إصدار الكتاب، وتبنَّته، كشأنها في كل عمل تصدره؛ تشارك المؤلف مسؤولية ما يقدّم.. ثم صدر.

ومع حصول ما توقعت الدار بعد ذاك اليوم الهادئ الذي وصلها فيه الكتاب جاءت أيام صاخبة، عالية الصوت، وكثرت التعليقات عليه.. وراجت سوقه.

كانت تلك بداية أحمد خيري العمري، الطبيب الذي قدم بعدئذ من العراق، فدخل على استحياء المؤمن، وعرَّف بنفسه.. فاستقبلته الدار بالترحاب.. وسكن دمشق مدة وسكن إليها، وأحبها، وألف فيها كتباً راجت، وكان له قراؤه الذين عرفوه على المواقع، وأحبوا أسلوبه في الكشف عن الأفكار التي يعرضها على نحو جديد.. يجدد المعروف ويرمم القديم..

كان العمري كاتب الشباب؛ يأخذ الموضوع الذي تعرفه أنت، ويعرفه الناس كلهم في الصلاة مثلاً، أو في قصة مشهورة كقصة نوح أو إبراهيم عليهما السلام أو في حديث شريف محفوظ، فيسكب عليه من ذاته، من آفاقه، من تطلعاته، ما يحلله ثم يحضِّره كما يحلل الصائغ المادة الخام من اللؤلؤ أو الذهب، ثم يصوغها حَلْياً يزين عنق الحسناء، فإذا هو جديد كل الجدة من قديم كل القدم.. فيضيف إليه ما يحافظ على روعته.

استقطب أحمد خيري العمري جيلاً من الشباب واعداً، تواصلوا معه من خلال المواقع.. حاوروه.. سألوه.. كتبوا له.. وأجابهم. ولم يكن لهؤلاء وطن واحد، كانوا من بلاد متناثرة، اجتمعوا عليه.. وسرّ دارَ الفكر اجتماعُهم؛ لأنها تريد أن تجمع الناس على القراءة وخاصة من الشباب.

ولم يكن قرّاء العمري قرّاء عاديين، كانوا من الشباب الواعدين أو القراء النهمين، أو من أصحاب الأفكار، ينظرون إلى الدنيا بعين أُخرى، ويستشرفون المستقبل بقلب مفتوح. ولمثل هؤلاء تتطلع دار الفكر، ولمثلهم تعمل، ولمثلهم تحمل رسالتها بصدق وأمانة وإخلاص.

ولهؤلاء كلهم أقامت الدار أسبوعها الثقافي الحادي عشر تحت شعار "شباب لعصر المعرفة". وكان الدكتور أحمد خيري العمري زعيم هؤلاء الشباب، وهو الأليق بالتكريم لهذا العام وبهذه المناسبة خصوصاً من بين عدد من المؤلفين المرشحين الذين تختار أحدهم في كل عام تقدُر له قدْرَه، وتعرف له مكانته، وتصطفيه في احتفاليتها تلك المتجددة..

ودار الفكر بهذه المناسبة لا تخصص للشباب عاماً تحتفل بهم تحت ذلك الشعار وينقضي همها بعدئذ لتنساهم في سائر الأعوام؛ بل إنها تراهم بعين قلبها، وتشجعهم، وتحرص عليهم.. وتفتح لهم ذراعيها وتُشرع لهم الأبواب.. وكم نشرت لهم أعمالهم من قبل، فأصدرت رواياتهم وكتبهم، وبعضُهم كان في عامه الثامن عشر أو ما بعده بقليل، وانتقت من مؤلفاتهم ما قدمته إلى القراء، فكان اختيارها موفقاً، فأقبل عليهم القراء، وأثنوا على أعمالهم، وعُرفت أسماؤهم، فكانت الدار منبراً لكل قلم واعد، وكل صوت جديد، وكل فكر نيِّر، لا تخاف التجديد، ولا تخشى أن تكشف عن الصغار الذين سيكبرون يوماً ويكونون ذوي شأن.

وبعد ..

فدار الفكر تقدم تحيتها الخالصة إلى الدكتور أحمد خيري العمري وتقدمه مكرماً في هذا العام إلى قرائها من خلال هذا الكتاب الذي يهديه إليه قراؤه ومحبوه في مقالاتهم المسرودة فيه، ليكون كتاب التكريم الجديد، كما دأبت الدار في كل عام من كتاب لابد أن يكون هدية التكريم منها..

كرَّمت من قبل الدكتور نور الدين حاطوم والدكتور مازن المبارك والدكتور محمد سعيد رمضان البوطي والدكتور وهبة الزحيلي والدكتور شوقي أبو خليل والأستاذ جودت سعيد والدكتور محمد عزيز شكري والدكتور هاني رزق، وهؤلاء كلهم من سورية، ثم كرمت الدكتور حسين العمري من اليمن، والدكتور عبد الوهاب المسيري من مصر..

وها هي ذي اليوم تلتفت إلى العراق فتختار الدكتور أحمد خيري العمري.. صانع الأنفاق

تقدم له أطيب المنى

وتشدّ على يديه

وترجو له المزيد من العطاء.. عطاءً غير مجذوذ..

**محمد عدنان سالم**

# في البدء كان الياسمين*

**(إهداء خاص إلى الحاجة رشيقة العمري، - رحمها الله)[1]**

**بقلم المكرم**

سيسألني الزملاء والزميلات، فور أن تنتهي إجازتي وأعود إلى العمل، عن كل الأماكن السياحية في سورية، التي أوصوني عن سابق تجربة بزيارتها..

سأجد صعوبة كبيرة في تفسير أني ذهبت لمدة أسبوعين إلى سورية، دون أن أتبع خطوات الدليل السياحي إلى اللاذقية وطرطوس وكل تلك الأماكن الأخرى...

كيف سأوضح لهم، أني مارست سياحة من نوع آخر غير تلك التي يمارسها السياح الاعتياديون، سياحة في العمق، سياحة تبحر وتغوص في عمق ما وراء السطح..، ولا تعتمد على الكتيبات الصقيلة التي تصدرها وزارات السياحة؟!

***

كيف أوضح لهم، أن السياحة من هذا النوع في عاصمة هي الأقدم في التاريخ، والتي تحتوي في ترابها على سبع حضارات متتالية، لن تتلاءم مع معطيات السياحة في عصر العولمة؟!

كيف أوضح لهم، أن دمشق الحقيقة، دمشق العمق، دمشق الحضارات المتتالية، وبالذات حضارة الياسمين، لن تجعلك تفلت منها لتستأجر (شاليهاً) في اللاذقية، أو لتتفرج على زرقة البحر في طرطوس؟!

نعم، قد تكون السياحة (المتعولمة) أكثر ربحاً وأكثر إدراراً للدخل، من السياحة في العمق التي قمت بها..

لكن ما قمت به هو أقرب للحقيقة، منه للأمر الواقع..

لقد كانت رحلة في القواعد والأساسات، فيما جعل من تلك المدينة تصمد عبر الزمن، وتحتوي في إرثها على سبع حضارات متتالية. ربما لم أقصد ذلك عن سابق قصد وتصميم، لكن هذا ما حدث.. ولا يمكن أن أخفي فرحي بما حدث.

***

وإني وإن كنت لم أزر قمم الجبال أو زرقة البحر في اللاذقية أو طرطوس، أو الآثار والأعمدة في تدمر، إلا أني استكشفت ما لا يقدر على استكشافه أي سائح..

لقد ذهبت إلى قمم جبال واستكشفت ودياناً وسهولاً لم تذكر في كتب الجغرافية، واكتشفت كيف أن تكامل الجبال والوديان والسهول يمنح دمشق عمقها الأقوى والأكثر قدرة على الصمود، ويمكن أن يجعل من (عقد) الياسمين - الذي يبدو للوهلة الأولى ضعيفاً وهشاً - أكثر قدرة على الصمود حتى من نخلة شامخة شاهقة الطول..

يشهق قلبي الآن والكلام يقودني قسراً إلى النخلة؛ رمز بلادي، وتصعد الحسرة وأنا أفكر كيف انكسرت النخلة عندنا..، يذكرني صمود الياسمين رغم هشاشته الظاهرية - بانكسار النخلة رغم قوتها الشكلية..

هل كان الأمر لأن النخلة أصابها الغرور وهي في (الأعالي)، ولم تنتبه إلى أن جذورها أصابها الوهن والعضال، في حين كان الياسمين أكثر تواضعاً وأكثر معرفة بقدراته وخصائصه.. فكتبت له النجاة التي لم تكتب للنخلة...؟

أم أن ذلك كان لأن النخلة، في جزء من طبيعتها التكوينية، كانت صلبة أكثر مما يجب، وتفتقد إلى المرونة اللازمة للانحناء قليلاً أمام الإعصار، في حين تأقلم الياسمين على الالتفاف والمناورة والتسلق صعوداً ونزولاً.. فتمكن بذلك من الإفلات؟..

أمام النخلة المتكسرة والياسمين الصامد أقف؛ لا لأبكي على أطلال النخلة والغزل بالياسمين؛ ولكن لأن في قعر النخلة المنكسرة، توجد فسيلة نابتة.. فسيلة ستكبر يوماً لتصير نخلة شاهقة..، وفي عصر (الجينوم) والثورة الجينية الذي نعيش فيه، صار يمكن للنخلة أن تستفيد من دروس الياسمين.. بل صار يجب على النخلة أن تستفيد من درس الياسمين

***

ها أنا ذا أفعل ما هو متوقع مني وأكثر..

ها أنا ذا أكتب عن بغداد، وإن كان يفترض بي أن أكتب عن دمشق.

ها أنا ذا أتحدث عن النخلة البغدادية المكسورة، وإن كان يتوقع مني أن أتحدث عن شجيرة الياسمين الدمشقية الزاهية..

ها أنا ذا أرى بغداد في كل زاوية من زوايا دمشق، دمشق القديمة ودمشق الحديثة، أراها في التشابه، وأيضاً في الاختلاف..

بل إني أراها أكثر في الاختلاف..

بغداد، ودمشق، وجهان في غابة المرايا المتقابلة، تنصهر الملامح وتضيع الحدود، ولا تعود متأكداً أن هذه العين تعود لهذا الوجه، أو هذا الأنف يعود لذاك.

***

قبل أن أدخل حدود دمشق بقليل، حدث شيء عادي لكني بحكم الطبيعة فسرته بشكل رمزي.

حاولت أن أغير توقيت ساعتي اليدوية كما سيفعل أي مسافر سيقيم لبعض الوقت في دولة أخرى. ساعة واحدة فقط إلى الوراء حسب غرينتش، سيجعل من الوقت في ساعتي موافقاً لتوقيت دمشق.

كان ذلك أمراً بسيطاً جداً، لا يستلزم غير إدارة (زمبلك) الساعة لدورة واحدة عكس اتجاه عقارب الساعة، لكن ساعتي تمردت على ذلك؛ لم تتحرك عقاربها ولو قيد أنملة.

حاولت قليلاً.. ثم خشيت ألا تكمل الدورة وتقف في المنتصف لا إلى هنا ولا إلى هناك.

وتركتها كما هي على توقيت بغداد .

وكان ذلك يعني، أني في كل مرة أنظر فيها إلى الساعة لمعرفة الوقت، سأضطر إلى القيام بعملية حسابية بسيطة- ولكن واعية- لترك الزمن البغدادي الذي تدل عليه ساعة يدي، وأعود إلى زمن الواقع الدمشقي..

وكان ذلك يعني، بعبارة أخرى، أني سأظل مشدوداً إلى الزمن البغدادي المليء بالموت المجاني والدمار العبثي والجثث والانفجارات..

سأظل مشدوداً إلى زمن بغداد الذي ينزف كجرح مفتوح أحمله في خاصرتي أينما حللت وأينما رحلت..

لا فرار من ذلك.. لا فرار من بغداد حتى لو قررنا الفرار.. ستطاردنا هي، ستجبرنا على الالتفات إليها..

أوف بغداد، لن ننجو منك حتى لو فررنا..

***

.. وكان ذلك يعني، أن سياحتي الدمشقية هذه ستكون - بمعنى ما - خارج الزمن.. خارج إطارات الزمن والزمان التقليدية..

وكل ما سيبدو فيها، سيكون محكوماً بأنه عابر ومؤقت وغير مصرح له بالإقامة.

إنها بغداد التي لا فرار منها.

بغداد، أوف، بغداد ..

***

علي أن أعترف أن مشاعري كانت مشوشة جداً في يومي الدمشقي الأول..

كانت دمشق قد احتضنتني من الساعة الأولى التي دخلتها فيها، انهالت علي المكالمات الهاتفية مرحبةً بأصوات تقدم المودة والمحبة والصداقة، معظم الأصوات كانت لأصوات تعرفتها تحريرياً عبر المراسلات، وكان الانتقال إلى الحوار الصوتي - عبر الهواتف الدمشقية التي انهالت علي- مرحلة انتقالية تمكنني من تشكيل صورة ذهنية واقعية - للقاء الأول..

***

لكن مشاعري، رغم حفاوة الاستقبال، كانت في حالة من (التشوش) و(الاضطراب) حتى (الحيرة)..

كانت مشاعري مثل مشاعر أب مكسور القلب وهو يدفع الكرسي الطبي المتحرك لابنه المعوق أمام عشرات الأطفال وهم يخرجون من مدرستهم متدفقين صحة وعافية وحيوية..

دونما مواربة أقول، كان في مشاعري من الغيرة أكثر من أي شيء آخر، بهرتني دمشق لدرجة أني كدت أموت من الغيرة، غرت منها على بغداد الجريحة الكسيرة التي ندفعها أمامنا

على كرسي طبي أينما ذهبنا..

امتلأت بالغيرة في يومي الأول، كل شيء في دمشق ذكرني بكل شيء في بغداد، الأضواء المتلألئة ذكرتني بالظلام المخيم، والشوارع النظيفة[2] ذكرتني بالقمامة التي ما من محاسب عليها، والناس الذين يسيرون بحرية ذكروني بمدينتي التي صرت أجهلها من كثرة الحواجز الكونكريتية ونقاط التفتيش المسلحة التي لا تستطيع أن تتأكد من هويتها، فالشرطة ترتدي الملابس المدنية والعصابات قد ترتدي ملابس الشرطة.. في مزج بين لعبتي (الحرامية) و(الاختباء)، يكون الخاسر فيها دائماً هو المواطن المذعور المقهور.. ذكرتني الوجوه الحاسرة للناس هنا باللثام الذي يرتديه عندنا المسلحون من كل لون، وإذا كنت تفهم أن يرتدي المجرم (اللثام) - وهو جزء من طبيعة مهنته - فإنك لن تفهم لم يرتدي رجل الأمن اللثام نفسه إلا إذا كان مصراً على إرعابك وإرهابك كما يفعل الآخرون..

أكثر ما ملأني بالغيرة من دمشق على بغداد هو حقيقة أن الناس ( يعيشون ) في دمشق: يمارسون حقوقهم البسيطة التي قد لا يتوقفون للتفكير في أهميتها؛ يخرجون للتنزه المجاني أو ( شم الهواء ). يصطحبون معهم عوائلهم وأطفالهم، أو يتوقفون لشرب ( الكازوزة )، أو لمجرد الاستمتاع بمنظر ما دون أن يكون ذلك مغامرة غير مأمونة العواقب كما عندنا.

بدا ذلك كله استثنائياً بالنسبة إلينا وباعثاً على الغيرة، وعندما خرجنا أنا وزوجتي سيراً على الأقدام قبل منتصف الليل بنحو ساعة، كنا نتمنى - ولو سراً- أن نجد دمشق مقفرة وخالية من سكانها الذين ذهبوا للقعود في بيوتهم أو النوم مبكرين؛ لإقناع أنفسنا أن الحال مشابه، وإن تعددت الأسباب.

لكن دمشق باغتتنا بحلة من الأضواء البهية، وبقوافل من المارة الذين (يعيشون) دون أن يدركوا أي ألم يثيرون فينا. جلسنا في أحد المطاعم ساهين واجمين، وأكلتنا غيرتنا بدل أن نأكل (البوظة).. كنا بالضبط مثل طفلين يتيمين دعيا لحفل عيد ميلاد زميل لهما: كل ما سيفرح الأطفال الآخرين ويثير سعادتهم سيزيدهما تعاسة وينغص عليهما..

تلك كانت ليلتنا - الدمشقية - الأولى، ورد فعلنا الأولي تجاه حضارة الضوء والياسمين المتلألئ وحقيقة أن الناس لا يزالون (يعيشون)..

إنني أفهم أن هذا كله قد يبدو نسبياً جداً، وهو من ثمَّ غير مهم بالنسبة إلى الدمشقيين ..

لكني واثق من أن العراقيين يفهمون ما أقول، أي عراقي مر بدمشق لا يمكن له إلا أن يفهم ما أقول.. وربما يجهش بالبكاء على بغداد .

أوف، بغداد .

***

أستدرك مشاعري الآن، وأدعو الله عز وجل أن يديم على الشوام ما لا يدركون ..

***

لكن علاقتي بالشام لم تبدأ بالتأكيد في ذلك الأربعاء الذي حللت فيه ضيفاً عليها، علاقتي بالشام أقدم وأعرق، وأكثر تعقيداً وتركيباً.. ومن الواضح أن هذا التعقيد والتركيب والتشابك يزداد مع الأيام..

جزء من ذلك يعود إلى علاقة أي بغدادي بدمشق، بل أي عراقي بسورية، هناك ذلك التنافس اللدود الذي ورثناه عن تنافس العباسيين والأمويين، وعاصمتي خلافة دامت لبغداد أكثر مما دامت لدمشق، لكن كان السبق فيها لدمشق.. والآن وقد انتهى كل شيء ودال الأمر لغيرنا منذ قرون، لم يعد في تلك المنافسة غير الود وذكريات الماضي الذي كان..

هناك أيضاً ذلك التصاهر والتداخل في العائلات الذي لا يمكن لحدود سايكس بيكو أو القطيعة السياسية أن تلغيه..في ركن ما من سوق الحميدية، توجد بضعة أشبار، أو ربما بضعة سنتمترات، تعود قانوناً لأمي، ورثتها عن إحدى جدّاتها التي كانت من عائلة دمشقية عريقة (لن يطالب أحد بالإرث فلا داعي للفزع..)، بل إن اسم والدتي يدل على ذلك التداخل، فاسمها (لميس) اسم نادر جداً في العراق، بل غير موجود أصلاً في ذلك العهد.. على العكس من انتشاره في الشام ودمشق خصوصاً.. وقد اقترحه على والدها صديق له شامي كان يزوره في بغداد في ذلك الوقت..

(لذلك تقول والدتي إنها "أول لميس في العراق"، لكني اكتشفت لميساً أخرى تكبرها بقليل في الموصل، وهي من آل جلميران المعروفين بتجارتهم مع حلب.. فالقصة واحدة إذن، وعلى والدتي أن تقنع بكونها أول لميس في بغداد!).

أسرة والدة زوجتي تعود بأصولها إلى حماة، وجدتها لأبيها سورية أيضاً، والتداخل بين الموصل وحلب أكبر من أن يستشهد له بأي دليل من هذا النوع.. وقد احتفظت به ذاكرة التراث

الغنائي، وإلى اليوم لا يوجد حفل زفاف في الموصل يمر دون أن تمدح العروس بأن يقال عنها، غناءً، إن "أباها تاجر حلب"!!!..

ذلك التداخل عبر عنه الشيخ علي الطنطاوي رحمه الله بأن قال قوله المشهور: الموصل فرع سورية في العراق، ودير الزور فرع العراق في سورية.. وهو ما أستدرك عليه بأن الأمر أقوى وأعمق من الفروع والتفرعات، وهو في عمقه تداخل إنساني حميم يتحدى الحدود والخرائط..

جزء من نظرة البغداديين للشام تسكن لاوعيهم وعقلهم الجمعي، تتمثل في قول بغدادي دارج قد يستعمله الكثيرون وهم لا يفطنون إلى أصله ومعناه، فالعراقيون عامة، والبغداديون خاصة، عندما يريدون أن يقولوا عن شيء ما إنه عشوائي لا يميز بين ما هو طيب أو ما هو خبيث، بين ما هو رخيص أو ما هو ثمين، أو كما نقول "الأخضر باليابس"، فإنهم يقولون ببساطة: "عامي شامي"..

ويعني هذا أنهم يعدون الشام والشامي الأرقى والأكثر تميزاً، وهم يميزونه تحديداً عن كل ما سواه بأن يقولوا عن هذا بأنه "عامّي"..أي إنه من عامة الناس، في حين أن الشامي هو من صفوتهم!!!

يروق ذلك حتماً للشوام، لكننا سنعود لاحقاً لتعريف "الشام"!!!

***

لكن علاقتي بالشام أخص من كل ذلك التعميم..

فبغداد هي أمي بالتأكيد، هي الأم البيولوجية والأنثربولوجية والإيديولوجية والإبستمولوجية (حتى لا يغضب علينا إخوتنا الحداثيون الذين يتهمونني بما أفخر به: التبسيطية!) لكن، الولادة البيولوجية والأنثربولوجية - لا تمنع أبداً وجود ولادات أخرى نعيشها في حياتنا، نساهم فيها بفرعينا، وتساهم فيها مدن أخرى غير مدينتنا الأم..

لقد كانت بغداد هي أمي، لكن الشام أيضاً ولدتني عدة ولادات..

***

فإذا شهدت صالة الولادة في مستشفى كمال السامرائي في بغداد، ولادتي البيولوجية؛ فإن ولادتي الثانية حدثت في صالة سينما، بعد نحو ثمان سنوات من الولادة الأولى..

في تلك الصالة المظلمة، التقيت بأول ضوء في المجرة، وشاهدت على الشاشة البيضاء، ملحمة الصوت والضوء وهي تقتحم حياتي وتتخللها دون أي استئذان، وتحفر في داخلي طرقاً وإشارات وعلامات..

كانت الولادة يوم الجمعة (مثل الولادة البيولوجية بالضبط!)، وكان يوم عيد، وكان اسم الصالة سينما بابل، وكان الفيلم هو ( الرسالة ) طبعاً.. وكان أني بدأت الصلاة يومها بالتحديد ..

وعلاقة ذلك كله بالشام، هو أن مايسترو الصوت والضوء الذي قدم تلك الملحمة التي غيرت حياتي (وحياة الكثيرين، أنا متيقن) كان من سورية تحديداً، وأنه بالتأكيد، وإن عاش في أمريكة، ودرس فيها، وأنتج ملحمته بأموال ليست من الشام، إلا أنه كان يختزن الشام، وحضارتها، وياسمينها في أعماقه عندما (أخرج) تلك الجوهرة إلى الملأ..

ذلك الرجل، مايسترو الصوت والضوء، هو أهم كاتب سيرة معاصر ، على الرغم من البعض ممن أفتوا يومها بمنع الفيلم وحرمة مشاهدته، ( ويطيب لي كثيراً أن أتخيل هنا أن تلك الجوهرة الحبيبة ستكون في ميزان أعماله وتدخله إلى حيث يحب ونحب ...)..

ذلك الرجل أشرف على ولادتي الثانية، أدخل في أعماقي أشخاصاً وأفكاراً وقيماً بطريقة ما كان بإمكان أي وسيلة تقليدية أن تفعلها، ظلت تلك الأمور راسخة عندي، بل خرج بعض الأشخاص من الشاشة البيضاء، وأقاموا في أعماقي، وبعضهم انتظر عقوداً في داخلي مثل (عداس)، إلى أن طفا لاحقاً على سطح البوصلة..

أجاءني مخاض الولادة الثانية إلى أهم علاقة يمكن لإنسان أن يكونها؛ العلاقة مع الله. وكان الطبيب المشرف على الولادة سورياً اختزن في أعماقه كل حضارة الياسمين وثقافتها واستراتيجية صمودها.

أفلا أكون ممتناً للشام إذن، إنها ساهمت في ولادتي الثانية، التي ربما تكون أهم من ولادتي البيولوجية؟؟

( سيعترض الدمشقيون هنا، ويقولون إن الراحل الكبير هو من حلب وليس من (الشام)، فالشام بالنسبة إليهم مدينتهم حصراً وتحديداً، من السور إلى السور، وكل ما عداها عالم آخر، أتفهم ذلك طبعاً، بل أحبه، فهو يحفظ للمدينة خصوصيتها ما لم يتحول إلى تعصب ضد ما هو خارج أسوارها، لكني مع ذلك أهمس فيهم أنهم أيضاً يقزمون مارداً لا يمكن تقزيمه، ويختصرون عالماً غير قابل للاختصار، فالشام هي أولاً بلاد الشام - وحدودها معروفة قبل أن

تولد الخرائط - ودمشق هي لب اللب منها، هي جوهر الجوهر.. هي المدينة التي تستأثر بحصة الأسد من كل ما ورد في (فضائل الشام).. لكن ذلك لن ينفي وقوع مدن عريقة أخرى داخل خريطة الفضائل الشامية.. بعض هذه المدن نافست (دمشق) وأخذت منها السطوة والصيت في بعض الأوقات والأزمنة، وكانت حلب منافسة حقيقية بلا شك، وكانت جديرة بالمنافسة .. لكن دعونا لا نصدق كثيراً أن الشام هي (دمشق) فقط، حتى لا نصدق بعدها أن حلب نافست الشام!!.. لقد تنافست مدن الشام بعضها مع بعض، وأخذت مدنها كلها الكثير من ياسمين دمشق ومن عمقها، وأعانها ذلك في التنافس ..

عبقرية ذلك المبدع الراحل اختزنت جزءاً من قلعة حلب بالتأكيد، لكن ياسمين الشام كان قد تسلق أسوار تلك القلعة حتماً، وتسلل إلى تلك العبقرية، سواء أدرك ذلك أم لم يدرك ..).

***

بعد ذلك بسنتين فقط، ولدتني دمشق مرة أخرى..

كنت في العاشرة عندما التقيت بذلك الحرف الذي لا أخجل من ذكر صلتي به وتأثري به -مع أن البعض قد يعد ذلك منقصة وسبة - كانت رواية من روايات تلك الكاتبة الدمشقية، اشتراها من هو أكبر مني في أسرتي، وقرأتها كلها في نفس الليلة، كانت ليلة مدهشة بالمناسبة.. مع أنها كانت ليلة قصف وغارات، فقد كانت تلك هي الأيام الأولى للحرب الإيرانية. تكورت ليلتها على الحرف مثل قنفذ يتكور على أشواكه ليحمي نفسه، واكتشفت أن الحرف يمكن له أن يغير العالم.. اكتشفت أنه يمكن أن يثير الشهقة والدهشة والنشوة.. اكتشفت أن الحرف يمكنه أن يفتح النوافذ إلى عوالم عجائبية أخرى. وكان الأمر مثل استخدام عقار أو مخدر ما لركوب أجنحة الخيال إلى تخوم الإدراك والوعي..

كان الحرف يأخذني إلى عوالم أخرى ما عرفت بوجودها خارج نافذتي، وكنت أنتبه بين الحين والآخر، على صياح والدي علي لأبتعد عن النافذة بسبب الخوف من تهشم زجاجها بفعل القصف، وكنت أنظر إليهما مدهوشاً، كيف عرفا أن في الرواية التي أقرؤها قصفاً وحرباً؟ فقد كانت العوالم التي ولجتها تبدو أكثر واقعية وقرباً من ذلك العالم الآخر الذي كان يتربص بنا جميعاً..

ويومها عرفت أن بإمكان الحرف أن ينقلني إلى عوالم الألعاب النارية والدهشة والزلازل والبراكين ..

***

وإذا كان فرويد يعتقد أن مكونات شخصيتنا تتحدد في السنوات الست الأولى، فإني أعتقد أن مكونات شخصية أي كاتب ستحدد فيما قرأه بين العاشرة والخامسة عشرة؛ أي بالضبط في تلك المرحلة الانتقالية بين الطفولة والمراهقة، بين مرحلة الأجوبة المطمئنة ومرحلة الأسئلة الحائرة؛ مرحلة الانتقال من النوم الهادئ إلى النوم المتقلب.. مرحلة الانتقال من السذاجة المباشرة إلى تباشير الوعي..

وفي تلك المرحلة بالذات، بين العاشرة والخامسة عشرة، أدمنت ذلك الحرف الدمشقي بعشق حقيقي، وامتزجت تلك اللغة الدمشقية بدمائي حتى صارت جزءاً منها، وحملت معها مكوناتها الموروثة أيضاً (بعضها دمشقي من عمق الأزقة الدمشقية التي ولد فيها هذا الحرف، وبعضها (حيفاوي) عشقه ذلك الحرف وكان جزءاً من تعليمه حرفة الكتابة، وبعضها شكسبيري درسه ذلك الحرف بشكل أكاديمي) لتصير جزءاً مني أيضاً..

وعند نهاية تلك المرحلة، وقفت وقد أجاءني المخاض، في ولادتي الدمشقية الثانية، إلى حيث القلم، إلى حيث الحرف.. إلى حيث معجزة (اقرأ)..

وهناك عرفت أن بإمكان هذا الحرف أن يحدث معجزة التغيير.. وكانت كلمة السر هي (اقرأ)..

***

بعدها بسنين، طلب مني صديق لي في المدرسة، أن أكتب له موضوعاً في الإنشاء.. بسبب انشغاله بفروض أخرى. كتبت له على عجل صفحتين ونقلها هو بخطه في دفتره، وقدمه إلى أستاذ اللغة العربية. يومها أرجع الأستاذ الدفتر مهمشاً بملاحظته إلى زميلي " الذي كتب هذا الإنشاء هو أحمد خيري من الشعبة أ ".

.. كان هذا على الأقل، شيئاً يقال .

***

أفلا أكون ممتناً لدمشق إذن؟.

***

ولادتي الثالثة لم تكن دمشقية تحديداً، كما أنها لم تكن بغدادية أيضاً ولا قاهرية ولا جزائرية عاصمية، كانت ولادة أكبر من كل المدن، وإن كانت تحتويها جميعاً بشكل أو بآخر..

كانت تلك هي ولادتي (الأهم)، ولادة الإيمان الذي يتجاوز الشعائر إلى الإيمان بقضية هي محور الحياة.. ولادة تتجاوز البيولوجية والإيديولوجية لتصير تنفساً وشهيقاً وزفيراً وتترك مجرى الدم لتدخل في كرياته البيضاء والحمراء..

لكن تلك الولادة كانت أكبر من أي مدينة، مع أن كل المدن قد أسهمت فيها..

فلنرجع الآن إلى دمشق..

***

دمشق، التي منحتني مخاض الحرف، كان لابد أن يكون لها دور في مخاض الالتزام؛ فبالحرف أخرج من قوقعة (الأنا) إلى رحابة (النحن).. وبالحرف أخرج من ضيق الفردية إلى سعة (الجماعة)، وبالحرف تسقط تلك الجدران التي تعزل البشر بعضهم عن بعض وعن أنفسهم وتمنعهم عن التواصل.. وبالحرف نحلق بعيداً عن السائد والتقليدي ونعيد الوهج والبريق لما تراكم عليه الغبار..

بالحرف نكسر الحواجز الكونكريتية - والعقبات النفسية - ونجعل من (الآخر) يتصور أننا نتحدث بالنيابة عنه، نستعير هواجسه ومخاوفه ومشاعره، ونستعير لسانه لنتحدث به، فيختلط ما أقول بما يريد قوله، ويبدو حرفي نابعاً من حنجرته، من قلبه، بدلاً من أن يكون صادراً من قلمي..

منحتني دمشق ذلك، وأعطت لقضيتي بعدها الأهم وعمقها الأكبر، صار يمكن لقضيتي أن تخرج إلى الناس (على الأقل من يقرأ منهم) عبر تقنية الحرف الدمشقي..

حاولت على الأقل أن أفعل ذلك، أخفقت مرات، ونجحت مرات، وبين التحليق صعوداً والإخفاق هبوطاً، كان هناك شرف المحاولة الأكثر فائدة ونفعاً من سكون الجلوس والعيش أبد الدهر بين الحفر ..

***

لكن دمشق لم تكف ولن تكف..

وبعد أن علمتني الكتابة، أرسلت لي لترى ماذا كتبت، وماذا بإمكاني أن أفعل.

كنت أنا العراقي القابع خلف أسوار الحصار، الممنوع من السفر بحكم مهنة الطب، المحروم من إفرازات ووسائل ثورة المعلومات، وهو الحرمان الذي يجعله يعيش في قرن آخر

يزداد بعداً وتخلفاً، كلما زاد العالم من حولنا تقدماً في ذلك، في سباق لا يرحم فيه المتباطئ فكيف بالوقوف والمحكوم بالوقوف بحكم القانون الدولي؟.

وكنت قد أتممت كتابي مخطوطة للتو، ولم يكن لدي أدنى فكرة عن الكيفية التي يتم فيها إصدار شهادة رسمية لولادة تلك المخطوطة (.. أي نشرها). وطوال مدة الكتابة، كنت قد أبعدت تلك الفكرة عن بالي، متوكلاً على فهمي لطبيعة السنن الإلهية المتداخلة، لكن، بما أن الجزء المتعلق بي من هذه السنن كان قد انتهى (= الكتابة!)، فقد كان الوقت قد حان للبحث عن السنن الأخرى..

كان أمر النشر في بغداد مستبعداً جداً، ليس لأن مغنية الحي (لا تطرب) فقط - مع أني أؤمن بذلك خاصة في الحي البغدادي!!- لكن لأن حصار بغداد كان قد جعل من أمور النشر والقراءة في آخر اهتمامات الناس الذين -في ظل الحصار الذي شرعنته الأمم المتحدة- صاروا لا يكادون يتدبرون قوت يومهم.

فيما مضى من الوقت، كان اهتمام العراقيين بالقراءة يجسد في عبارة "القاهرة تكتب، بيروت تطبع، وبغداد تقرأ..".. وحتى في ظل الحرب العراقية الإيرانية كان اهتمام الناس بالقراءة لافتاً، وكان التجمهر (ومن ثم التدافع!!) عند أبواب معرض الكتاب ظاهرة سائدة جداً..

لكن جاء الحصار ليجبر الناس على بيع كتبهم (بعدما باعوا أثاث بيوتهم ومقتنياتهم، ثم باعوا، بأعين دامعة، كتبهم..).

***

كانت عيني على دمشق، بالذات على تلك (الدار) فيها تحديداً. كنت أرى فيها (نفساً) يوافق النفس الذي كتبت الكتاب فيه. ولم أكن أعرف كيف أصل إلى تلك الدار، لم أكن أعرف مخلوقاً واحداً في دمشق كلها، هذا فضلاً عن أن أعرف مخلوقاً في تلك الدار..

لم تكن لدي أي صلة، أنا العراقي المحاصر في سجن داجل سجن، بأي شيء له علاقة بكلمة اسمها (نشر)..

.. وكانت عيني على دمشق، ولم يكن إليها سبيل، وكان ذلك يعني أن المخطوط سيظل حبيساً داخل الدرج عرضة للغبار والعناكب والنسيان..

ولكن؛ لأن السنن الإلهية تتغلب على كل ما نفهم من قوانين، فقد جاءت دمشق إلي، بما أني لم أتمكن من الذهاب إليها.

***

جاءت دمشق؟. لا. لم تجئ. فقد كانت بطريقة ما دوماً موجودة ، لكنها فضلت أن (تتجسد)، أو (تتمثل) في شخص ابن من أبنائها، ترسله، فيما بدا بالنسبة إلي أنه قد أرسل من أجلي..

كان اسمه ( غياث هواري ).

وكانت المناسبة الرسمية لذلك هي معرض كتاب، أقيم في بغداد بعد طول انقطاع.

.. وشاركت فيه الدار..

***

لا أفهم كيف يستطيع الناس ألا يفهموا (القدر) الموجود وراء كل حادث قد يبدو عادياً وعابراً في حياتهم..

ربما، لأنهم، لسبب أو لآخر، ينظرون إلى الأمر من زاوية جزئية، فيلتهون بالتفاصيل، عن رؤية المشهد بأكمله، فيتصورون الصدفة، ويتعللون بأسباب ثانوية، ويغفلون رؤية المشهد بأكمله، فلا تغني عنهم التفاصيل شيئاً، إذ إنهم فوتوا المغزى كله..

.. لكن الرؤية الكاملة للمشهد (المترابط التفاصيل) ستغير المعنى وتمنح مغزى مختلفاً لكل شيء.

رؤية اللوحة الكاملة، ستجعلنا نفهم الحكمة وراء المشهد كله، الحكمة التي لا أتردد في القول عنها أنها جزء من القدر.

***

من مفهوم اللوحة الكاملة، يبدو لقائي بغياث مختلفاً جداً عنه إذا فسر ضمن مفهوم الصدفة العابرة والتفاصيل الثانوية.

ضمن مفهوم الصدفة، سيكون الأمر مجرد معرض كتب آخر في دولة أخرى، ومجرد موظف آخر في دار نشر أخرى، يلتقي بكاتب آخر يحمل بين يديه مخطوطاً آخر.

نعم. كل هذه التفاصيل صحيحة عندما (تُسكن) داخل مفهوم الصدفة العابرة، كل شيء سيكون عابراً وبلا معنى غير معنى الصدفة الذي لا معنى حقيقياً فيه..

لكن خلف تفاصيل التشوش، وخلف تداخلات العماء، والفوضى، هناك معنى أكبر وأعمق مما قد يبدو للوهلة الأولى..

بمعنى آخر: نظرية التفاصيل تركز على خطوط متداخلة بشكل يبدو أنه عشوائي وبلا معنى..

في حين أن اللوحة الكاملة، ستظهر لنا أن تلك الخطوط هي جزء من شبكة سكك حديدية؛ كل منها يؤدي إلى محطة مختلفة عن الأخرى، لكل منها وجهة مختلفة. لكن ذلك لا يبدو جلياً في جزئية الصورة التي تصور تشابك الخطوط وكأنه محض (تشوش).. و(فوضى).

شيء من كل هذا، بالجزء الناقص والصورة الكاملة - كان في لقائي مع (غياث).

***

وقفت أمام الركن الخاص بدار الفكر.. (ليس أي دار نشر).. كانت عيني عليها من بعد.. والآن ها هي ذي أمامي..

انتبهت إلى العناوين المعروضة (ليس أي عناوين)، كان بعضها معروفاً جداً وقد تسربت نسخ منها (على الأغلب غير شرعية وبطباعة رديئة إلى سوقنا المحكوم بالحصار)، والبعض الآخر أقل شهرة، دون أن يعني ذلك أنها أقل جودة..، وكان مجموع العناوين، يؤكد لي، أن (النَّفَس) الذي جعل عيني تنصب على تلك الدار تحديداً، لا يزال قوياً.

راقبت الموظف المسؤول عن كتب الدار، كان يمكن أن يكون عراقياً؛ فمعظم دور النشر كانت توظف شباباً عراقيين يرغبون في أي عمل تحت ضغط الحصار (أو تجبر على ذلك من قبل السلطات؟)، وكان ذلك يعني أنه لا فائدة من أي حديث. سمعته يقول شيئاً باللهجة الشامية: (لكنه لم يكن أي شامي.. ولم يكن أي موظف..).

وقفت أمامه مرتبكاً.. جاءني هاجس أن هذا الشاب يمكن له أن يخرج بوصلتي من ظلمة الدرج المنسي ومن مصير العث المتربص..

(كان هذا الهاجس صادقاً جداً..).

لم يكن بإمكاني أن أفتح أي حوار معه، دون أن أشتري كمية من الكتب، تجعلني على الأقل زبوناً (مهتماً).

كومتها أمامه، كان يجب أن أعرف مقدار اهتمامه بنفس الدار، ربما كان في النهاية مجرد موظف يقبض مرتبه آخر كل شهر ولا يهمه أي شيء مما تروج له الدار..

(لم يكن مجرد موظف آخر).

قررت أن أجس نبضه بكلمة - مفتاح- تبين مقدار اهتمامه.

سألته، بطريقة حاولت أن تكون طبيعية جداً، إن كان هناك عناوين أخرى ( في المقاصد ..).

كانت تلك مثل شفرة فتحت باب المغارة بالنسبة إلي. المقاصد !

وبدا عليه الاهتمام الفوري، لم يكن أي موظف، كان غياث هواري، لديه في رأسه مجسات استشعار خاصة، تميز ما يجب أن يترك وما يجب أن يؤخذ، تميز التقليدي والسائد والمكرر عن الجديد والمختلف. حركت كلمة المقاصد مجسات استشعاره، لقد كانت أشبه بكلمة سرية قلناها دون أن نقول. كان معناها، المضمر، أكبر من مجرد البحث عن عنوان آخر في فقه المقاصد، كانت تعكس تلك الحاجة العميقة التي يستشعرها أبناء جيلي في الثورة على الأفكار السائدة، لا من أجل التدمير كهدف في حد ذاته؛ ولكن من أجل إعادة البناء ..

كان السؤال عن المقاصد، يعني ذلك.

وكان الحوار الذي أثاره السؤال يؤكد ذلك.

هنا وصلت إلى تلك المرحلة التي يجب أن أقول فيها ما كنت أريد أن أقوله من البداية جداً.

ترددت قليلاً، كان هذا منعطفاً حاداً في الحوار، وكان سيفضح بالتأكيد خطتي كلها.

قلت في نفسي: " قلها ولا تخف ". لم أغمض عيني، ولكني كنت أود ذلك بالتأكيد. سمعت صوتي يقول: " لدي مؤلف مخطوط يتماشى مع خط الدار ".

كان على وجه غياث نظرة تقول أنه سمع هذه الجملة أكثر من ألف مرة ربما بطريقة أفضل وبمقدمات أكثر إقناعاً.

تأدباً، لا أكثر، أو فضولاً، في أحسن الأحوال، سألني، عن عنوان المؤلف.

لمحت في عينيه الشرارة، عندما قلت أنا: " البوصلة القرآنية ". لقد استحوذت على اهتمامه بالعنوان. تحركت مجساته كما لو كانت آلة للتنقيب الجيولوجي عن المعادن الخام. كانت تلك الشرارة تعني الحاجة التي يستشعرها غياث، وأستشعرها أنا، والألوف من أبناء جيلي، الحاجة إلى (بوصلة) للخروج مما نحن فيه، بوصلة حقيقية، تستند إلى ثوابت واضحة، إلى القرآن دون الحاجة إلى وصاية بعض المؤسسات التقليدية التي ساهمت في التصالح مع الأمر الواقع ...

لقد كان العنوان هو الذي قدح تلك الشرارة.

كما لو كانت معجزة، قال لي غياث أن أحضر مستخلصاً عن الكتاب.. (وعني!).. وضرب لي موعداً في اليوم التالي..

***

في الأيام التالية، تحولت الشرارة لتصير نزيفاً حاداً اختزناه في أعماقنا ووجدنا الفرصة لنخرجه. كانت المشاعر متطابقة بشكل مثير، مشاعر الحاجة إلى الخروج، مشاعر البحث عن سبيل. كان غياث يتحدث بلسان جيله، وقد اكتشفت أن ما انعزلت عنه في بغداد - عن سابق قصد وتصميم - لم يجعلني أنسلخ عن مشاعر جيلي وهمومه وإحباطاته، لكن جعلني أكثر التحاماً به وبهمومه وتطلعاته ..

وجدت كلامي على لسان غياث، ووجدت مشاعره في جملي وأوراقي، وتبادلنا ما قلناه طويلاً، تحدث لي عن مجموعة الشباب الذين يحملون الهم ذاته في صدورهم (تعرفتهم لاحقاً في هذه الرحلة بالذات..) وحدست أن للبوصلة فرصة هناك، مع شباب مثل هؤلاء..

***

لكن ( البوصلة ..) لم تكن مجرد تنفيس وبوح عن الحاجة إلى التغيير - مع أن هناك من يرى ذلك- لقد كانت البوصلة تحتوي، في رأيي أنا على الأقل، على مؤشرات لتفسير ما حصل، وعلى إرهاصات للخروج من الأزمة عبر فهم جذورها البعيدة.

وكانت هذه المؤشرات والإرهاصات، تمس موروثات وشخصيات منحها التقادم قداسة، ومنحتها القداسة حصانة من النقد والتشريح..

وكان الدخول في تفاصيل ( اللحظة الأموية ) أشبه بالتجول في حقل ألغام، خصوصاً عندما تكون بصدد النشر في عاصمة الأمويين: دمشق !. وكان عليَّ أن أواجه غياثاً بكل شيء.

***

تركته غاطساً في الفصل - المشكلة.

كنت أروح وأجيء، وأجلب الشاي والسكر وأرى إن كان بحاجة إلى شيء، وكلها حجج لأسترق النظر إليه وأراقب كيف تسير الأمور.

عندما انتهى، كان هم ألف وأربع مئة سنة قد ارتسم على وجهه .

حك رأسه قليلاً. وقال على مهل: " فقط تخيل لو أن ما تقول، قد حصل فعلاً ..".

أجبته دونما تردد: "لا.. أنا لا أتخيل؛ أنا أعرف.. هذا ما حصل".

عندما يكون الكذب طوفاناً فإن الحقيقة ستكون عملاً فدائياً، وعليك أن تعاملها بلا تردد.. على أنها حقيقة مطلقة.. (على الأقل إلى أن يجزر مدّ الكذب..) .

***

قال لي غياث، دونما مواربة؛ إن نشر الكتاب في الدار لن يكون عملاً سهلاً.

في الحقيقة أنه قال إنه من المستبعد أن يقبل الكتاب، وإن حرباً قد تنشب بسببه، وإنه سيثير مشاكلَ للدار هو في غنى عنها..

كان بالمقابل يقدم اقتراحات ترضية، كأن ينشر الكتاب على قرص مدمج!!.

كان يعتذر بطريقة أو بأخرى.

كنت جالساً معه في معرض الكتاب في اليوم الأخير للمعرض، وقد بدت الفرصة التي سنحت لي كسراب يتلاشى، عما قليل سيحزم غياث (ودار الفكر ممثلة فيه) حقائبه ويرحل، ويظل البوصلة ها هنا دونما حراك، كان الأمر مخيباً للآمال، لقد انتهت مهمتي في لحظة أنهيت الكتابة.

والآن هناك دور آخر لأناس آخرين عليهم أن يفعلوا شيئاً، لكن كيف أصل إليهم، كيف يبدأ دورهم؟

بين أكوام الكتب حولي أدرت وجهي على عشرات العناوين، بل المئات منها.أحسست بالغبن وبالظلم، كل هؤلاء كان لديهم ما قدموه ووجدوا من ينشر لهم إلا أنا، كل هؤلاء كان في أعمالهم ما يستحق النشر، و(البوصلة) ليس فيه ما يستحق النظر؟

امتلأت بغم كبير، وفيما بدا أنه المحاولة الأخيرة لي، سحبت كتاباً من أكوام الكتب حولي، عنواناً من تلك العناوين التمجيدية لتاريخنا - لا أزال أذكر العنوان والموضوع والمؤلف لكن دعونا من ذلك ومن مشاكل ذلك - ووضعته أمام غياث.

قلت له: " غياث! ما رأيك في هذا الكتاب تحديداً ؟".

قال لي: إنه كتاب عادي، لا شيء فيه.

قلت له: "هل فيه شيء جديد ومميز؟؟ على الأقل في الموضوع الذي يتحدث عنه؟".

قال: " لا، لا أظن ".

أرجعت الكتاب إلى مكانه، وقلت بحدة: " ومع ذلك فقد نشر ووجد من ينشره. مع أنه لا شيء جديد فيه ..".

" أما كتابي الذي فيه جديد، فلا يوجد من يجرؤ على نشره ..".

كانت تلك هي العبارة القاضية، كما قال لي غياث لاحقاً، لقد جعلته ملتزماً بقضية الكتاب؛ وضعته أمام مسؤولياته، والتزم بها، جعلته يأخذ الكتاب بقوة ، ولو أدى الأمر إلى الحرب.

وقد كانت الحرب. وأقول لكم: لقد أبلى غياث بلاءً حسناً .

***

كل ما حصل لاحقاً، خرج من نطاق تأثيري تماماً، بل حتى رؤيتي، إنها السنن كما تعلمون، ودوري انتهى. ولولا تلك المكالمات الهاتفية - المتوترة، أعترف- التي كنت أتابع فيها الأمر، لكنت قلت إن الأمر لم يعد له علاقة بي..

في الفترة التي تلت استلام غياث للكتاب، في أوائل عام 2002، إلى حين صدوره في أواخر 2003، كنت قد غطست تماماً بمشاريع أخرى، أولاً ( ضوء في المجرة )، ثم جاءت الحرب ومعها وبعدها جاء ( ليلة سقوط بغداد)، أما البوصلة، فكانت حربها في دمشق مستعرة؛ حرب القديم الذي يحارب الجديد لمجرد أنه جديد.. حرب التقليدي الذي يتصور أنه يحافظ على التقاليد والثوابت ضد الثائر الذي يؤمن أن هذا الحفاظ هو أسهل الطرق لتضييع كل شيء.. حرب الحقيقة مع الأمر الواقع.. حرب ( ما يجب أن يكون ) ضد ( ليس بالإمكان أبداً أبدع مما كان )..

وكان في الجبهة جنود كثيرون.. وكثيرات.. بعضهم ظل مجهولاً بالنسبة إلي، والبعض الآخر جاء من تبرع وسلط الضوء عليه.

لم تكن تلك حربي، بل كانت حرب دمشق، بل كانت حرب السنن الإلهية التي تسير الكون . كان ذلك جزءاً من الخطة التي تحكم اللوحة بأكملها، دورنا فيها يتلخص في الخيار بين مفترقات الطرق. كل خط من الخطوط المتشابكة يؤدي إلى محطة مختلفة، إلى وجهة مختلفة، دورنا يتلخص في اختيار سكة الحديد..

.. وفي تلك المعركة، ربما في مرحلة لاحقة منها، كان دور أهم ( لوبي ) في تلك المعركة: لوبي النساء في دمشق . لوبي النساء الواعيات اللواتي ارتفعن بهمومهن عن (الأشياء)، وحتى عن (الأشخاص) - إلى (الأفكار).. وهن يجعلن منها قضيتهن الأولى..

..( أتفهم الآن، بأثر رجعي، السبب الذي يجعل البعض يتحفز ضد كل ما هو جديد، ذلك أن بعض هذا الجديد ليس سوى محاولة لشرعنة التفلت والتمييع من الشرع، لكن ذلك لا ينسحب على كل ما هو جديد، ولا يبرر أبداً رفض الجديد قبل تمحيصه ..).

***

وكانت هناك كلمة الحسم من ذلك الرجل الذي على قمة الهرم ؛ الأستاذ عدنان سالم، مدير الدار، الذي اتضح أنه في قلب (الهرم)؛ بل اتضح أنه يسكن نبض الهرم، ويسكنه ربما أكثر من أولئك الذين في قاعدة الهرم.. وأكثر بالتأكيد من أولئك الذين في الطوابق الوسطى ..

كلمة الحسم النهائية كانت من ذلك الرجل الذي أجد نفسي مضطراً إلى عدم الخوض في الثناء عليه، حتى لا يفسر هذا بتملق رخيص من كاتب ناشئ إلى ناشر معروف.

لكن مع ذلك، ومع أن الحسم صدر من فرد يتربع على قمة الهرم، إلا أني أعود فأذكر أن الأمر أكبر من (الفردية) ككل، ومن فرديتنا بالتحديد، وأن هذا المشروع- (مشروع النهضة) -لا يمكن أن يكون فردياً، وأي محاولة لتسويق الأمر على أنه سلعة فردية، سيجعل من المشروع كله محكوماً عليه بالفشل. حتى الأعمال الإبداعية - التي تبدو للوهلة الأولى أنها فردية، مثل التأليف - هي في حقيقتها أبعد ما تكون عن الفردية، إذا استطاع هذا الفرد أن يختزل هموم مجتمعه، وطموحاته، وأزماته..

بل إن الكتابة نفسها، هي محاولة (.. أحياناً فاشلة، أقر) للخروج من الفردية والذاتية نحو التواصل مع الآخرين..

عبر تلك السنن الإلهية، يختلط الحابل بالنابل والعامي بالشامي، والفرد بالجماعة، وما هو عابر بما هو ثابت، وما هو زائل بما هو مقيم، وكل ما نملكه هو أن نختار الخيار الصواب؛ بالتثبت بما سيجعل تلك الخطوط تقود إلى الجبهة الصحيحة..

***

ولا أزال أرتعش، كلما تذكرت (أين) صدر الحسم الذي قرره الأستاذ عدنان سالم..

كانت أصداء المعارك حول الكتاب قد وصلته بالتأكيد، وهو الذي يتعايش مع كل كتاب يطبعه وينشره من مرحلة الرقن إلى التدقيق إلى التوزيع، مروراً بالغلاف..

وقرر أن يكون الحسم عنده.. أن يطلع على الكتاب بنفسه ليقرر إن كان يستحق النشر أم أنه مجرد زوبعة لا تستحق التوقف عندها..

وفي زحمة مشاغله لم يجد بداً من أن يأخذ المخطوط الوليد معه في إجازته..

في الحقيقة، لم تكن إجازة بالضبط، بل كان ذاهباً إلى (الحج)..

هناك، بين الحرم الذي رفع قواعده سيدنا إبراهيم... حيث تحددت الثوابت والاتجاهات.. عند خطوات أفضل من سار على قدمين ليطبق ويبني أفضل مجتمع بشري.. ليجعل من القواعد أساسات لعالم جديد.. أساسات لعالم جديد تبحث عنه البوصلة..

هناك، قرأ الأستاذ عدنان البوصلة..

وهناك حسم الأمر.

ولا أزال أرتعش..

***

وعندما صدر الكتاب، كانت هي تلك ولادتي الدمشقية الثالثة. لقد ولدتني دمشق ثلاث مرات.. حتى الآن!.

لم تكتف بإعطائي الصلة بالله، ولا بتعليمي فن الحرف، بل إنها أرسلت إلي، وأخذت كتابي، لتطبعني ..

فهل يمكن إلا أن أكون ممتناً لها؟. هل يمكن إلا أن أكون ابناً شكوراً أنا الذي تعلمت من أمي الأولى، بغداد الجريحة المطعونة في ظهرها حتى الشهادة، أن الطعن بالظهر هو أقسى

طعن؟ هل يمكن ألا أكون وفياً لدمشق التي وقفت بظهري.. أنا ابن بغداد التي خذلها الجميع..خذلها بالذات أقرب أولادها؟ هل يمكن إلا أن أكون وفياً لدمشق وهي التي لم تخذلني، بل هي التي فتحت أبوابها لكل من دق بابها، دوناً عن الكل؟..

***

ربما تلك الأحاديث النبوية الشريفة، التي تتحدث عن فرار الناس إلى الشام عند اقتراب الساعة.. كان لها دور ما في تكوين النفسية الشامية.. هي وكل الأحاديث الأخرى التي تتحدث عن فضائل الشام..

بغض النظر عن صحة تلك الأحاديث أو ضعفها، فقد أحدثت أثراً في أهل الشام على الأقل.. جعلتهم يقبلون على فتح أبوابهم، جعلتهم يتقبلون ذلك، على ما فيه ذلك من عناء أحياناً، جعلتهم يعدون ذلك جزءاً من قدر المدينة، ومن دورها، ومن ثمَّ من قدرهم ومن أدوارهم..

وهي أحياناً، تتبنى أبناء الآخرين، تحتضنهم وتربيهم وتعطف عليهم - ولا تقسو عليهم كما قد تفعل مع أبنائها - معاييرها مختلفة هنا: تريد من أبنائها أن يكونوا الأفضل لدرجة الإرهاق. فإذا احتضنت (يتامى) وطريدي المدن الأخرى، عاملتهم بحنان أكبر، وغضت النظر عما لا تغض النظر عنه عادة في أبنائها الحقيقيين ..

وحنانها هو المادة الأهم في تعاملها مع الغرباء، لكن صرامتها - التي تصل إلى حد القسوة والشدة - هي العنصر الأهم في تعاملها مع أبنائها..

فعلت ذلك بهم حينما أرسلتهم إلى مدن أخرى ليبدعوا فيها، وفعلت العكس عندما استقبلت غرباء المدن الأخرى، وأعطتهم الصدر الحنون الذي بخلت به أحياناً على أبنائها ..

عبر التاريخ، فعلت ذلك مع المئات بل الآلاف الذين جاؤوا ليدرسوا فيها.. فعلته مثلاً مع (قسنطينة) الجزائرية وطريدها آنذاك (مالك بن نبي)، كمثال.... وهي تفعله أيضاً ودوماً.. مع الشقيقة الأقرب بغداد، مع أن الأخيرة قد اختطفت منها الخلافة ذات يوم!!

***

لكنها لم تكتف أبداً، بثلاث ولادات.

فذات صباح حزيراني، بعد نحو ثمانية أشهر من صدور الكتاب، بدأت يومي بفتح الإنترنت كما أفعل تقريباً كل يوم، وزقزق جهازي فرحاً، وانطلقت عصافير ملونة من الشاشة،

وفاح عطر الياسمين في المنزل، ورأيت طرف قوس قزح وألوانه السبعة يخرج من شاشة الحاسوب ليغمر العالم كله..

ما الأمر؟. إنها رسالة من دمشق، دمشق خرجت عن صمتها وأرسلت إلي برسالة إلكترونية، وأرسلت معها عصافيرها وياسمينها وقوس قزحها، ذات صباح حزيراني: لتقول لي إنها قرأتني.

في الحقيقة إنها لم تكن رسالة من دمشق بالضبط، بل كانت رسالة بريدية من قارئ سوري، حمصي تحديداً، لكنه لسبب ما، اختار أن يعنون لرسالته (سلامات من دمشق) ( salamz from Damas )... هكذا، كما لو أن دمشق انتدبته ليرسل إلي تلك الرسالة التي أشرقت علي ذات صباح حزيراني..

لا يمكن لشيء أن يشبه هذا، وهو أمر لن يفهمه إلا الكتاب الذين استلموا رسالة (محبة) من قارئ مجهول. أن تكتب شيء وأن تنشر شيء، ولكن أن تستلم رسالة من قارئ، شيء آخر.. أن يقرأك الناس شيء، لكن أن يتحرك أحدهم ليكتب لك، شيء مختلف تماماً ، وتستطيع أن تعتبر أن حياتك ستختلف من اللحظة التي استلمت فيها تلك الرسالة، بل إنك تستطيع أن تؤرخ لحياتك بما (قبل الرسالة)، وما (بعد الرسالة) .

كانت لحظة حادة في حياتي، خفف من حدتها تلك العصافير التي انطلقت، وذلك الياسمين الذي فاح عطره من الرسالة..

( سلامات من دمشق )، هكذا.

كانت رسالة رائعة وخطيرة في الوقت نفسه.

أروع ما فيها صدقها.

وأخطر ما فيها أني صدقتها !.

***

دمشق الآن، أخيراً دمشق.

جئتها بعدما كانت قد ولدتني، ساهمت في تكويني، وربتني، ثم جاءتني واحتضنتني، طبعتني ثم، أيضاً، ويا للهول، قرأتني..

جئتها بعد كل هذا؟.

فهل كان هذا اللقاء متأخراً؟. هل كان يجب أن أجيئها أبكر؟. أظن الآن أن اللقاء كان في توقيته الصحيح، لا قبل ذلك.. ولا بعد ذلك. ما كان ينفع أن نلتقي كغرباء، كجزء من سياسة العولمة السطحية العابرة، لكن الآن، وقد وصلنا للولادة الرابعة.. كان يجب أن نلتقي..

وما كان يمكن لأم أن تلتقي بابنها، بأفضل مما فعلت دمشق معي..

***

أكثر ما هزني في التضاريس الدمشقية، هو تضاريس أهلها التي تتدفق لطفاً وذوقاً وكرماً، ورقياً في الأخلاق دونما تشنج ودونما ادعاءات ودونما شعارات.

اللطف ينساب هناك كجدول من لسان أهلها، " معوضين " يقولها لك سائق الأجرة الذي لن ترى وجهه بعد الآن، فيلاحقك دعاؤه بالتعويض على ذلك المبلغ التافه الذي أنقدته إياه، فتتذكر أن الدنيا لا تزال بخير. " تكرم عينك " يقولها لك عامل المتجر وهو يناولك بضاعة ترغب في ابتياعها، فيذكرك قوله بأن عينك عزيزة عليه، وهو يكرمها كما لو كان قادماً من عصور الفرسان.. وبين جملة وأخرى، يقف على لسان الشوام " إذا بتريد .." و" إذا بتحب ".. كما لو أنهم يذكرونك بأن أي أمر هو رهن لإرادتك ومحبتك..

ليس هناك (بردى) حقاً في دمشق... لكن فيها جداول اللطف، التي أحياناً تتحد لتصير شلالات لطف تنساب بسهولة ويسر، من تضاريس الشوام النفسية..

***

من بين كل التضاريس النفسية، هناك تضاريس شخصية لا أظنني سأكون قادراً على التخلص من تأثيرها الشخصي، المشابه للسقوط في أمر سحري، ولا أتصور أن أحداً يمكنه ألاَّ يسقط في هذا الأمر، إذا مر بما مررت به من لطف وذوق وكرم أخلاق.

يتسرب جدول اللطف من الدكتور هاني المنياوي مثلاً، وهو مثل خاص جداً، إنه طبيب وجراح ومتخصص ناجح بكل المقاييس. كان يمكن له، أن يتصل بي مثلاً، ليعرب عن استعداده لفعل أي شيء، ومعرباً في الوقت نفسه عن ضيق وقته وانشغاله بجدول العمليات والمؤتمرات ليبدي لي مدى أهميته، وسيكون محقاً صادقاً في ذلك...

لكن الرجل لم يفعل، لقد حمل هم سكني وسكن عائلتي بأفضل مما كنت سأحمله أنا شخصياً، وأخّر زيارته لمؤتمر طبي خارج سورية يوماً ليطمئن على ارتياحي لشقة انتقاها هو بما يتناسب مع ذوقه الرفيع وحسه المرهف، ثم إنه وجد لي، بين جداول عملياته ومواعيده، وقتاً ثميناً عليه وغالياً علي ما دمت أقضيه معه..

وفي عيادته الأنيقة قضينا ساعتين في التخطيط لعملية جراحية لواقع أمتنا عبر عملية جراحية تشخيصية.. نرى فيها ما يمكن استئصاله وما يجب ترميمه وما يمكن استبداله..

نقر، إذ نحن نخطط، أن الصعوبة الأساسية لا تزال تكمن في إقناع المريض بإجراء العملية.

نقر أيضاً أنها عملية مؤلمة جداً، ذلك أنها يجب أن تجري بلا أي تخدير من أي نوع؛ لا موضعي ولا عام.

يجب أن تجري، والمريض (واع) تماماً لما يدور.. هذا هو شرط أساسي لنجاحها..

وهذه هي أيضاً صعوبتها الأساسية..

***

منذ أول يوم في دمشق، رفرفت على هاتفي الجوال حمامة بيضاء، قال لي صوتها: " السلام عليكم ".

وعرفتها على الفور، كان صوتها مطابقاً بالضبط للصورة الذهنية التي رسمتها لها عبر المراسلات. " السلام عليكم " قالت.. وعرفتها.. أبداً لم تقلها بالطريقة التقليدية لمجرد التحية، قالتها وهي تعنيها " السلام ".. " عليكم ". كما لو كانت تجهر بدعاء إلى الله أن يعم السلام على الجميع.. (سنختلف لاحقاً على تعريفنا لمفردة السلام، فهي ترى أنه يعني اللاعنف، وأنا أرى أنه في اللغة العربية يعني النقص من الآفات.. وسيبدو الخلاف سطحياً للوهلة الأولى لكنه يحوي ما يحوي..).

وعرفتها، ما كانت يمكن أن تكون غير (حنان اللحام) بالمنطق، بالصورة الذهنية، ما كانت يمكن أن تكون غيرها..

اكتشفت مجدداً أن القدر يختار - لبعض الأشخاص - أسماءً بأحسن مما يفعل أي شخص آخر، ليعبر عن حقائقهم الداخلية.. ( حنان ) أطلق على تلك السيدة عند ولادتها، ما عرف

والداها- الجليلان بالتأكيد ما داما أنجباها- ما عرفا أن هذا الاسم سيكون هويتها ومنهج حياتها وأسلوبها في (التغيير الاجتماعي) . ما كان لأي اسم آخر أن يعبر عن ذلك كما فعل هذا الذي يبدو للوهلة الأولى أنه اختير بمجرد الصدفة..

لكن الحنان، مع أنه سيكون الميزة الأهم، لن يكون الميزة الوحيدة، ولن يكون حنانها نقطة ضعف، كما هو عند الكثير من الأمهات، لكنها ستجعل منه مصدراً للقوة، بدلاً من أن تتركه نهراً يفيض فيهلك الضرع والزرع دون أي فائدة، فهي تضع سدوداً، تجعل من هذا النهر ومن فيضانه مصدراً لتوليد الكهرباء وللخزن لوقت الجفاف..

هذا هو حنان تلك السيدة، وهذا ما يجعلها مميزة، مربيةً وكاتبةً أيضاً. حنانها ليس مفسداً؛ بل هو حنان مثمر، منتج.. حنانها ليس بلا قيد ولا شرط؛ ولكنه محاط بجملة من الشروط الموضوعية التي تستثمره في إنتاج إنسان آخر.. إنسان مختلف عن هذا الذي أوصلنا إلى ما وصلنا إليه، وأنتجته الظروف التي وصلنا إليها..

من بين مواعيد محاضراتها ودروسها ونشاطاتها ستبحث لي عن موعد، وستسألني عن جدولي وأنا بعد في ساعاتي الأولى في دمشق، فسأعرف أنها قد (أشربت) في عقلها ووجدانها احترام الوقت، وأن معادلة الحضارة تلك، قد تجسدت في سلوكها وحياتها، أكثر مما ظهرت على لسانها وفي محاضراتها..

لن تقنع بالمآدب ودعوات الطعام مع أنها ستشارك فيها.. لكنها ستقرر أن الحوار المباشر معي سيكون أكثر إثماراً، في ركن من أركان معرض الكتاب نلتقي، لا تضيع الوقت، وتبادر على الفور بأسئلة صريحة، وملاحظات أكثر صراحة - ستكون، كما فهمت لاحقاً - مقدمة لجلسة نقدية، ستكون فيها الأستاذة حنان أستاذة في التشريح والنقد، دون أن تتخلى عن حنانها، ولن أتفاجأ بذلك، لكني سأتفاجأ بنفسي وأنا أجدني أتقبل النقد، بصدر رحب، وهو أمر لن أخفي أني لا أتقنه كثيراً !!..

مع كل الاختلاف في الكثير من الآراء، والذي سيصل أحياناً ليكون خلافاً واضحاً.. ستظل المودة قوية، وسيبقى الاحترام ثابتاً ..

* * *

بعض الأشخاص يكونون أكبر من الكلمات..الكلمات تعجز عن احتوائهم، عن التعبير عن عمق مواقفهم..

والسيدة أم بشر، هدايت سالم، هي من هؤلاء الأشخاص..

المؤسف ليس هذا..

المؤسف هو أن هذا بالذات سيعد مجاملة في حقها..

أود الآن لو أجد طريقة أربط فيها أحرفي بجهاز لكشف الكذب لكي أبرهن على أن كلماتي لا تجامل تلك السيدة التي لا يمكن لي أن أفوّت فرصة دون أن أذكر فضلها وقدرها، مع أنها تصر على أن أكف عن ذلك..

يمكن لأم بشر بسهولة أن تكون أمي، وأم أي أحد، كما يمكن لها أن تكون ملكة تدمر.. وشجرة الدر.. وأي أم شامية صمدت كما صمدت دمشق عبر العصور. يمكن لها أن تكون الشجرة التي تصمد بعدما يدمر الإعصار البيت وأهله. قوتها لا تلغي حنانها، لكن تسبقه. قوتها وتماسكها ورباطة جأشها هي مما يسبق أي عاطفة وأي عواطف. إنها الرقم الأصعب في المعادلة الدمشقية، وهي السر في صمود دمشق عبر الأزمان. إنها تلم الجميع حولها، وتحتويهم وتبث فيهم من قوتها ومن روح صمودها. تلك المرأة هي العمود الفقري لأي أسرة ناضجة وقادرة على النجاح، ولذلك فهي العمود الفقري لأي مجتمع حي ومنتج وقادر على الصمود.

وأهم شيء في هذه السيدة - العمود، أن كل ذلك يتم بطريقة عفوية، إن ذلك يخرج منها بطريقة تلقائية جداً.. وعفوية جداً.. وهذا يضاعف من قوتها ومن صمودها..

السيدة هدايت سالم.. جعلتني أفهم لم وقف المغول ها هنا ولم يقتحموا دمشق بعدما اجتاحوا بغداد ودمروها، وجعلتني أعي أن السيناريو الأمريكي الذي عشناه مشهداً تلو آخر لا يمكن أن ينطبق هنا ..

***

ليس سراً أني اتهمت أني من (جماعة أم بشر)، وأنهم قالوا ضمن ما قالوا، أنها تدخلت، وأنها فرضتني، وأنها روّجت لي.. وكل ذلك صحيح جزئياً، لكن لا شيء فيه داخل في (الواسطة) بمعناها الدارج، ذلك أنها فعلت كل ذلك قبل أن تعرفني شخصياً أو حتى قبل أن تحدث أي مراسلة بيننا.. لم يكن هناك سوى ذلك التوافق الفكري الذي يهدم أكذوبة صراع الأجيال.. العقود الثلاثة التي تفصل بيننا في العمر لم تفصل بيننا في الفكر، لأن ثوابتنا محددة وواضحة: نعم نريد التجديد، ولكن أبداً ليس على حساب الثوابت..

صحيح أن من قال أني من جماعة أم بشر لم يقصد سوى التصغير والاتهام بكوني مدعوماً.. لكنني أفخر بذلك، ولو أنهم عرفوها حقاً لتمنوا جميعاً أن يكونوا من (جماعتها..).

***

جزء من إعجابي الشديد بهذه السيدة، لا يعود إلى توافقنا الفكري فحسب، بل يعود أيضاً إلى ذلك الحس النقدي حاد الذكاء الذي تملكه، حس نقدي لا يفوِّت صغيرة ولا كبيرة، وإن كانت أحياناً تفوِّت التعبير عن الصغير من ملاحظاتها لتمرير الكبير منها، وتغلف كل ذلك بحس نكتة لاذع، وتعود لتغلف النكتة بتهذيب شامي محترف.. ويمر كل ذلك دون أن يؤثر في النقد الأصلي أو يقلل منه..

ربما أجد في ذلك جزءاً من أمي (بتغليف أقل!) بل ربما أرتاح لذلك لأنه جزء من أسلوبي وتعبيري في الكتابة...

قد تعترض أحياناً أم بشر على الشكل الذي أصوغ به فكرة ما، فأفوّت الأمر، ولا أعدِّل من شيء..

لكن إذا حدث أن اعترضت على فكرة ما، فهذا يعني بالنسبة إلي أمراً خطيراً، صافرة إنذار ستقرع في داخلي لتقول لي أن أراجع الأمر برمته.. سيعني ذلك أنني ربما وقعت في خطر التناقض مع ثوابتي..

وهو ما لم يحدث، حتى اليوم..

***

لا يمكن أن أتحدث عن السيدة هدايت سالم دون أن أتحدث عن المرآة التي انعكست فيها تلك الخلطة السحرية للحنان والقوة؛ إنها عائلتها المميزة؛ آل هاشم الكرام الذين لم يتخذوا من شجرة نسبهم العريقة مدعاة للتعالي وللفخر الزائف كما حدث مع أسر كثيرة تملك شجرة نسب مماثلة، بل على العكس، جعلتهم أكثر تواضعاً وأكثر رفعة، وكل من سنحت لي فرصة التعرف عليه عن كثب منهم كان مصداقاً لهذا.

هناك أولاً السيد الكريم الوقور إحسان هاشم الذي عليك أن تقاوم بشدة إغراء أن تعدّه والدك وأن تحتضنه وتلثم يده كما ستفعل مع والدك.. فيه شيء أبوي مهيمن وأخاذ..

تواضعه تحديداً هو درس عملي للجميع دونما مواعظ أو خطب، منظره لا ينسى وهو يحرص على ألا يمد يده لتناول الطعام إلا بعد أن يتأكد أن كل مستخدمي الأسرة، من السائق إلى الخادمة الإندونيسية قد بدؤوا تناول طعامهم، ويحدث ذلك أيضاً بهدوء ودونما جلبة وضوضاء تشعر الجميع أنه يفعل ذلك، بل كان يمكن أن يمر الأمر دون أن يعرف أحد لولا أن زوجتي تنتبه لكل شيء.. (مثل أم بشر!).

وقد تيقن أن دائرة الضوء تتسع له كما لزوجته، ولم يداخله شك في أن ضوءها سيطغى على ضوئه، وأن قوتها ستضعف من قوته. تلك العقد الذكورية.. - التي هي ذكورية عالمية وليست ذكورية شرقية كما يحلو لنا أن نعتقد - لا وجود لها في هذا الرجل؛ بل على العكس، لا أراه إلا مستريحاً لقوة تلك السيدة على أنها قوة إضافية (لظهره) عندما يتصدر هو لعمله ومشاغله.. إنهما يتكاملان معاً بشكل عفوي وطبيعي. لا يوجد مادة في أي دستور في العالم يمكنها أن تجعل أي رجل وامرأة يتكاملان بهذا الشكل، لكن الهواشم والسوالم يفعلونها دون كبير جهد ..

أرثي للحركات النسوية التي تختزل قضاياها وترى أن علاقة الرجل بالمرأة حرب داحس والغبراء، وتنسى أن تكاملاً كهذا، وتوازناً كهذا، ممكن الحدوث دون خطابات إيديولوجية، ودون شعارات معادية..

***

والسيدة سحر هاشم، استمرار للسيدة والدتها، وإن اختلفت نسبة المكونات قليلاً، لكن ربما يكون هذا الاختلاف مرحلياً، وستكون النسب متطابقة في الناتج النهائي؟ لا أعرف حقاً، لكني أعرف أن هذه السيدة أغرقتنا في لطفها وكرمها وذوقها وطول بالها (وصبرها خصوصاً). وأعرف أيضاً أن زوجتي قد أحبت الجميع لكنها بكتها هي تحديداً ليلة الفراق. وأعرف أنها تبرعت لتصير مرشدة سياحية لزوجتي وبقية أفراد الرحلة ممن أعرف جيداً ( أنهن لسن سهلات بالمرة) وأعرف أيضاً أنها تحب بلدها وتنتمي إليه بطريقة عملية دون أن تثرثر حول ذلك طول الوقت؛ فقد قالت بائعة متجر - عاثرة الحظ - أمام السيدة سحر، حين كانت تساوم زوجتي في سعر ما: " إن القماش التركي أغلى لأنه أفضل من القماش السوري "، عندها اختلفت النسب عند سحر، تقلص اللطف لمصلحة القوة، بل لمصلحة العنف . انفجرت السيدة سحر هنا في وجه البائعة سيئة الحظ التي ربما لم تقصد أكثر من ترويج القماش الآخر.. لكن لا مزاح في ذلك، إنما هي الخيانة العظمى. وأمام الضيوف من العراق أيضاً؟. إن الأمر يدعو لانفجار أكبر. تم تأنيب تلك البائعة علناً وبشدة، وعوقبت بأن لم يبتع منها أي من القماشين.

وكانت هناك ضمن جمل التأنيب جملة خارقة، قالت السيدة سحر، التي نعرف أنه لن يفرق معها كثيراً فرق السعر بين القماشين، قالت إنها: " منذ الحرب على العراق، لم ترتد إلا ما هو سوري ".

ألست محقاً إذا قلت إن تلك السيدة الدمشقية، ونماذجها المتجددة، هي السبب في صمود دمشق؟. ألست محقاً لو قلت إن تلك السيدة هي العمود الفقري للمجتمع؟..

ألست محقاً لو لاحظت أن (الأشخاص) يمكن لهم أن يرتفعوا بالأشياء - بالسلع- إلى مصاف (الأفكار)، عندما يكون إيمانهم بها حقيقياً وصادقاً ..

إنه مجرد قطعة قماش.. مجرد سلعة.. لكن عندما آمن الشخص الذي يستعمل هذه السلعة بفكرة، كف الشيء عن أن يكون شيئاً.. وصار أيضاً فكرة .

نعم.. إني محق ..

* * *

وهي قارئة ممتازة أيضاً.

وقد قالت لي شيئاً - وقالته ببساطة- جعل الدم يتجمد في عروقي لثوان. قالت لي: " إنني أشعر أنك -بكتاباتك- تريد أن تفتح رأس القارئ، لتصب أفكارك فيه ".

وجمدْت.

إذن لقد (انكشف سري)، وكنت أتصور أني في مأمن من ذلك!

***

.. ومع الدكتور أحمد هاشم، تشعر بحاجة إلى إعادة النظر في مفاهيمك المكرسة حول الشخص المبدئي الذي يتخذ قرارات صعبة في حياته. لدينا عموماً ذلك التصور المسبق الذي يجعل هؤلاء الأشخاص أشباه مجانين.. إذ تم تقديم وغرس هذا النموذج كما لو كان مصاباً بعاهة نفسية، أو خارجاً للتو من العلاج في المصحة؛ أشعث أغبر غير حليق، وقد ترفع عن سفاسف الاهتمام بالمنظر من أجل جوهر المبادئ!! (بطريقة تجعلك تنفر من المبادئ ومن التضحية من أجلها..).

الدكتور أحمد (غير شكل). ها هنا إنسان ضحى بما قدم الآخرون أعمارهم في سبيل الحصول على نصفه أو عُشره، ومن أجل المبادئ، دون أن يزعق، دون أن يصرخ بشعارات فارغة، (ترك) أمريكة - أمريكة التي هي حلم الملايين كما لا داعي للإنكار - ورجع إلى دمشق .

ما قصته؟. لا شيء غير النجاح المبهر.. أعلى الشهادات العلمية.. وأعلى المناصب.. بالذات أعلاها، مدير لشركة عولمة كونية هي التي تكتسح العالم أجمع، مدير لفرعها، أين؟. سياتل بالذات. وهناك تتسابق المجلات والدوريات للحصول على تصريحات منه عن الصاعد والنازل في أسهم الشركة.

خمسة عشر عاماً في أرض الأحلام؛ في الفردوس الأمريكي، وقد حصل فيها على كل ما يتمناه أي شخص (أو هكذا نتصور) .

وفجأة، ترك ذلك كله، وخرج -غير مطرود- بإرادته من ذلك الفردوس.

لماذا؟. لا شيء غير أنه لم يعد مقتنعاً بما يفعل؛ غير مقتنع بكونه جزءاً من نظام عولمي لا يؤمن هو بالضرورة بانتمائه إلى قيمه..

أمريكة يا رجل ؟.

نعم. أمريكة يا رجل.

وتركها وترك ذلك المنصب وخمسة عشر عاماً من التعود على نمط حياة يضحي - ويشهق من أجله- مئات الملايين من البشر..

أمريكة؟، نعم، أمريكة !

وأكثر ما يثير في الأمر أنه شخص طبيعي. أعني أننا تعودنا أن يكون من يقوم بهذا العمل شخصاً ( شبه مجنون )، وقد أطلق لحيته وبدا زائغ العينين. لكن، ها نحن أولاء أمام شخص لا يبدو أنه نادم على الإطلاق على فعلته تلك، بل إنه يبدو، مقتنعاً، وواثقاً من صحة خياره..

كان ذلك مستفزاً جداً لحواس التنقيب في داخلي، وكنت أود لو أفتح رأس الرجل لأعرف كيف يمكن اتخاذ قرار كهذا في زمن كهذا. استسلم هو لكل أسئلتي في كل مرة خرجنا فيها معاً، وسألته كل ما يخطر وما لا يخطر على باله من أسئلة. سألته أيضاً ما لا يسأل عادة. وكان، في

استسلامه، صبوراً في الإجابة، وكانت معظم أجوبته سلبية: لا، لم يتعرض لمضايقة بعد أحداث سبتمبر. لا، ليس لأن لديه "بنات" يخاف عليهن، فزوجته نشأت في أمريكة ولم يمنع ذلك من نشوئها متدينة ومحجبة ضمن عائلة محافظة.

وأخيراً، قال أحمد ملخصاً قصته في أبدع ما يكون الوصف: " كنت أحس أني مثل سائق (شوفير) يقود سيارة ليموزين فاخرة جداً ومترفة جداً لكنها لا تخصه مهما بدا منسجماً معها. كنت أحس أنه في يوم ما سيأتي من يفتح الباب، ويقول لي: تفضل. شرف. هات المفتاح. واخلع السترة أيضاً ".

سكوت!

***

وسألتني السيدة الفاضلة زوجة الدكتور أحمد، عبر زوجها: " هل زرت أمريكة ؟".

وكان مناسبة السؤال كتابي عن ذلك الفردوس الذي يغزو العالم كله. أجبت: "لا. أبداً، لم أزر أمريكة ..

هي التي زارتني .."

وزارتكم أيضاً، جميعاً ..

***

في مقهى دمشقي عتيق قرب سوق الحميدية، كنت جالساً أمارس هوايتي المفضلة في تعذيب الآخرين عبر إجبارهم على (قراءة) ما أكتب، أمامي، لأتابع، بشكل مباشر وآني، انفعالاتهم، دون أن أسمع كلمة مجاملة لا أصدقها. انفعالات الوجه.. اهتزاز العضلات الوجهية، رجفة الأصابع.. كلها أمور لا تكذب أبداً. وإذا كان هناك من تفاعل مع (المادة المقروءة) فستظهر على الوجه حتماً.

كانت تلك طريقتي المفضلة في سماع الأداء: سلبياً أو إيجابياً. وقد جررت مرة شخصاً عددته معنياً بشكل مباشر ليقرأ ما رأيت أنه رسالة واضحة له وللمؤسسة التي ينتمي لها. أخبرتني يومها خلجة العينين، ورجفة اليدين، واهتزاز الفكين، أكثر بكثير مما أخبرني لاحقاً كلامه الذي استطاع أن يستعيد فيه توازنه.. أخبرتني خلجاته "أن الرسالة وصلت" - وإن حاول خطابه أن يدعي غير ذلك.

انفعالات الوجه لا تكذب أبداً. كنت أثق بذلك وأقرؤه. أحياناً لم أكن أجد شيئاً، ولذلك لم أكن أصدق أي ثناء سيقال لاحقاً. وأحياناً كنت أجد أشياء كانت تغني عن أي شيء يقال. إنه الأدرينالين، كما تعلمون، وهو أصدق إنباءً من الكتب ..

***

في ذلك المقهى العريق، حيث رائحة التاريخ تطغى على رائحة القهوة، وبالتأكيد على رائحة الشاي الذي لا رائحة له (ولا طعم أيضاً، في دمشق)، جلست أمارس تلك الهواية، على صهيب.

كان صهيب (صديقاً قديماً) كما عرفته لاحقاً لأحمد. (صديق قديم) لكن لقاؤنا الشخصي الأول كان في ذلك اليوم تحديداً. أما صداقتنا الروحية فتعود إلى مراسلات عميقة ومكثفة ومحاورات مهمة عبر الإنترنت. وكانت علاقتنا الروحية والفكرية قد مرت بمراحل شد وجذب، وأيضاً مد وجزر، وهو أمر لا أجد غضاضة من الاعتراف به، مادام لم يفسد لأي ود أي قضية.

في المقهى جلست أمام كاسة الشاي، بين زعيق التلفاز القريب، ودخان الأراكيل المميزة للمقاهي الشامية عموماً (ومن سلبياتها أيضاً). أعطيته مقدمة كتاب (السقوط) - الذي لن أغفر له إن لم يكن قد سعى للاطلاع عليه - وتركته يقرأ وأنا أستعد لقراءة وجهه عبر استراق النظر.

كنت مستعداً لكل شيء؛ فقد قرأت في وجوه الآخرين - على هذه المقدمة بالذات - كل ما كنت أتخيل أني سأقرؤه؛ من اللامبالاة إلى السخرية، ومن الضجر إلى الألم لدرجة عدم القدرة على مواصلة القراءة، ومن دمعة حزينة تسللت من بين الأهداب المتكبرة إلى إجهاش حقيقي بالبكاء.

كل ذلك مررت به.

لكني لم أمر أبداً بهذا الذي حدث مع صهيب، وأنا أعرف مسبقاً أن صهيباً قد يكفهر وجهه لكنه لن يبكي أبداً لأي سبب كان.

لكن ما حدث كان استثنائياً.. وغير متوقع.

ففي مقطع معين، لا أعرفه (للأسف!)، وكان واضحاً على ملامحه الانفعال، ترك صهيب الأسطر التي يقرؤها، ووجه نظراته إلي.. بالضبط لقد صوبها نحوي.. سددها إلي .

كان ذلك مفاجئاً جداً. بالضبط لأنه لم يحدث من قبل، لكن نظرته كانت حادة. ثلاث ثوان أو أربع ثوان طويلة كدهر انتفضت أنا خلالها، ثم عاد بنظراته ليتابع قراءة الأسطر ..

يستطيع أن يذكر هو كما يشاء، وإذا شاء، وأن يقول إنها كانت مجرد نظرة إعجاب، لكني فهمتها بشكل آخر، قرأتها أنا؛ إنها كانت نظرة تساؤل وتفحص؛ قرأتها أنا، إنها كانت " أنت حقاً كتبت هذا ؟". بنبرة بين الاستفهام والاستنكار.. كما لو أن الكتابة، كانت بحجم أكبر من الكاتب .

لم يقل شيئاً بعدما أنهى القراءة. ولو كان بكى، وهو ما لم يحدث ولن يحدث معه، لما كنت أكثر استثارة برد فعله ذاك...

***

تنفتح لي أبواب الجلسات الثقافية، فينفتح لي عالم المدن المسحورة، أدخلها مدهوشاً كقروي يدخل العاصمة للمرة الأولى في حياته. يدهشني إقبال الناس على الثقافة، وأيضاً على الحوار، وبالذات انفتاحهم على الحوار مع (الرأي الآخر)، على الأقل دونما تشنج، وبالتأكيد دونما صراخ..

أراقب النسوة وهن يدخلن متأبطات لكتابي - وفي داخله قصاصات، تنذر بأسئلة ونقاشات، وتنبئ بأنهن قد قرأن واستوعبن وتدارسن.. يثير الأمر في البداية اندهاشي، ثم إعجابي، ثم احترامي العميق لكل ذلك، وكل ما أدى إلى ذلك، وكل ما يمكن أن ينتج عن ذلك. تبدو لي ظاهرة اهتمام النساء بالثقافة والاطلاع ظاهرة (شامية) خاصة، تستحق الوقوف. ويبدو لي ذلك مجدداً عمقاً من أعماق الاختلاف الشامي، فالمرأة الدمشقية صارت بهذا عموداً فقرياً بدرجة دكتوراه..

تتنوع الأسئلة والنقاشات. وأفهم من ذلك انفتاح الحاضرات على (القراءة) بالمطلق دونما قيد أو شرط. بعض المحجبات يسألنني عن تأثري برواية معينة لا يمكن أن تندرج تحت إطار حجابهن، ( ولم أكن قد بدأت بقراءتها إلا اليوم السابق فقط، وبطبعتها العشرين !). وبعض المرتديات أحدث الأزياء الغربية، يتحدثن عن تفاعلهن (الهائل) مع الخطاب القرآني عبر البوصلة. ويعني الأمر على الجانبين، حواراً متواصلاً، ورغبة عميقة في المعرفة...

في حلقات السيدة حنان، والسيدة هدايت، وفي (بيت جبري) حيث تعرفت الأستاذة رباب كزبري وحلقتها المميزة، والأخت غادة دسوقي وتلقائيتها المميزة، أتعرف سيدات مثقفات ارتفعن

بهمومهن ومشاغلهن عن النظرة التقليدية السائدة التي تحصر اهتمام المرأة في (الصبحيات) بالنميمة والحديث عن آخر الفضائح وآخر صيحات الموضة، آخر أخبار التسوق والتباهي عبر عرض أحدث ما ابتاعته من موبايلات وإكسسوارات وملابس ومجوهرات..

هنا سيدات يمكن لهن، لو أردن، أن يكن سيدات النميمة والتشاوف والتباهي الاجتماعي.. لكنهن، فضلن، أن يتركن ذلك كله ليتحدثن عن الثقافة والأدب والفكر البديل..

عندما أخبرتهن عن ذلك، وعن كونه نقطة مهمة جداً لمصلحة نساء دمشق، اعترضن قائلات إن ذلك محصور بالنخبة فقط .

ربما ذلك صحيح، لكنه نسبي أيضاً، وهو لمصلحة نساء دمشق في كل الأحوال.

إن نخب النساء، في مجتمعات أخرى - بعضها غير بعيد عن المجتمع الشامي - منهمكة في "صبحيات" من نوع آخر - سيكون مجرد التطرق فيها للحديث عن كتاب أمراً مستهجناً جداً، بل سيكون مثاراً للاستهزاء والسخرية..

إنها نقطة لمصلحة الياسمين، وهو يفسر أيضاً سر ازدهار ذلك الياسمين، مع ما يبدو عليه من هشاشة مظهرية، في حين ينتظر قدر الطحالب مجتمعات أخرى، رغم ما يبدو عليها من ازدهار مظهري ..

***

لم يخل مجلس من تلك المجالس، من عتب أو إظهار لمرارة، من كوني قد تعرضت - بالتشريح، وأيضاً بالنقد- للفترة التي صارت فيها دمشق عاصمة للعالم الإسلامي، ومركزاً للحضارة الإسلامية ككل..

" نحن أمويون ". قالت بعض السيدات، بلغة وسطى بين اللوم والعتب والمرارة، بألم، كما لو كن يعترفن، ضمناً، أو حتى صراحة، بصواب ما ذهبت إليه من نقد؛ لكنه تاريخهن، مع ذلك، إنه جزء منهن، كما أنهن جزء منه.

كن محقات. الأمر صعب، وصادم، كما قالت واحدة من الأخوات إن الأمر " صدمها لدرجة أنها تركت الكتاب ".

وكان ذلك متوقعاً.. بل مطلوباً، فبعض أنواع العلاج، تكون بالصدمة . بل إننا، نحتاج إلى أكثر من صدمة، بل إلى صعقة، لتعيد لنا الحياة .

كن محقات فيما قلنه. لكنهن مخطئات إذا تصورنه يخصهن بشكل شخصي، كن مخطئات إذا تصورنه يخص دمشق الحيز الجغرافي - المكاني الذي يعشن فيه وينتمين إليه؛ الأمر أكبر.. الفترة الأموية لا تخص سكان دمشق بل تخص كل سكان ذلك المحور الممتد من طنجة إلى جكارتا.

إنه يخصني أنا أيضاً؛ إنه تاريخي أنا أيضاً. وبقدر ما كان مؤلماً لهن فقد كان مؤلماً لي، وبقدر ما كانت صدمتهن فقد كانت صدمتي. الأمر لا يخص الشاميين ولكنه يخص البغداديين والقاهريين والقيروانيين ويخص الجميع. إنه تاريخنا المشترك، وعبئنا المشترك الذي لا مجال للتنصل منه...لا أظن الأمر يختلف في الرباط أو الجزائر أو عمان عنه في دمشق.. إنه تاريخ مشترك شئنا أم أبينا ..

يشبه الأمر مرضاً وراثياً انتقل إلينا من أحد أجدادنا. لا شيء في العالم يمكن أن يلغي قرابتنا به وانتسابنا إليه، لكن هذا لن يلغي أنه أورثنا ذلك المرض .

وهو لن يلغي أيضاً أنه ربما أورثنا بعض الصفات الإيجابية، لكنك لن تفكر بهذا وأنت في خضم صراعك مع المرض الذي أورثك إياه، خاصة إذا كان هذا صراعاً من أجل البقاء، وخاصة إذا كان هذا المرض قد أكل كل ما ورثته من نفس الجد من إيجابيات..

هذا ما حدث مع إرثنا الأموي للأسف. لم تخل التجربة من إيجابيات حضارية سيكون من غير الإنصاف إنكارها، لكن سلبياتها تضخمت مع الوقت.. وتآكلت إيجابياتها مع الوقت أيضاً، وكان الحاصل النهائي هو (جيناً) ورثناه وحمّلنا مرضاً ألغى كل الصفات الإيجابية التي كان يمكن أن نرثها من نفس الجد ..

لا مفر هنا من المواجهة، ولا فائدة من التنصل. لا يمكن التنصل من حقيقة انتسابنا إلى تلك الحقبة، ولا يمكن أيضاً التنصل من أن هذه الحقبة قد مررت جيناً أوصلنا إلى ما وصلنا إليه ..

.. وكان هذا الأمر يشبه سؤالاً آخر، سألته شابة مثقفة تنتمي إلى حلقة الأستاذة حنان؛ قالت لي: انتقدت بعض أفراد أسرتك في (ليلة سقوط بغداد)، ماذا كان رد فعلهم تجاه ذلك؟..

أجيبها الآن: لكني انتقدت نفسي أيضاً.. انتقدت سلوكي أيضاً.. وقلت في نفسي، كما في الآخرين، ما لن يتردد آخرون في إنكار الإقرار به، وإن مروا به ..

لكن إذا كان ( السقوط ) - الذي وصلنا إليه بأمراض داخلية كما بآفات خارجية - إذا كان السقوط لن يجعلنا نحكي ، فماذا إذن؟.

.. نفس المنطق، بالضبط، ينطبق على ما كتبته عن (لحظة معاوية).. فإذا كان واقعنا المرير - واقع السقوط التاريخي - لا يبرر أن ننتقد ماضينا، فماذا إذن ؟.

***

بهذه النفسية دخلت إلى المسجد الأموي، محملاً بكل هذه الأسئلة والتساؤلات والاعتراضات والاستدراكات. دخلت إلى الرمز العمراني الحضاري، الأكثر أهمية لتلك الفترة، وأنا أنتمي إلى واقع هو الأكثر انحطاطاً في مسلسل انحطاط وتدهور، أرى أن بذرته تركت "سهواً؟" في فترة التأسيس الأموية تلك.. ثم وجدت في الظروف المحيطة كل ما يساعدها على النمو أكثر فأكثر في المراحل اللاحقة..

كان المسجد تحفة معمارية بحق، ولا يحتاج شهادتي أو شهادة سواي، لكن ذلك كله خارج الموضوع..

عندما دخلت الباحة، توقعت أن تستقبلني أرواح الأسلاف الغاضبة: " أتجرؤ أيها الجاحد على الدخول هنا ؟". كنت أتوقع أن أرى الأشباح وهي تروح وتجيء متوترة مستفزة كما نرى في أفلام هوليوود.

وكما كان متوقعاً، لم يحدث ذلك؛ لكني رأيت شيئاً لم أتوقعه بالمرة، حتى مشهد أرواح الأسلاف يبدو متوقعاً أكثر.

كان هناك، في مدخل المسجد وعلى بوابته وفي باحته وأيضاً في حرمه، أفواج هائلة من (السياح) الإيرانيين، إذا جاز لنا أن نقول عنهم إنهم سياح، وكان المرشد السياحي، لكل فوج منهم، لا يشبه أي مرشد سياحي يمكن تخيله في عصر العولمة: فعلى رأسه عمامة سوداء، وفي يده مكبر للصوت، على لسانه خطبة باكية متباكية، وأيضاً غاضبة، بلغة لا أفهمها طبعاً، ولكن سيفهم أي أحد نبرتها...

وكانت الأفواج المصاحبة تبكي، البعض كان يبكي فعلاً والبعض الآخر كان يخفي وجهه بيديه ليتظاهر بالبكاء، لم يكن هذا البكاء ناتجاً من شدة التأثر بالفن المعماري مثلاً، بل كان تفاعلاً مع خطبة المرشد وعمامته السوداء.

لم أشعر بأني كنت على صواب إلى هذا الحد كما فعلت يومها، إنه الخطأ (القاتل)، بل سلسلة الأخطاء القاتلة التي حدثت في تلك الفترة الزاهرة، إنه الفعل ورد الفعل ورد الفعل المضاد الذي تضخم تدحرجاً عبر الوقت إلى أن وصل إلى ما وصل إليه .

إنه ذلك الظلم والاستبداد الذي أدى إلى نشوء (الآخر) - وإلى ازدهار (الآخر) أيضاً عبر التعاطف مع مظلوميته ضد الظالم ، ولم تكن المشكلة في نشوء (آخر)، فهذا من طبيعة الأشياء، ولكن المشكلة أن هذا (الآخر) انسلخ من (الأنا)، وصار لا يجد هويته وتحيزه إلا عبر التضاد معها، إنه الانقسام الذي شرخ الأمة وقد بدأ بشق صغير وظل يتعاظم إلى أن أحدث انفصالاً حقيقياً ...

أكرر: لم أشعر أني كنت على صواب إلى هذا الحد كما شعرت وأنا أرى ما أرى ، لم أشعر، أبداً ولا للحظة واحدة، أني محرج، إذ أزور صرح حضارة الأمويين وقد كتبت ما كتبت، على العكس، شعرت أن الأسلاف، لو قيض لهم، بطريقة ما، أن يشاهدوا كل حلقات المسلسل المتتابعة المتصلة، وصولاً إلى أفواج السياحة هذه، وإلى كل ما حدث في الأمة وبالأمة، لكانوا متفهمين جداً لما قلت .

ندرك طبعاً أن منهم من فهم ذلك مبكراً، وحاول تصحيحه، ولكن، ولأن التصحيح كان من قمة الهرم - ولم يتجذر في قاعدته - فقد عاد كل شيء بمجرد أن أزيح من القمة: بِسُمٍّ في الدسم، أو بطعنة في الظلام. أو بمجرد القضاء والقدر .

تركت ذلك كله لألحق بموعد مع أصدقاء النقاش والحوار الجاد، والوعي الحاد، ولو استطعنا أن نخرج ذلك الوعي من جلساتنا إلى الناس، إلى قاع الهرم، لربما استطعنا الخروج من ذلك المأزق كله ..

.. وأنا أخرج من باب المسجد الأموي نظرت خلفي إلى ما تركت، لو أن رساماً صور ذلك كله في لوحة، لما كان هناك اسم لها أصدق من ذات الاسم الذي اخترته لفصلي الإشكالي ذاك..

" الأمس المستمر .."!.

***

قال لي الدكتور مسلم تسابحجي ونحن على قمة قاسيون: " ترى ذلك المربع المضيء، إنه المسجد الأموي **!"**.. وكانت دمشق كلها مضيئة وليس ذلك المربع فقط. ولم يكن من الممكن

إنكار جمال المربع، لكن لا يمكن أن يكون ذلك على حساب جمال لوحة الضوء ككل.

لاحظت ذلك وذكرته له، تكون اللوحة أجمل عندما نراها ككل متكامل، بشمولية، بتوازن. اللوحة لا تكون مخطئة أبداً، رؤيتنا هي التي يمكن أن تصنف بالخطأ، أو بالصواب. رؤيتنا هي التي يمكن أن تكون متحيزة سلباً أو إيجاباً، وإذا ركزنا على جزء معين من اللوحة، وتغنينا بجماله وبفضائله، وأهملنا بقية تفاصيل اللوحة، فإننا نكون بالضبط كمن يركز على جزء معين من اللوحة - يحتوي على بعض الخلل أو القبح - ويحكم عليها بالبشاعة انطلاقاً من هذا الخلل.

بعبارة أخرى، (تبييض) التاريخ، هو المرادف الموضوعي لعملية تسويده وتبشيعه وتفريغه؛ كلاهما وجهان لعملة واحدة، كلاهما تركيز على نقطة واحدة - جزئية واحدة - وترك اللوحة بشموليتها..

.. كلاهما رد فعل للآخر. من بدأ الأول؟. إنه سؤال عقيم، مثل سؤال البيضة والدجاجة. والحل هو أن يكون اقتحام جذري للوحة دون تبييض، ودون تسويد، ودون تمجيد، ودون تعريض.

(.. والمشكلة أن هذا الاقتحام المتوازن يثير ضغينة "التبيضيين" و"التسويديين" على حد سواء؛ فكل منهم، وإن بدا نقيض الآخر وعدوه، يجد مبررات بقائه في وجود الآخر. إنهما يتساندان بطريقة غير مباشرة، واختفاء واحد منهما سيؤدي حتماً إلى اختفاء الآخر. لذلك فالنظرة المتوازنة العلمية تحرجهما معاً، تخرجهما معاً وتهدد وجودهما معاً، وهم سيحاربونها بلا هوادة، أكثر مما سيحارب بعضهم بعضاً ..).

***

لم أكن بحاجة إلى أن أقول ذلك كله لمسلم؛ فقد كان يعلم. ومثلما كان لغياث مجسات استشعار للتنقيب عن الأفكار الجديدة، فقد كان لمسلم (هالة) تحيط به وتجعله مركزاً للجذب ومحطاً للأنظار. ومع هالته تلك.. فقد أحاط بي وانجذبت إلى ذوقه ولطفه وانفتاحه على الآراء. كانت مكالماته تحيط بي بحنان ودفء: " لاشيء، فقط أردت الاطمئنان ". كنت أسأله هل هذا اللطف آلية برمجة تحاول أن توقعني من خلالها في شراكك؟ أم أنه شيء طبيعي في داخلك؟. ولم أتطلب الكثير من الوقت لأعرف أنه كان دوماً مبرمجاً على اللطف قبل أن يكتشف (البرمجة اللغوية العصبية) وقبل أن تكتشفه أيضاً، علماً أن كل ما يستورد من أدوات البرمجة لا يرقى إلى

مستوى حرفة اللطف عند (الشوام)، وتأثير الأخيرة ليس أقل على الإطلاق من أدوات البرمجة (لكنها مغنية الحي مرة أخرى..).

صلى بي الفجر ذات فجر لا منسي، ففجر مواجعي وأهطل دموعي، وتبرمجت فوراً بعد أن فك شفرتي بصوته المليء بالغيرة والوعي والعاطفة وهو يقرأ بالآيات.

وفي الطريق إلى قمة قاسيون، حكى لي وحكيت له، وأحسست أن قصة التزامه هي قصة التزامي، ثم تذكرت أن كل قصص جيلنا متشابهة لو أزلنا منها التفاصيل.

حكى لي عن إحباطه، بعد سنين من الالتزام، فكدت أشهق وأنا أرى إحباطي ذاته؛ أنا اتجهت بعدها إلى الكتابة، لأكسر هذا الإحباط عبر التواصل مع الآخرين والعمل من أجل تغييرهم. وهو اتجه إلى (البرمجة اللغوية العصبية).. و(التنمية الذاتية).

كنا متشابهين فعلاً، مع كل الاختلافات التي ستبقى موجودة، والتي لن تفسد للود قضية...

***

وعندما قال مسلم شيئاً هائلاً - وكان عن سورة الفاتحة، وأظنه نقله عن الشيخ معاذ الخطيب - قمت من مكاني وبحركة واحدة، شددته من أذنه، وطبعت على جبينه قبلة.

شددت أذنه لأن الشيء الذي قاله رائع، حتى إنه أثار غيرتي؛ لأني لم أكن أنا الذي قلته ..

وقبلته، لأنه قاله، على أي حال ..

.. وعدت إلى مكاني.

***

يدخل عبد الرحمن الحاج متأبطاً كتابي ومتسلحاً بعدته الإبستمولوجية في النقد الحداثوي، ومعه كل قواميس المصطلحات التفكيكية، من تحت نظارته ألمح نظرة تقول لي إني واقع واقع لامحالة، أستنجد بصهيب وبقية الإخوة عسى أن يمدوني بأسلحة دفاعية.

يفتح عبد الرحمن الكتاب، ويبدأ معي من السطر الأول.

يقضي في تشريح المقدمة وقتاً أكثر بكثير من ذلك الذي استغرقته في كتابتها!. يعترض بشدة أني أتحدث عن (مسلمات)-!- في المقدمة؛ فلا شيء مسلم به في أصول البحث الحداثوي

التفكيكي التهديمي الذي يستخدمه عبد الرحمن أداة للقراءة والكتابة على حد سواء.

وفجأة، وإذ كنت أتوقع صدور حكم الإعدام، إذا بأساريره تنفرج، وإذا به يتحدث بما هو مفهوم، كما لو كنا في برنامج (الكاميرا الخفية). بل إنه - ويا للهول - قال كلمتين إيجابيتين في حقي، رغم تحفظه الشديد على ما لا مجال للتساهل فيه - بالنسبة إليه - وهو أسلوبي الواضح (التبسيطي على حد تعبيره..)..

لكنه قرن ذلك بتعبير آخر، يمكن أن يكون مزدوج الاستعمال عن كون الكتاب (تنويرياً) أيضاً، ويمكن أن يفسر ذلك بأنني أنتمي إلى القرن التاسع عشر!، وهذا لا يضيرني في شيء، فأنا أعتقد أننا نعيش في عصر الظلمات، وأن وظيفة الكتاب في هذا العصر أن يكون تنويرياً..

تفتق هذا الرجل عن قلب طفل رائع يختبئ خلف قواميس النقد الألسنية، وخلف معاول وأدوات الهدم والتفكيك اللغوي التي يتقنها باعتباره من ذلك الجيل الجديد من الإسلامويين الحداثويين.

وستتفتق تلك النظرة التي رمقني بها عند أول تعارف، عن أجمل ضحكة رأيتها في دمشق، وأطول صبر على مزاجي الثقيل معه ومع أقرانه من إسلامويي الحداثة، ابتداء من نصيحتي المتكررة بتوزيع جهاز لفك الشفرات (ديكودر) مع كل نسخة من كتبهم، لفك شفرته أسوة بالقنوات الفضائية المشفرة، وصولاً إلى القول أن الحداثويين ضحوا بالقارئ من أجل ألا يفهم الرقيب! ومروراً بالحديث عن أن الحداثويين يؤمنون أن الخط الحلزوني هو أقصر مسافة بين نقطتين.. تقبل عبد الرحمن كل ذلك بصدر رحب وبضحكة أرحب، وجعلني ذلك أحبه بصدق وبمودة، بل جعلني أعيد النظر في رؤيتي لكل الحداثويين الإسلامويين. فلعل (القوم) أفضل في حقيقتهم من الصورة التي يجهدون أنفسهم في تقديمها عن أنفسهم!.

اكتشفت ذلك فعلاً، وأنا أقرأ كتب عبد الرحمن المشتركة مع مجموعة الملتقى الفكري للإبداع، بالإمكان فعلاً فك الشفرة بغير كبير جهد، وبالإمكان، مع كوب من الشاي (الحقيقي!)، أن نخرج، بفكرة واضحة وجيدة وجديدة، من المقال..

حتى الاستمتاع بمقالات "الإسلامويين" لم يعد أمراً مستبعداً!!!

***

وفي دمشق صهيبان، لا صهيب واحد.

واحد منهما الذي ذكرته قبلُ.

والآخر (الشريف) الذي أحدثكم عنه الآن. والذي عندما تعرفته عن قرب تساءلت مع نفسي: ".. من أين يأتي الأستاذ عدنان بهم ؟"...

صهيب الشريف مثقف حقيقي دونما ادعاء ودونما تبجح. إنه (سواح) في كل المجالات بفضول طفل يريد أن يعرف كل شيء، دون أن يجعله ذلك (منفوخاً) لأنه يعرف أكثر.

اهتمامات صهيب الأول كون يتمدد باستمرار، صهيب الأول يتحدى ويقتحم أسرار هذا الكون ليفك شفرته؛ لأنه مجبول على ذلك. يقول غياث عنه أنه لا يستطيع النوم قبل أن يقرأ في (النظرية النسبية).

صهيب الثاني سائح كوني يستمتع بما يرى وليس بالضرورة أن يتحدى كما الأول.

عرّفتهما أنا الواحد على الآخر، لم يكونا قد تعارفا رغم وجود معارف مشتركين، يفرق بينهما عقدان من الزمن لمصلحة صهيب الشريف الأكبر سناً، ويجمع بينهما تلك الاهتمامات المشتركة وذلك الاسم الأنيق الذي يذكر بالجيل الأول. ومن يومها صرنا الثلاثة نسهر معاً حتماً مقضياً. يذهب عبد الرحمن، يأتي غياث، ربما، لكن (الصهيبين) ظلا ثابتين في تلك الأمسيات الدمشقية التي تمتد إلى ما بعد منتصف الليل..

كان صهيب الشريف دافئاً ولطيفاً وودوداً جداً.. كان يحتوينا معاً كما سيفعل أخ كبير متفهم، أو أب مرهف الحس. كان أباً مثالياً في واقع الأمر أيضاً؛ اعتذر مرة، وظل يعتذر عن إكمال السهرة معنا، وفسر ذلك لاحقاً بأنه كان وعد أصغر أبنائه - الواقف على أعتاب المراهقة - بأن يصطحبه ليلعب معه كرة السلة. قال إنه لاحظ أن الولد "متوتر وعلى وشك الانفجار"، فقرر أن يفرغ توتره في كرة السلة...

قال ذلك ببساطة، وأطرقت مفكراً، فكرت بأي نعمة يرفل أولاده الذين ينشؤون في كنف أب متفهم يهتم بدواخلهم وتغيراتهم وما يعصف فيهم دون أن يظهر عليهم.. فكرت أنهم ربما يجهلون ذلك، وربما يتأففون، ويتضجرون مثل بقية المراهقين، من أجل (موبايل) كالذي عند زميل لهم، أو قميص جديد يلتمع في واجهة محل أزياء، لكنهم بالتدريج، ومع مرور الوقت، سيكتشفون أن كل ذلك زائل، وأنهم قد حصلوا - وبرسوخ - على ما لم يحصل عليه الكثير من أقرانهم؛ حصلوا على جائزة أن ينشؤوا أسوياء أصحاء في كنف أب متفهم..

كان صهيب كثير الاستشهادات بكلامه. أحياناً كان يقول جملة رائعة أو استنتاجاً ذكياً، فأسأله ببساطة: "من قال هذا؟".

فيقول، بنفس البساطة: "أنا! هيك طلعت مني، الآن!".

فأشير إليه بيدي أن ذلك "مية مية" ونغرق في ضحك لذيذ.

ربما لم تكن الثلاثة عشر يوماً كافية، لكنها بالتأكيد كانت كافية لتجعلني أفتقده فيما بعد، عندما عدت إلى بغداد.

صهيب الشريف: إياك أن تتصور أني أجاملك إذا قلت لك الآن: لقد افتقدتك حقاً ..

***

قاسيون، ليلة صدور "ضوء في المجرة"..

(مقطع مهدى إلى هـ.ب حيثما كان)

قاسيون.. وليل.. ومنتصف ليل.. وصهيبان.. وضيافة شامية معتقة بلا حدود..

قاسيون ودمشق تضيء كبساط سحري، والعالم يبدو أكثر دفئاً وأكثر تفهماً وأكثر حناناً (ولو بقليل).

والصهيبان ينطلقان في مديات مفتوحة، لا عائق أمام نقاشاتهما، لا حاجز أمام فكريهما؛ إنما هو الكون يتمدد باستمرار، وتلك تبدو مشكلتهما الوحيدة..

وأمامي عدة الضيافة الشامية الصيفية كلها. ما نسميه (رقي) يسمونه (بطيخاً)، وما نسميه (خوخاً) يسمونه (دراقاً)، وما نسميه (إجاصاً) يسمونه (خوخاً)، وما نسميه (عرموطاً) يسمونه (إجاصاً).

(إنها الحقيقة الضائعة بين عناد الأمويين للعباسيين، أو عناد العباسيين للأمويين.؟ لا أدري. إنها حكاية لن تنتهي، وليتها تقف عند فواكه الصيف والشتاء).

.. وأيضاً لوز، وأيضاً جوز، وأيضاً فستق حلبي، وتين وسكر..

وغداً يصدر "ضوء في المجرة "..

.. وقاسيون يبدو أنه قمة العالم، يا صديق.

***

ومن بعيد أراه، " ضوء في المجرة " قادم وساطع ومختلف أمام بحر الليل...

من كان سيصدق يا صديق؟ من تراه كان سيصدق؟ لا أنا ولا أنت كنا نتصور أن تلك الرسائل (التي كنت أتركها أحياناً تحت الباب ومعها (البيتزا) - كرشوة!-) ستجد طريقها إلى النشر، ستجد طريقها إلى أن تصير ضوءاً في المجرة...

بل لم أكن أتصور فكرة النشر.. ربما بعد عقود.. لكن خلال ثلاث سنوات فقط؟ كنت وقتها لا أزال أناضل من أجل البوصلة، أو في الحقيقة كان غيري يناضل من أجلها، وكان أمر نشر تلك الأوراق كنكتة لن أضحك لها شخصياً، بل كنت سأعدها مزاحاً مهيناً ومؤلماً بشكل شخصي.

كانت تلك الرسائل ممزوجة بالألم ومعصورة فيه... الألم الذي سيبدو في سطحه الأكثر ظهوراً، ألماً شخصياً وعابراً من أجل شخص واحد فقط وضعته سكة الحديد التي اختارها على الطريق الخطأ الذي يقود إلى الجهة الخطأ. لكن هذا الألم في عمقه الأعمق كان يخص كل الأشخاص الذين قصصهم تشبه هذا الشخص الذي هو أنت يا صديق؛ كل أولئك الذين لم يروا في الحياة غير تلك الخطوط الخطأ، ولم يقدهم شيء خارج الطرق الخطأ والمحطات الخطأ...

لن أكذب الآن فأدعي أن عيني كانت - عند الكتابة - على الأجيال القادمة. هراء.. لم أكن أتصور النشر. كنت أعرف أن القارئ المحتمل الوحيد هو أنت، مع ذلك، فقد كتبت..

لكني كنت أعلم علم اليقين أن شيئاً ما سيحدث، وأن تلك الرسائل، بطريقة ما، ستجد طريقها من تحت بابك إلى أبواب أخرى وشقق أخرى وقلوب أخرى وأيضاً عقول أخرى...

كنت متيقناً من هذا. وقتها كتبت في (الذين لم يولدوا بعد) ( لأني أعرف أني أكتبها من أجله، وسأستودعها عنده، وهو، جل وعلا، لا تضيع الودائع عنده ...) وقتها، استودعته تلك الرسائل، وتصورت أن الأمر سيطول، إلى درجة أني لن أراها وهي تخرج إلى الآخرين...

لكنه الله عز وجل وسننه الغالبة التي تحقق لنا حتى ما لم نكن نجرؤ على الحلم به، فضلاً عن التخطيط له.

***

سألني حسام كشكية، المدقق اللغوي الشاب في دار الفكر، الذي تغبطه على دقته ولغته وشبابه دفعة واحدة، سألني حال تعرفه علي، وبلا تردد كما لو كان يختزن السؤال في داخله، سألني: " دكتور، ما السر في (ضوء في المجرة) ؟".

فوجئت. "السر؟" قلت. كنت أعرف عم يتكلم، لكني فوجئت جداً.

استدرك متصوراً أني لم أفهم: "لقد كنت أنتهي من عملي في التدقيق هنا، وأعود إلى (يبرود)، والكلمات تعيش معي، تظل معي عندما أتحدث مع الناس هناك".

" فما السر ؟". قال.

غرقت في خجلي. كان هذا هو صباحي الدمشقي الأول، ولم يكد يمض علي في دار الفكر ساعة، ولم أكن قد تأقلمت بعد مع أي شيء.

عاجلني: "كنت أسأل نفسي.."

" أهو الإخلاص ؟". قالها بتساؤل حقيقي.

هكذا يفجرون الكلمات في الشام.

***

**الإخلاص!**

وانفجرت في وجهي الكلمة، أدمتني ومزقتني.. تذكرته.. الإخلاص!. الإخلاص المأسوف عليه. تذكرت أن كل ذلك الألم وكل ذلك التوتر وكل ذلك القلق لم يكن من أجل وجه الإبداع. ولا من أجل الأدب، ولا من أجل أي نوع من أنواع الثقافة.

كان كل ذلك من أجله عز وجل، من أجل أن يتغير درب رجل واحد باتجاهه. تذكرت أن كل تلك الأوراق كانت قد سطرت لهدف واحد،كل ذلك (الإبداع)- إذا كان هناك من سيسميه كذلك- كان قد وظف من أجل أن يكون جزءاً من سنة تغيير قلب رجل واحد.

"أهو الإخلاص؟". ولم يدر أي جرح نكأ، لم يدر أي مواجع هيج. تذكرت اللهفة، والحيرة.. والقلق.. والقلب المكسور. تذكرت الدعاء آخر الليل.. وأول الليل.. ووسط الليل.. وطول النهار. تذكرت انتظار رد فعل واحد.. تذكرت ترصدي لكلمة واحدة أو تعبير واحد يشي أن (القلب) قد تحرك.

تذكرت سهري وكآبتي.. (وأيضاً فرحي لأبسط إشارة).

تذكرت الهاتف إذا رن، وأيضاً تذكرته إذا لم يرن. تذكرت جمهوري الصغير من أصدقاء وزملاء وزميلات لزوجتي، "إنهن يبكين"؛ كانت تقول لي زوجتي، فأشيح بوجهي غير

مبالٍ. حسن جداً إذا بكين، وحسن جداً إذا تغيرت تلك الرؤوس، لكني كنت أدير رأسي دوماً نحو رأس لا يبالي وعين لا تدمع...

تذكرت زوجتي إذ تواسيني بما بدا أنه حقيقة صاعقة: " وما عليك ألا يتغير؟ هل تعتقد حقاً أن على كل الناس أن يتفاعلوا مع ما تكتب؟ هل تحقق ذلك حتى مع الكتب السماوية؟ بل حتى مع القرآن ؟".

تذكرت ذلك كله، وقد لخصه حسام كشكية بكلمة واحدة انفجرت في وجهي كحزام ناسف، أدمتني وآلمتني كما عندما يذكرون أمامك اسماً لصديق قديم، تعاهدتما يوماً ما على الوفاء وعدم الافتراق، ثم غدرت به وهجرته ونسيت حتى اسمه..

وسألني حسام كشكية، في صباحي الدمشقي الأول، وقبل أن أرتشف ذلك الشاي الدمشقي الذي لا شاي فيه حسب المعايير العراقية.." أهو الإخلاص ؟".

***

ولأن الأمر كان فيه الكثير مما قال عنه حسام، فقد تكفلت السنة الإلهية بدفع تلك الرسائل إلى دائرة الضوء..

فبعد سلسلة مما يسميه الناس مصادفات، وأفضل هنا تسميتها بمفترقات الطرق، وجدت نفسي أرسل واحدة من تلك الرسائل إلى واحدة من أهم عضوات لوبي النساء في دمشق، سلسلة جبال الهداية، السيدة هدايت سالم...

ولكي أكون صريحاً فإن ذلك الإرسال لم يكن بنية النشر، ولعله لم يكن يندرج أيضاً ضمن ما قال عنه حسام، كان مزيجاً من التواصل والتبادل الذي يمارسه المثقفون وأشباههم، ولعله لم يكن يخلو، من ناحيتي حصراً، من شيء مضاد تماماً لما قاله حسام، من حيث الرغبة في استعراض العضلات الأدبية و" انظروا لي أنا أستطيع أن أكتب هذا "..لن أبرئ نفسي من هذا، ولكني أرجو ألا يحبط عملي كله...

من بريدي الإلكتروني خرج الأمر، ولم يعد لي دخل فيه، بالضبط كما حدث مع البوصلة، خاض اللوبي النسائي المعركة هذه المرة. تكفلت السنن الإلهية بذلك، وكنت في منأى عن الأمر كله، بل إني كنت أجهله، وفوجئت تماماً - ذات ظهيرة - برسالة من دار الفكر تطلب مني بقية الرسائل...

لقد كانت تلك هي السنن الإلهية؛ تدفع ناساً بناس. وضعتك في طريقي يا صديق.. وضعتني في طريقك.. جعلتني أحاول، ثم أخفق، فجعلتني أصر على المحاولة، ثم إنها جعلتني أعتصر كل ما في وسعي لأحاول.. ثم تدفقت ضوءاً وكتابة... ثم جعلت اللوبي ينتبه، ويقرر، ويضغط..

ثم ها هي ذي اليوم، تلك الرسائل، تخرج من (الخاص) إلى (العام)، ومن (الأنا) إلى (النحن).. ومن الأدراج المغلقة إلى الرفوف....

وها هو ذا الضوء، يكاد يبزغ في المجرة يا صديق...

***

.. يسألونني عنك.. أولئك الذين قرؤوا.. أولئك الذين تفاعلوا مع ما تفاعلت معه، وصاروا جزءاً مما صرت منه، ومس قلوبهم ما مس قلبك أنت. يا صديق، يسألونني عنك، البعض منهم لديه بعض المعلومات عنك، والبعض لا يعرف غير ما قرأ. البعض يعرف اسمك وعنوانك ورقم نقالك وتفاصيل هويتك، والبعض الآخر لا يعرف غير ملامح قلبك التي رآها بين السطور.

يسألونني عنك: "كيف هو الآن؟"ولا يقصدون، سوى التزامك..

فأقول لهم باقتضاب: " هو بخير ".

فهل أنت حقاً كذلك يا صديق؟.

***

تذكرت ذلك كله يا صديق، وأنا على قمة العالم في قاسيون، ودمشق تبدو كما لو أنها عاصمة المجرة، والضوء يغمرها ويغمرني، (وضوء المجرة يصدر غداً) والمجرة تبدو كما لو أنها تركض نحو الضوء....

تذكرت ذلك كله، وكان الصهيبان غارقين تماماً في حديث النسبية العامة والخاصة وآينشتاين والزمكان..

خرج قلبي من زمكانه - ليهدر بعيداً عن الزمكان التقليدي، ويرحل مسافراً إلى ذلك الزمان والمكان الذي كتبت فيه الرسائل، إلى الإنسان الذي كنته وقتها، ثلاث سنوات فقط، لكنها تبدو الآن كما لو كانت ثلاثة عقود، أو ثلاثة قرون، أو ثلاث سنوات ضوئية. كل شيء تغير يا

صديق. كل شيء. صار كل ذلك يبدو كما لو أنه ترف سنوات ما قبل الاحتلال. صارت مجرد صلاة الجماعة مخاطرة تستحق التهنئة إذا نجوت منها. صارت كلمة "حمداً لله على السلامة" بديلاً لكلمات التحية التقليدية نتبادلها كل يوم. في دوامة العنف والعنف المضاد التي سقطنا فيها، صار مضحكاً جداً أن تكون "ملهوفاً" على صديق من أجل أن " يصلي"، لأنك على الأكثر ستكون ملهوفاً إذا خطف أو إذا اختفى أو إذا جمعت الفدية التي يطلبها مسلحون ربما يكونون هم (الشرطة) أنفسهم.. لن تجد الوقت لتكون ملهوفاً عليه من أجل أن يصلي لأنك قد "تصلي عليه." (وقد تجده في ثلاجة المستشفى...)..

كل ذلك، بدا كما لو أنه في عصر آخر، زمان آخر، ومكان آخر، وبدا كما لو أننا صرنا ناساً آخرين. لقد فرقتنا الحياة يا صديق. غربتك في متاهاتها وأخذتك إلى الصقيع الجرماني لتضرب أوتادك هناك. وصار لكل منا (زمكانه) الخاص به.. لكن ذلك (الزمان والمكان) الذي كتبت فيه الرسائل سيظل مختلفاً ومميزاً وسنظل محتفظين به في أعماقنا رغماً عن أنف النسبية...

.. وأخذ قلبي يهدر مثل محرك طائرة معطوبة، ليخرج من زمكان آينشتاين، وزمكان الصهيبين، وزمكان قاسيون، قمة العالم، ليعود إلى ذلك الزمان الآخر والمكان الآخر.. حيث كان كل شيء يبدو أكثر وضوحاً..

كما قال حسام كشكية، لقد كان زمان الإخلاص .

***

.. وغداً، بقليل من التوفيق، بقليل من الحظ، وبقليل من تلك السنن الإلهية التي لا نفهمها حقاً إلا بعدما تكتمل، ستخرج تلك الرسائل من حيزها الزمكاني، إلى زمان ومكان الناس الآخرين...

وبقليل من التوفيق، ستدخل في زمكان عصفورة المجالس الدمشقية، فإذا أحبتها فإنها ستغرد بها في كل مكان، وستحمل ذلك الضوء ليدخل كل قلب تحط عليه..

لو أن أحدنا يومها أخبرنا بذلك.. هل كنا سنصدق ؟

... قطعاً لا يا صديق.

***

اليوم التالي.. عين الفيجة.. مأدبة غداء تقيمها الأستاذة حنان اللحام وزوجها المهذب اللطيف الأستاذ حسن هلال أبو عبد الرحمن..

أجلس في ركن الطاولة قرب النافذة. وقبل أن يكمل الآخرون جلوسهم تقترب السيدة الفاضلة (حكم) زوجة الأستاذ عدنان سالم مني، وفي يدها كيس أزرق تمده لي وتفسر: " هذه هي أول نسخ خرجت من المطبعة ". لقد أوصت سيدة الحكمة أن يأتوا لها بأول نسخ من السلسلة تخرج من المطبعة. واختارت أن تقدمها لي، بنفسها، على الغداء، لا وقت المعرض، وقد كنت سأذهب إليه مساء..

استلمت النسخ كما لو كانت طفلي الوليد وهو يخرج من صالة الولادة.. دهشت كيف لم تنبض صارخة كما لو كانت حية فعلاً، لكن قلبي هو الذي نبض بشدة.

أفصحت تلك السيدة، بتصرفها ذاك، عن عمق فهمها وتحسسها لمعاناة كاتب مع أسطره وأوراقه. كان عملها ذاك، هو أجمل ثناء.. لم أسمعه منطوقاً ولا شاهدته مكتوباً ولكن أحسسته سلوكاً ..

ما كان يمكن لتلك السيدة إلا أن تكون كذلك.. كيف لا ودارها اسمها "دار الفكر" ؟

***

قرب النافذة جلست. هربت من الحوار إلى أسطري المطبوعة؛ أسترق النظر إليها وأهرب معها، عبر النافذة إلى ذلك الزمان الآخر. كان الأستاذ عدنان يقول شيئاً رائعاً عن " طول الأمد "، وكنت قد تسللت إلى " الأمد الآخر "، إلى الزمان والمكان الآخرين، وصعقني كيف أن تعبير طول الأمد يختصر الزمان والمكان ويضعهما في خانة واحدة...

***

في طريق العودة، لاحظ عبد الرحمن نجل السيدة حنان، أني لم أخرج عن الصمت، وكنت لم أكف عن الكلام في طريق الذهاب!!.

قال لي، وهو يلاحظ أني أقلب الأوراق بين لحظة وأخرى: "أراك متلهفاً لقراءة الكتب. ألست الكاتب؟".

قلت له: "بلى، لكن المسألة غير شكل"!!

***

مساء اليوم التالي.. في المعرض.. سلسلة الكتيبات الصقيلة تشع ضوءاً في المعرض. يتطلب الأمر توفيقاً إلهياً لتشع ضوءاً في المجرة...

أمام رف الكتب وقف شاب، لعله لم يتجاوز العشرين، أو أكثر أو أقل قليلاً، جذبته أغلفة الكتيبات التي أبدعتها مخيلة الفنان المرهف محمد سرور العلواني. وقف أمام عنوان واحد بالذات ( أدرينالين ).. مد يده وأخذ يقلب الكتاب.. كنت واقفاً أراقب ما يدور.. أتظاهر بقراءة العناوين بينما أقرأ تعبيرات وجهه..

كان شاباً مفتول العضلات، شعره طويل بطريقة لا توحي أنه يتبع سنة الرسول كما أفتى البعض. ملابسه اللصيقة بجسده توحي أن أولوياته منصبة على هذا الجسد. كان يقلب (أدرينالين)، لكن عالمه، كما يبدو على الأقل، كان يدور حول هرمونات أخرى.. وقفت أمارس هوايتي المحببة؛ قراءة وجوه الناس حين تكون تلك الوجوه تقرأ لي.. في البدء توقعت أن الأمر لن يعدو أن يكون اطلاعاً عابراً. فماذا يمكن أن يجذب هذا الشاب، إذا لم يشر عليه أحد.. لا شيء طبعاً. ( لكنها السنن )..

ثوان استغرقها الشاب في القراءة. قلت في نفسي إنها كل ما أملك من وقت للتأثير، ولن يكون ذلك في مصلحتي. تصورت أني محق عندما رأيته يغلق الكتاب، لكنه لم يضعه على الرف؛ بل قرأ الكلمة على الغلاف الخلفي، وعاد أدراجه مرة أخرى إلى داخل الكتاب. ثوان أخرى في صفحة أخرى طالت أكثر هذه المرة. بدأ شيء ما يظهر على وجهه؛ بدا كأن شيئاً ما مسته السطور؛ ظهر ذلك التقلص على عضلات وجهه الذي أعده علامة تشخيصية لا تخطئ أبداً. صعد الدم في وجنتيه.. إنها فيزياء الحواس . ظهر فجأة كما لو كان منزعجاً أو غاضباً أو على وشك الصراخ. حك جبهته بيده؛ علامة أخرى لا تخطئ. قلب الصفحات بعصبية، واستغرق ثواني أخرى، تغيرت ملامح وجهه تماماً، بدا الآن كما لو أنه على وشك البكاء. كنت أراقب ما يدور مبهوراً. كان الشاب مهرجاناً من الأدرينالين الصاعد والنازل، من التأثر سلباً وإيجاباً لم أكن أتصور أني من الممكن أن أرصد تأثر القراء بهذا الشكل المباشر. لو كان كل ما خرجت به من زيارتي إلى دمشق هو هذا لكان كفى ...

... التفت هو فجأة.. ربما ليعرف إن كان هناك من رأى انفعالاته، قبض علي متلبساً كما قبضت عليه متلبساً. أشحت بوجهي وأنا أحمد الله أنه لا يعرف أني المؤلف! وتظاهرت أني أريد أن أعرف سعر مجلد من المجلدات المرصوصة على الرف المجاور.

عاد مرة أخرى إلى الكتاب. لقد استغرق الأمر أكثر مما يتخيل أي أحد، وأخذ يقرأ مجدداً. قررت أن الأمر أكبر من أن أتابعه على وجهه، لكني فكرت أنه سيكون محزناً جداً لو أنه اقترب بهذه الدرجة من كتاب كان موجهاً له أصلاً ثم انسحب وتراجع. كان الأمر سيكون محبطاً جداً لو أنه حدث. ووقفت أتأمل ما يدور في استسلام.. لم يكن عندي ما أفعله.. (سوى الدعاء).

أغلق الكتاب ووضعه في يده، لم يأخذه تماماً ولم يرجعه إلى الرف، بدا على وجهه التردد وهو ينظر إلى الرف ثم إلى الكتاب.

لثوان، فرغ العالم من كل شيء؛ لم يعد هناك شيء في هذا العالم.. سوى هذا الرف، وهذا الشاب، وأنا ...

كنت أتنفس بصعوبة، وجدت في الأمر رسالة ربانية لا يمكن إغفالها. كنت كمن ينتظر نتيجة امتحانه وهي تعلن على الجميع بعد دهر من الانتظار.

لم يكن هناك أحد في زحام الزائرين.. لم يكن هناك أحد في العالم.. لم يكن هناك شيء سوى الرف.. وعليه الكتب.. وهو.. وأنا.

...وخياران؛ إما أن يرجع الكتاب إلى الرف.. فينفجر الكون مثل فقاعة كأنها لم تكن ..

أو أن يأخذه، فينفجر العالم ألعاباً نارية وشلالات فرح وأمل .

لدهشتي، كان هناك خيار ثالث، تكفلت به السنن، ولم يكن في الحسبان.

لقد أخذ كتب السلسلة كلها ومضى..

كلها !

***

مع مسلم في نزهة. يركن سيارته في مكان ويقول لي: " دعوة زفاف.. يجب أن ألبيها.. عشر دقائق فقط.. لن نتأخر ". أعتذر بإصرار برجوازي وأقول له إني سأنتظر في السيارة. لم أكن مدعواً ولا أحد يعرفني، وليس من اللائق التطفل على مناسبات الآخرين. يبرمجني مسلم بسرعة: " لو كنت معك في بغداد هل كنت تتركني أنتظر في السيارة وتدخل العرس ؟" أستسلم، وأدخل على مضض.

كان بيتاً شامي الطراز ظل محافظاً على أصالته رغم مظاهر التجديد التي أدخلت. بقي البناء الأساسي ثابتاً، لكن أدخلت عليه تعديلات تجعله أكثر مرونة مع متطلبات العصر. لاحظت أن البيوت المجاورة له كانت قد تغربت تماماً وضيعت كل طابع مميز لها..

واستقبلني الياسمين في أول دخولي للبيت.. احتضنني ولفني بعمق.. كان في كل مكان.. ينزل من النوافذ ويصعد على الجدران ومن الأصص المنتشرة. كان الياسمين في كل مكان، وكان متسقاً مع طراز البناء كما لو كانا توءمين منذ الأزل. كان يخرج من كل مكان كما لو أنه ينبع من الأساس، من القواعد ..

كان الحاضرون في معظمهم، وكما قدرت، من أصدقاء العريس وأقربائه. شباب في عمر الورد.. ورد الياسمين.. شباب في ذلك العمر الذي تتمنى لو أنك استطعت أن تبقى فيه وتأخذه معك طول العمر.. شباب إلى الأبد. كانت وجوههم تعكس ذلك كما لو أنهم لن يشيخوا أبداً، كما لو أن "الأمد" سيحتجزهم هنا، في هذا المكان.. في العرس، بين أغصان الياسمين .

هل كان ذلك بسبب تأثير الياسمين؟ ربما. لا أدري. لكن فجأة دهمني شعور أنهم يشبهون الياسمين بغضاضته ونضارته وأيضاً بمرونته..

كانوا لا يزالون في عمر يجعلهم في مقتبل الخيارات. لم يكونوا، على الأكثر، قد تورطوا بعد في خيارات خاطئة. وحتى لو كان منهم من فعل فقد كانوا في عمر يسمح لهم بالتصحيح بسهولة أكبر. كانوا في عمر منفتح على كل الطرق.. وكل الخيارات.. كان هناك خيار السقوط، ولكن أيضاً خيار النهوض. كان هناك خيار الإخفاق، ولكن أيضاً خيار النجاح. كان هناك خيار السكون.. البقاء على الوضع الراهن، ولكن كان هناك خيار التغيير.

كان هناك خيار الظلام.. ولكن أيضاً خيار السطوع ..

كان ذلك كله ممكناً جداً في مثل عمرهم.

همس مسلم في أذني إن معظم الحاضرين كانوا من الشباب الذين أشرف على تدريبهم في دورات التنمية الذاتية التي يديرها، يحاول إطلاقهم فيها نحو ( آفاق بلا حدود ). وكنت قد لاحظت احترامهم وترحيبهم الشديدين بمسلم.

إذن كنت محقاً، لقد كانوا يحاولون! مجرد انتمائهم لمعهد لتنمية الذات، كان يعني أنهم يستشعرون الحاجة إلى التغيير . مجرد ذلك كان يعني أنهم يريدون أن يأخذوا القرار، يريدون أن يمتلكوا زمام المبادرة في حياتهم . مجرد رغبتهم في تنمية (ذواتهم) كان يعني أنهم يشعرون

أن العالم صار أكبر من أن يواجهوه بذوات مضمرة ، كان يعني وعيهم أن في أعماقهم ما يستحق البحث عنه ولو تنقيباً ولو حفراً..

لست هنا بصدد الترويج للدكتور مسلم ومركزه ودوراته - وهو لا يحتاج إلى ذلك بأي حال- بل إني حتى لست بصدد نقاش الآليات المستخدمة في عملية التنمية تلك؛ لأني لست مطلعاً عليها بما فيه الكفاية أولاً، ولأن مناقشتها قد تملك فرصاً أخرى...

لكن مع ذلك، فإنه من المؤكد أن هؤلاء الشباب كانوا يستشعرون الحاجة إلى التغيير، تغيير أنفسهم أولاً، ربما كجزء من خطة أكبر لتغيير العالم، كانوا في هذا العمر الغض الذي يمكننا فيه أن نؤمن بالأحلام الكبيرة ونسعى إلى تحقيقها ..

.. اقترب مني فجأة شاب منهم[3]، وألقى التحية، ثم سألني: "حضرتك الأستاذ العمري؟".

أجبته بالإيجاب وقد بوغت تماماً. فأكمل قائلاً إنهم درسوا البوصلة في الدورة و... قال كلاماً لطيفاً أفضل ألا أقوله. أكمل مجاملاته الرقيقة وانسحب وأنا لا أزال في حالة مفاجأة، لم يكن مسلم قد أخبرني بشيء محدد، مال علي بعد ابتعاد الشاب، وقال إن هذه المجموعة بالذات قد درست (البوصلة..) بوصفها نموذجاً تطبيقياً (لتغيير المفاهيم) ...

فكرت: (البوصلة..؟). نموذجاً (تطبيقياً)؟. جزءاً من دورة؟. إنه كتاب ضخم ليكون جزءاً من أي شيء.. 600 صفحة!.

هؤلاء الشباب أكثر جدية حتى مما توقعت.

لحظات وتحلق حولي ثلاثة وأربعة آخرون. وجروا العريس نفسه من مقعد أحلامه وليلته ليسلم علي..

تأملتهم بعدما ذهبوا وقد عدت إلى مقعدي قرب مسلم، كان هناك شيء ما في وجوههم.. شيء نوراني.. أهو الشباب؟ أم هو الصدق؟ أم هو الحلم فيهم؟ أم هو كل ذلك؟!

كانت وجوههم تبث نوراً داخلياً عجيباً، نوراً تعودنا أن ننسبه للشهداء، ونحصره بالشهداء. كان ذلك معقولاً يوم كانت الشهادة جزءاً متمماً نهائياً لعملية تغيير- لم يكن ممكناً أن تتم إلا بها..

الآن أرى النور في وجوههم، ولا أقول عنهم إنهم شهداء؛ فالشهادة ليست سوى جزء من عملية تغيير شاملة، وإذا اجتثت من هذا السياق فإنها تسلب من فاعليتها..

لذا لن أقول عن الوجه النوراني لذلك الشاب إنه وجه (شهيد)، وربما سأختار أن أقول إنه وجه ( المغيرين ما بأنفسهم ) - كما اختار الخطاب القرآني..

إنه وجه أولئك الذين سيغيرون العالم ابتداء من تغيير أنفسهم ..

لا أعرف أين سيصل بهم الأمر؛ ربما هم ليسوا واثقين (أيضاً).. ربما سيكون هناك تخبط آخر ينتظرهم في نهاية تلك الآفاق، ربما سيكون خروجهم من (الصندوق) دخولاً إلى صندوق آخر لكنه مستورد هذه المرة.. لكنهم على الأقل يحاولون، يمدون أيديهم بعضهم إلى بعض من أجل خروج جماعي من مأزق التاريخ... وبكثير من الوعي، والكثير من التحديد بالثوابت، سيكون هذا الخروج أكثر توفيقاً، ونحو ما يجب أن يكون، نحو (التقويم الأحسن).. وليس نحو أسفل من وضعنا الحالي.. أي ما يجمع كل ما هو سفلي في وضعنا الحالي بالإضافة إلى كل ما هو سفلي في التجربة المستوردة..

***

ربما يكون لشخص مثلي عشرة اعتراضات ومئة ملاحظة وألف تساؤل عن التنمية الذاتية والبرمجة اللغوية العصبية، على التعميم المستخدم فيها، وعلى تغيير استخدامها من فن الإدارة إلى كونها رسالة اجتماعية، على الرسائل الضمنية التي تكون بين السطور وتدخل في لاوعي المتلقي، وعلى تحويلها لتكون وسيلة للاستثمار بشكل رئيسي..

ربما يكون لهؤلاء الشباب نفس الملاحظات، بل ربما يكون لبعض العاملين في هذا الحقل جزء منها، وهذا كله جيد وإيجابي؛ فربما يساهم في تصحيح المسار أكثر مما يجعله متخبطاً..

فكرت أنهم، ربما، يكونون ذلك الجيل الذي أهديته البوصلة يوم كتبت: ( إلى جيل آخر، قادم لا محالة )، وكنت أعتقد أني أخاطب الغيب! كنت أعتقد أني أخاطب ( الذين لم يولدوا بعد )، إلى أن قابلت هؤلاء الشباب، في قدر هو أيضاً خير من ألف ميعاد..

وفجأة أحسست بالياسمين حولي يزداد ياسميناً.. أغصانه تزداد اخضراراً.. ووروده تزداد بياضاً.. الخضرة تزداد.. والبياض يزداد.. أحسست بعطر الياسمين يزداد ويغطي المكان.. ولا يكون ذلك إلا أكثر اتساقاً مع الشباب ومع النور في الوجوه.

فجأة زاد إحساسي بالياسمين.. صرت أراه رمزاً ثورياً جميلاً، ثورة ذلك الجيل الآخر، الجيل الذي سيثور على نفسه، وعلى أوضاعه، وسيكون انقلابه على نفسه أولاً، وسيكون البيان رقم واحد موجهاً إلى نفسه أولاً، وسيكون ذلك كله مقدمة لتغيير شامل وكامل هو التحصيل الحاصل الطبيعي لعملية الانقلاب على الذات ..

كف الياسمين عن أن يكون نباتاً حسن السمعة والرائحة، كف حتى عن أن يكون رمزاً شامياً؛ صار رمزاً لذلك الجيل ورغبته المختلفة في تغيير حقيقي ومختلف ..

***

لاحظ مسلم اندماجي، وكان قد قسرني على الدخول.. قال لي: " أريد أن أخرج الآن. هل ستأتي معي أم ستبقى هنا ؟".

وعندما خرجت، ألقيت نظرة أخيرة على البناء الشامي فوجدته أكثر رسوخاً، وأكثر علواً، وأكثر مرونة، وهو لذلك أكثر قدرة على الصمود..

***

في تتمة السهرة، وفي حواري مع الدكتور مسلم، استمر تأثير الياسمين فيَّ، صرت أجده في كل ما قاله مسلم، صرت ألاحظه في تلك الآفاق التي يرومها ويحلم بها ويخطط لها، و- الأهم- يعمل من أجل تحقيق كل ذلك..

كان الياسمين يملأ عيني وأنفي وفمي، لكنه لم يكن يشوش الرؤية، بل كان يزيدها وضوحاً، كان يعطيها عمقاً إضافياً ستخطئه العين المجردة...

***

المعرض يقترب من أيامه الأخيرة، ومعه تقترب أيامي في جمهورية الياسمين. وساعة يدي تذكرني، بتوقيتها المصر على بغداديته، أن كل ذلك زائل بالنسبة إلي، وأني مجرد زائر عابر على حافة الضوء والياسمين، وأن انتمائي الأصلي هو لأرض السواد، ولجذوع النخيل المكسورة، ولتلك الفسيلة النابتة هناك، والتي يجب أن تتعلم من درس الياسمين..

.. ساعة الرحيل اقتربت... وما دام لا مفر منه، ما دام الرحيل حتمياً، فلا داعي للتسويف.. لا داعي لتأجيله، لأن ذلك سيكون مؤلماً أكثر..

***

**الاثنين مساء.. يوم الرحيل**

المركز الثقافي العربي في المزة. محاضرة عن نساء دمشق، تلقيها ثلاث من أهم ناشطات اللوبي النسوي المتميز في دمشق. السيدة هدايت ستلقي جزأها التاريخي الخاص. ستبدأ السيدة هدايت وتنهيها بنفس الطريقة؛ ضحكة في البداية وضحكة في النهاية، وبينهما عمق التاريخ كله. وسيكون ذلك أسلوبها النموذجي، وستجعلني المعلومات التي ذكرتها شديد الثقة بما ذهبت إليه من أن ذلك اللوبي عريق ومؤثر، وأنه جزء من تاريخ دمشق ومن حكاية صمودها وعبق ياسمينها...

الأستاذة حنان اللحام ستحكي عن النسوة المعاصرات وسيدفعها تواضعها إلى إغفال اسمها، وهي علم من أعلام الحركة الإسلامية بغض النظر عن نسويتها وذكورتها.

أما سحر مهايني فستقدم صورة أخرى عن الشهرة التي لها وجه آخر لا يذكره أحد. تكلمت على النسوة اللواتي لا مكان لهن في المعاجم وكتب السير، ولكنهن مع ذلك يساهمن في صنع التاريخ.. إنهن الأمهات الدمشقيات اللواتي دفعن الضريبة الأكبر عبر التاريخ، أنجبن كل الأسماء التي ذكرتها المعاجم، وأيضاً كل الأسماء التي لم تذكرها المعاجم، وربين تلك الأسماء، وسهرن عليها، وضحين... ضحين، وكل ذلك حصل أحياناً بلا كلمة شكر واحدة، كما لو كان أمراً مفروغاً منه.. عدم حدوثه هو ما يستوجب التوقف والتعجب والاندهاش..

أيقظت سحر مشاعري. ذكرتني ليس فقط بالأمهات الدمشقيات أو البغداديات أو الأمهات في كل مكان.. بل ذكرتني بما لن أنساه قط، وما لن أخرج من أسره: الإنسان المغمور. الإنسان العادي . إنسان الشارع. إنسان السوق. الإنسان الذي قلما نلتفت إليه ونهتم به، لكنه يكون عادة مادة التغيير الأساسية. كل مشاريع النهضة التي نثرثر عنها لن يكون لها أي وجود ما لم نصل إلى هذا الإنسان المغمور. إنه هو الذي سينفذها ؛ وهو الذي سيدفع بها من أبراجنا العاجية إلى أرض الواقع. وإذا ظللنا معزولين عن هذا الإنسان، عاجزين عن الوصول إليه، بتعالينا وتعقيد أفكارنا وغموض لغتنا الذي نخفي به أحياناً خواء نتاجنا ، إذا بقينا بعيدين عن إنسان الشارع، فلا فائدة حقاً من كل ما نفعله.. لا فائدة ولا داعي للكتب والندوات والنقاشات إذا لم نصل إلى هذا الإنسان..

تفاعلت مع كلمات سحر كما لو أني كنت قد شعرتها للتو وكتبتها هي بدلاً عني. لم تكن الكلمات فقط، بل إحساسها العالي أيضاً عندما كانت تقول تلك الكلمات.

قلت لها لاحقاً إني سأعتزل الكتابة. تصورت هي أني أجاملها، وكنت صادقاً فيما أقول. أحسست ـ للحظات ـ أنه إذا كان هناك من سيقول بدلاً عنك فلا داعي لتحمل عبء الكتابة، لكن طبعاً لم يكن ذلك أكثر من ثوان، ثم إن الكتابة ليست خياراً تقليدياً تستطيع أن تكف عنه وقتما تشاء؛ إنها، للبعض على الأقل، تكون مرضاً لا شفاء منه إلا بمزيد من الكتابة.

وإلى هذا البعض، كنت أنتمي بالتأكيد .

***

وعندما انتهت محاضرة اللوبي، وكنت سأغادر دمشق بعد أربع ساعات لا أكثر، ودعتني دمشق بطريقة مميزة، دبرت لي فخاً، وأسقطتني فيه، ثم جرتني إلى المنصة.. بالضبط المكان الذي كنت أتجنبه..

ليلتها ودعتني دمشق بطريقة قد لا أستحقها، ولكني في الوقت نفسه لن أنساها. أعطتني ما يكفي من الزاد في رحلة العودة، وربما رحلة العمر. أخبركم سراً الآن: الكتّاب فئة من الناس محكومون بالتعاسة بشكل فطري. إنهم يستشعرون أكثر من غيرهم طبيعة المأساة الإنسانية، وهم في الوقت نفسه يشعرون بانعدام الجدوى مما يفعلون تجاه هذا. قسم منهم قد ينجح في المساهمة في تغيير العالم، لكن ذلك يحدث، عادة، لاحقاً وبعدما يكونون قد ذهبوا إلى حيث غير رجعة. وهذا يزيد من شعورهم بالتعاسة؛ إنهم لن يعرفوا أبداً، لن يعرفوا أبداً إذا ما كانوا قد نجحوا في ذلك أم أن عملهم ذهب هباء منثوراً .

المواساة الوحيدة التي لهم، والتي قد تخفف عنهم ذلك الشعور بالتعاسة هو تواصل الناس معهم.. هو ذلك الشعور بأن هناك من يتفاعل مع ما يكتبون ..

وحده ذلك التواصل، سيخفف من معاناتهم، ولو نسبياً، ولو جزئياً ..

ليلتها، ودعتني دمشق، وودعني لوبيها، بكمية من التواصل، ستخفف عني مدة ما ...

***

وقلت لسحر مهايني: "هذا أمر دبر بليل".

قالت: " نعم. لقد دبر بليل ".!!

.. وكان ذلك ليل الوداع..

***

تسللت من ذلك كله لأهرب مع الصهيبين؛ إنها ليلتي الأخيرة في دمشق، وخياري هو أن أقضيه معهما، وما دام هناك مجال لأن أكون جزءاً من الـ(نحن)، فلن أتوانى ...

يكتشف الصهيبان أني أغادر دمشق دون أن أزورها، يعدد لي صهيب الشريف الأماكن التاريخية التي كان يجب أن أزورها. للأسف لا يمكن أن أزور أياً منها الآن. يعلق صهيب الآخر أني زرت دمشق الثقافية لا دمشق التاريخية، ويكون على حق باستثناء أني زرت دمشق الناس أيضاً.. وهؤلاء يختزنون دمشق التاريخ ودمشق الثقافة أيضاً.

يأخذانني بالسيارة إلى مناطق لم أزرها في دمشق. يتحول أحدهما إلى مرشد سوسيولوجي أكثر منه سياحي.. يشرح لي عن تنوع اللُّحمة الدمشقية وعن تفاعل كل نوع مع التحولات الاجتماعية ومع التغريب...

***

في مطعم (متعولم) أجلس مع الصهيبين لأودع دمشق..

أطلب (الكولا دايت)، فيعترض صهيب الشريف ويقول لي أن أطلب عصير الفواكه. لا يشرح السبب لكني أعرفه، إنه ضد العولمة فكراً وسلوكاً، إنه لا يثرثر ضدها طوال الوقت كما يفعل آخرون (من ضمنهم أنا)، ولكنه في الوقت نفسه يختار سلوكاً مضاداً لها، أقوى من كل الخطب والمواعظ، ببساطة لا توجد هوة بين فكره وسلوكه، ولذلك فهو لم يسقط فيها كما سقط كثيرون.

أناوره؛ أقول له إني طلبت (الكولا دايت) من أجل الحمية وليس من أجل الكولا: رمز العولمة الأشهر، فيصر على أن مساوئ العولمة أكثر من مساوئ السمنة وحتى من مساوئ السكري. أستسلم له ولعصير الفواكه وأنا أفكر أن القضاء على الهوة يجب أن يكون من أولوياتي.

أغرق في عصيري ويغرقان في حديث أجد نفسي بعيداً عن تفاصيله.

إنها ليلتي الأخيرة هنا في دمشق، بل ساعاتي الأخيرة من هذه الليلة.. وهذه هي طاولة عشائي الأخير. أنتبه إلى وجود كرسي فارغ على الطاولة.. فجأة تأتي دمشق لتجلس إلى جانبي.. لا ينتبه الصهيبان إلى ذلك مع أنهما يتحدثان عنها.

جلست دمشق إلى جانبي.. وجلست إلى جانبها.. لم يجد أي منا ما يقوله للآخر.. جلسنا ساكتين قليلاً...

ثم تكلمت دمشق..

***

على تلك الطاولة، في ذلك العشاء الأخير، وضعتني دمشق بمواجهة مسؤولياتي.. بمواجهة أعبائي، وضعتني بمواجهة إمكانياتي.. وطموحاتي.. وضعتني بمواجهة الهوة بين فكري وسلوكي.. بمواجهة انعكاس كلماتي وجملي على الآخرين.

وضعتني دمشق بمواجهة إنسان آخر.. ربما يكون أفضل.. وقالت لي إن هذا هو ما تريده مني ...

***

قالت لي دمشق أن أستمر.. وأن الدرب بعيد، وأنه يفترض أن يكون موحشاً ومقفراً، فإذا لم يكن الدرب كذلك فهذا أمر جيد، لكنه ليس حتمياً...

قالت لي أن أحذر من الضوء.. وكذلك من الظل.. فكلاهما زائل ..

وقالت لي أن حُبَّ الناس قد يكون عزاء لتعاسة الكتاب، لكنه قد يكون أيضاً فخاً منصوباً بإحكام، يستدرج فيه الكاتب ليقول للناس ما يحبون أن يقرؤوه، كي يحافظ على حبهم له، لا على ما يجب أن يقوله لهم ..

وقالت لي دمشق أن قاسيونها نسبي.. وأن قمتها نسبية.. وأن ذاكرة الناس نسبية.. وأن النجاح نسبي.. بالضبط كما أن الإخفاق نسبي ..

ذكرتني دمشق (بالقارئ الآخر) الذي لم أتمكن من كسبه، وبالقارئ الكامن الذي لم يقرأ بعد..

ذكرتني دمشق بحقيقة أن أتمسك بالصواب.. بالحق الذي أعتقده..

ولو كنت وحدي ...

***

... وذكرتني أيضاً بحقيقة أن الصواب يستلزم الالتحام بالآخر، حتى لو رفض هذا الآخر أن يسمع، وأن يقرأ، أو أنه سمع وقرأ وصفر ورجم..

ذكرتني دمشق أن التحليق لا يجب أن يكون نحو الأبراج العاجية، بقدر ما يجب أن يكون غوصاً في العمق، وتنقيباً في العمق.

ذكرتني أن أتجه نحو الناس الحقيقيين، في قاع المدينة، آخذ من أفواههم ما لم يقولوه، ومن رؤوسهم ما لم يفكروا فيه.. وأنسج من ذلك كله سفينة وبوصلة وطوق نجاة.

ذكرتني دمشق أن بضاعتي الحقيقية آخذها من هناك؛ من أولئك الناس الحقيقيين وأوجاعهم وأمراضهم ومخاوفهم ومشاكلهم..

وأرد تلك البضاعة إليهم، قد يرفضونها، قد لا يتقبلونها، لكن المهم أن يكون مصدرها الأصلي نابعاً منهم.

***

وضعتني دمشق أمام حقيقة أن ( البوصلة ..) لا يمكن أن يكون مجرد كتاب كتبته وانتهيت؛ إنما هو مشروع يجب أن أواصله، يجب أن أساهم، مع غيري، في وضع الخرائط، (بعد البوصلة نحتاج إلى خريطة... كما قالت لي إحدى السيدات في حلقة السيدة هدايت...).

وبعد الخرائط نحتاج إلى الأساسات، وبعد الأساسات هناك البناء..

وكل ذلك يبدأ من بوصلة ومؤشرها يتجه نحو تلك الجهة أو تلك.

.. وعلي أن أستمر.

تضعني دمشق أمام هذه الحقيقة: أبداً ليس مجرد (كتاب)، كتبته، وانتهيت ..

***

تسحب دمشق كرسياً وتجلس بغداد عليه، تضعني أمامها، وتضعها أمامي، تقول لي ما أدركه مسبقاً، تقول لي لا مفر من بغداد، تقول لي إياك أن تنسى، بل تقول لي أني لن أنسى حتى لو حاولت، وأني سأظل أحمل بغداد - بكل تاريخها وبكل جموحها وبكل مجدها وبكل سقوطها وبكل آلامها وبكل عنفوانها وبكل كبريائها..، سأظل أحملها كوشم يسكن شراييني، لا سبيل لإزالته إلا بإيقاف هذا الشريان أو قطعه..

قالت لي دمشق، أن بغداد ستكون معي أينما حللت، شرقت أو غربت..كل ما يمكن أن أصادفه من أضواء، لن يكون سوى ضوء عابر مقارنة ببغداد..

قالت لي دمشق أني سأسير في نفس الشوارع البغدادية إلى الأبد.. لا سفن هنا ستأخذني عنها، لا طائرات هناك ستقلعني منها..

قالت لي دمشق، بلهجة شامية أصيلة: بغداد، أوف بغداد..

***

ثم إنها سحبت كراسيّ أخرى، وأجلست عليها عواصم وحواضر عربية أخرى، القاهرة، بيروت، الجزائر، الرياض، أبو ظبي، الرباط..

قالت لي ألا أحمل هم التأشيرة إلى تلك المدن، حتى لو بدا ذلك صعباً....

فتأشيرتي الحقيقية هي تأشيرة حروفي.. وتلك، ليس بإمكان أي موظف أن يمنعها..

***

تضعني دمشق بمواجهة طفل صغير، لا يكاد يبلغ من العمر عاماً ونصف العام.

وضعه والده[4] أمامي، ليعرفني عليه، قائلاً: أقدم لك يونس.. أطلقنا عليه هذا الاسم بعد أن قرأنا عن سيدنا يونس في البوصلة .

أمام هذا الطفل تضعني دمشق، وتتركني في مواجهة مسؤوليتي تجاهه، تتركني أمام مستقبله. وأمام الحوت وقد استعد أن يلتقمه، ويلتقم أقرانه... (..بعضهم أولادي، بعضهم أولادكم).

قالت لي دمشق، أن الأمر لا يمكن أن يقف عند مجرد التسمية، هناك ما هو الأهم؛ هناك ما هو أخطر؛ هناك ( الخروج من بطن الحوت ). وعلي أن أساهم في أن أحمي هذا الطفل من بطن الحوت المتربص به (..بنا). وإذا ما التقمه، فعلي أن أساعده في الخروج، علي أن أساهم، ومعي غيري، في تكوين عقل هذا الطفل، في إعطائه اللقاحات اللازمة.. في جعله محصناً.. ومن ثم جعله فاعلاً ...

علي أن أجعل هذا الطفل يتحمل مسؤولية تغيير العالم.. علي أن أجعل هذه المهمة الكبيرة في وسع رأسه الصغير..

أمام هذا الطفل، ورأسه الجميل، وضعتني دمشق .

يوم وضعه والده أمامي، ابتسم وجهي ولكن في داخلي بكيت كطفل مذعور.. كان ذلك كثيراً جداً علي ..

لكن الآن، ودمشق تضعني أمام هذا الطفل، وجدت الطفل في داخلي يتماسك، وجدت نفسي أتمالك نفسي، كانت أمانة ثقيلة جداً لكن رفضها كان مستحيلاً..

لا بد لهذا الطفل من أن ينجو، من أن يخرج من بطن الحوت؛ لأنه إذا فعل فإنه سيخرج بنا جميعاً، بتاريخنا كله، من بطن الحوت الذي التقمنا منذ قرون ..

***

وتركت لي دمشق غصن ياسمين.. قالت لي إنه جواز مرور أفكاري إلى الآخرين. قالت لي أن أضعه في حروفي كما تضعه هي في كل مكان. قالت لي أن ذلك سيسهل مرور ما أقول، نحو العقول، قد يسلكها أولاً من طريق القلب والمشاعر، لكن مستقرها الأخير هو في الرؤوس.

كنت قد عرفت ذلك مبكراً!. وعملت عليه، وها هي ذي دمشق توصيني به ليل الوداع. وتتركني والياسمين يملأ أحرفي بعدما ملأ كل جيوبي الأنفية!.

***

دمشق، تتسلل من بين أصابعي، ومعها يتسلل الضوء والياسمين..

أسند رأسي على زجاج النافذة، كل ذلك سيكون كأنه لم يكن، كل ذلك سينتهي كما تنساب حبات رمل ناعمة من غربال مهترئ..

ألصق وجهي مجدداً بزجاج النافذة.. أراقب الضوء وهو يودعني. ساعات وأعود إلى جحري حيث الظلام والعنف والاحتلال والقتل على الهوية.

أفتح عيني على اتساعهما.. ثم أقرر أن الأمر قد يكون أسهل لو أني أغمضتهما. أغمضهما على اتساعهما أيضاً، لا يتغير شيء؛ أظل أرى دمشق وأنا مغمض العينين.

أتمنى لو أن ذلك كله ينتهي بسرعة. أتمنى أن أنام وأستيقظ لأجد أننا على الحدود أو قربها بعيداً عن دمشق وعن كل شيء فيها. لا يحدث ذلك طبعاً، ولكن يحدث شيء آخر، أقرر أن أداوي الفراق بالكتابة، أبدأ بالتخطيط للكتابة في رأسي ريثما أصل إلى أوراقي في بغداد...

***

حكايتنا مع الحدود غريبة ومضحكة ومبكية أيضاً؛ في الأمس رسمها الفرنسيون والبريطانيون، بذلنا نحن كل ما في وسعنا من أجل تكريسها، واليوم يغلقها الأمريكيون على مزاجهم.

أما نحن ففي (المنزلة بين المنزلتين): خارج سورية، لكن ليس في العراق. وبينما ننتظر أن يفتح المحتلون الباب إلى بلادنا، تحدث معجزة صغيرة؛ يرن هاتفي النقال برنته المميزة (موطني)، لا تغطية للشبكة هناك، لكنه رن (موطني) ونحن على حدود الوطن.

من المتصل؟ نفس الصوت الذي رفرف علينا كالحمامة أول يوم وصلنا؛ إنها السيدة حنان اللحام تودعنا بحنان حتى اللحظة الأخيرة.

تركت باتصالها عبق الياسمين في نفوسنا، وامتزج ذلك مع رنة (موطني)، ونحن على أبواب وطن هو كالقدر: لا فرار منه..

***

مشهد لا ينسى، إلا إذا كنت تحترف النسيان لكي لا تنغص حياتك.

على الحدود تستقبلنا لافتة مكتوبة بخط شديد الركاكة..

(العراق يرحب بكم) تقول اللافتة..

وكانت موضوعة على مدرعة أمريكية.

***

بغداد. أخيراً، بغداد..

تستقبلنا بغداد بطريقتها، كما لو أنها تعاقبنا على خيانتنا لها وحبنا لدمشق. أول دخولنا فوجئنا بقرار جديد - بدأ تنفيذه للتو- يضع جدولاً متناوباً لسير السيارت في الشارع؛ بناء على كون رقم السيارة زوجياً أو فردياً، وكانت السيارة التي تقلنا مخالفة، ومعرضة للتوقيف، وربما للمصادرة بمن فيها من بشر!

كان ذلك جزءاً من المضحك المبكي لدراما الحياة اليومية في بغداد..

.. وعندما أشرفنا على الوصول إلى البيت، وجدنا كل الشوارع الفرعية المؤدية له قد أغلقت،لم يكن ذلك نادراً جداً، لكن هذه المرة كان السبب مختلفاً؛ شاب (آخر) من شباب الحي قد

قتل قبل يومين، ولسبب ما ساد تصور أن القتيل قتل بالخطأ وأن المقصود هو شاب (آخر)!، ولذلك فقد أغلق أهل هذا الذي ينتظر حتفه الحي كله لكي يكون ابنهم بمأمن..

ستكون الأسئلة عن طائفة القتيل (بالخطأ) والشاب المقصود وعملهما وطريقة القتل لا معنى لها هنا؛ فالكل ضحية والكل مظلوم في دوامة العنف التي جُررنا إليها..

وعندما نصل إلى البيت، ونحط برحالنا فيه، نجد معجزتين لا واحدة في انتظارنا: الماء والكهرباء!. كأنما بغداد تطيب خواطرنا وتعفو عن خيانتنا لها، لكن ذلك لن يدوم سوى سويعات معدودة بالطبع..

بغداد، أوف بغداد..

***

اليوم التالي.

على باب المركز التخصصي حيث عملي الصباحي أجد مريضتي تتربص بي، دخلت في الموضوع مباشرة موضحة أنها لاتريد موعداً لأنها على سفر وتريد مني أن أعالج لها ضرسها "الآن الآن وليس غداً..".

أحاول أن أوضح لها أني لا أزال مجازاً وأن لي في إجازتي خمسة أيام باقية، وأني جئت فقط لألقي التحية، لكن ذلك كله لم يكن له معنى بالنسبة إليها..

استسلمت، لا يمكن مناقشة الألم. اتجهت إلى غرفتي.. كنت أتمنى مرحلة انتقالية بين الكاتب وطبيب الأسنان، وأنا أرتدي ردائي وقناعي الطبي الأبيض، فكرت أنه ربما لا توجد هوة كبيرة بين الاثنين.

تذكرت ما قاله غياث عن طبيعة عملي في طب الأسنان، والنوع الذي أمارسه من الكتابة..

" كله، في النهاية، حفر ...!! ".

بدأت 8/9/2005

انتهت 21/9/2005

أعيد النظر فيها

1/2010/ 16-18

# "بوصلة" لكسر القضبان

**طائر الضفة***

بدأت معرفتنا بالحبيب أحمد، منذ سبعة أعوام... مع البوصلة ابتدأت منذ صدرت... كانت البداية مع مفكرنا الذي لا تعرفونه؛ كان مفكرنا يخوض غمار الجهاد، تطارده قوات شارون الخاصة، أصعب ما تكون المطاردة، وهي مطاردة ابتدأت منذ خروجه من السجن الصهيوني 1996م، ثم سجون السلطة الفلسطينية 2001م، ولكنه اهتدى للبوصلة مطلع صدورها، تلقفها وقدمها لحوارييه من حوله، كان هذا الحول؛ بيوتات صغيرة تحت الأرض، يلجأ إليها قلّة من أبناء "دار الأرقم" في جنين، إخوة عمار وبلال وصهيب، وقد شهروا مع سيف الفكر والعلم سيفاً آخر، كان له مع الأعداء ما كان من صولات وجولات، لهذا قتلوه، نعم قتلوه، بعد شهور قليلة من اقتناص البوصلة، واحتضانها، وتوزيع بعض نسخها.

أدرك شهيدنا المفكر نعمان طحاينة (أبو الحسين)، خصوصية البوصلة، وفكرها الوهّاج، اختارها من بين آلاف الكتب التي كانت تصله بلا انقطاع ضمن عملية أمنية معقدة، حيث كان مضطراً للحذر، حتى لا يصل أعداؤه إليه عبر مسارها....... اختار البوصلة مدركاً تميزها، والتهمها بصفحاتها الست مئة، وكذا فعل إخوانه، على الرغم من أزيز الرصاص ودوي الصواريخ المتجدد صباح مساء، درسوا البوصلة بعمق، وهم يستشعرون أن كل حرف من حروفها منسجم تماماً مع وهج المعركة المشتعلة.

قد يستغرب القارئ الكريم العلاقة بين ما تناولته البوصلة، عن (اقرأ) والنهضة ولحظة معاوية والأمس المستمر، وبين الجهاد الفلسطيني ضد المحتل الصهيوني، ربما يبدو الأمران للوهلة الأولى متباعدين! مفكرنا أبو الحسين النعمان، جعلهما أمراً واحداً، وهما بالأصالة كذلك، ففلسطين عين من حروف اقرأ، والجهاد منهج نفسيّ وعملي أثمرته حروف اقرأ، والنهضة مبدؤها مركز الصراع هنا؛ بيت المقدس وأكنافها...

ابتدأت العلاقة، وقد كنا مطاردين تترصدنا طائرات العدو لتفتك بنا، استشهد منا من استشهد، وأسر منا من أسر، ودار بنا ترحال السجون، لنجد البوصلة أمامنا وحوالينا، ونجد

معها ظل النعمان حاضراً على الدوام، نسخة من نسخ أبي الحسين، كانت قد تجاوزت أمن السجان، واستقرّت في أحد أقسام سجن مجدو المتناثرة والمتقطعة الأوصال، فرحة غامرة بهذا السفر القرآني الرائع، وأين: خلف قضبان اليهوديّ الحاقد!

تجددت العلاقة، وبدأ عدد من الأسرى يتلذذون في قضم البوصلة، حتى إن بعضهم قرأها عدة مرات، أحدهم قرأها خلال ثلاثة أيام، بصفحاتها الـ(600)، قراءة تدقيق وتتبع لمستوى التوثيق، وبدأت البوصلة طريقها في منهج التدريس عند بعض الأسرى، كانت أول محاضرة في ذلك للأخ أبي مؤمن، وتصاعدت إلى سلسلة محاضرات تحت عنوان (مقاصد الخطاب القرآني)، كما خطب أحد الخطباء خطبة كاملة استوحاها من البوصلة، خطب بها جمهور الأسرى المصلين في قسم 10 من سجن مجدو، وبدأت سمعة البوصلة تنتشر بين فئة المثقفين من الأسرى على عموم مواقع الأسر المختلفة، وكان أعرقها وأكبرها سجن النقب الصحراوي، والذي يضم قرابة ألفي أسير فلسطيني.

في هذه الأجواء، ولخصوصية سجن النقب، حيث تتوافر فيه بعض أجهزة الاتصال المهربة عن عين السجان، تم الاتصال الأول بمفكرنا الحبيب والمبدع أحمد العمري، لم يكن الاتصال مباشراً، إنما عبر طالب جامعيّ مجد ومثابر، بث له عبر الاتصال الإلكتروني أشواقنا وتفاعلنا مع أفكاره.

لم يتجاوز طموحنا بهذا الاتصال أن يرد علينا ببضع كلمات جميلة، لكن المفاجأة كانت حينما بادلنا المحبة والشوق والإعجاب بما هو أعظم وأكبر!!! رأيناه صورة طبق الأصل عما سطّر قلمه، ووجدناه مع مؤشر بوصلته يسير، وعندما أكد لنا أنه ما كتب في البوصلة حرفاً إلا وكانت فلسطين قبلته ومبتغاه، عندها أدركنا سرّ العناية الخاصة للنعمان أبي الحسين بهذه البوصلة، كان قد اكتشف عمق القضية ودقة التصويب!

وعندما استشرناه بتلخيص بوصلته إلى النصف في طبعة جديدة تراعي البعد التعليمي خلف الأسلاك الشائكة، رد علينا رد العراقيّ الذي يفيض كرماً ورقةً وحناناً.

وعندما كلف نفسه عناء تزويدنا بكل كتبه، عبر طرد خاص طار لنا عبر الآفاق البعيدة، ليحط في جنين الملحمة والفداء، ومنها للنقب الصحراوي، عندها وجدنا مذاقاً يعادل طعم الحرية التي نحلم بها صباح مساء، إي والله وجدنا ذلك غير مبالغين. وقد تعرّفنا شخصيته ومنهجه وأسلوبه بشكل أدق حينما قرأنا مجموعته كاملة، بعناوينها اللافتة ومادتها القيمة، وبدأنا من لحظتها نستحث أصحاب المكتبات في فلسطين لنشر أعماله، ولكن مما يؤسف له أن جهدنا لم

يؤت ثماره حتى الآن، ذلك أن حركة المكتبات في فلسطين، حركة يتيمة لا تتنبه للجديد المبدع إلا بعد عقد أو عقدين، وهي أيضاً ما زالت حتى الآن موجهة ضمن منحيين لا ثالث لهما: فهي إما سلفية محضة بكل المدلولات الحرفية لهذا التعبير، وإما يسارية محضة بكل زيغها وبعدها عن رسالة الأمة.

لهذا لم نفاجأ حينما علمنا بقرار دار الفكر تكريمه، هو يستحق من أمته أكثر من ذلك، وهي رسالة نطير بها وتطير بنا من خلف الجدران الإسمنتية الشاهقة في (أبيار) سجن النقب الصحراوي، غير البعيد عن مصر التي تحاصر غزة بالفولاذ، نقول للأمة، لمفكريها ومثقفيها ودور النشر فيها، وقبلهم لقرّائها الأعزاء: لن تجدوا إبداعاً فكرياً وأدبياً ودعوياً ملتزماً في السنوات الأخيرة،هذه، يمكن أن يضاهي إبداع العمري، هذا الإبداع -بهدي من الله وتوفيقه- قد أحاط بجملة أمور أساسية، لا بد منها لكل فكر تغييري نهضوي:

**حقيقة القرآن ورسالته ومقاصده**

وقد تجلى هذا الجانب الهام أكثر ما تجلى في البوصلة، حتى لتحسب وأنت تقرأ ذلك، أنك لست أمام مفكر مبدع فقط، بل أمام عالم متخصص بعلوم القرآن كافة، قد أحاط بكل أبعاده وسبر كل أغواره، مع إشراقة تجديدية خاصة، فما أروعه وهو يبعث فينا ثقافة السؤال: «إنها لحظة خاصة جداً. وحميمة جداً... منذ أول ذكر وأول أنثى... وإلى آخر ذكر وآخر أنثى... خاصة جداً وحميمة جداً.. وضيقة جداً هي الزاوية التي اختارها الخطاب القرآني. لا مفر من أن تجيب.. {أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ *} [الواقعة: 56/59] ».

حتى المعاند الملحد، لا يمكن له ادعاء خلقه. قد يقول: الطبيعة الأم، أو الصدفة الذكية.. إلخ. لكنه في إطار الجو النفسي الذي وضعه فيه الخطاب القرآني لا يمكن إلا أن يشك في جوابه؛ أن يقف لحظة ويطأطئ رأسه، ليعيد النظر، ويسأل.

من تلك اللحظة الحميمة ينطلق الخطاب القرآني ليطلق (حمم) التساؤلات..

{أَفَرَأَيْتُمْ ما تَحْرُثُونَ * أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ} [الواقعة: 56/63-64] .

{أَفَرَأَيْتُمُ الْماءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ} [الواقعة: 56/68-69] .

{أَفَرَأَيْتُمُ النَّار الَّتِي تُورُونَ * أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَها أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ} [الواقعة: 56/71-72] .

بعد اللحظة الفردية الخاصة، ينطلق الخطاب القرآني وقد وضع المخاطب في وضع نفسي وعقلي مهيأ لاستقبال تساؤلات أكثر، وإعادة للنظر أكثر..

**تحديد رسالة (السُّنَّة) وإطارها**

لذا تجده صريحاً بنقد من قال بعرض القرآن على السُّنّة: «الفهم المقاصدي يعرض السنة على القرآن ولا يتحرج من القول كما قال عمر: لا ندع كتاب الله لحديث امرأة لعلها أخطأت أو نسيت. والفهم التقليدي يعرض القرآن على السنة ولا يتحرج من القول: "الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب"، و"السُّنة قاضية على الكتاب"... والبعد بين الفهمين شاسع كما نرى. والفرق كبير».

**فقه النص التاريخي (روايات حديثية أو إخبارية) وسطوته، وديمومته**

لذا نجده يتناول قضايا حساسة وبالغة الدقة، تعامل معها أهل العلم من "السلف" بكل سطحية، مثلاً نجده يتصدى للتعامل مع حديث يتم تداوله بشكل روتيني بين المسلمين، فيقرؤه العمري في سياقه التاريخي، وقد ألم بكل مفرداته العامة، ليضع علوماً كثيرة على المحك، حيث يقول: «حتى لو صح الحديث، وهو صحيح فعلاً حسب القواعد الحديثية، فإن المسألة هي توظيفه من قبل السلطة الأموية بشكل واضح من أجل مسألة معينة ولا بد، المسألة هي اجتزاؤه من سياق محدد وتضخيمه وتكبير مساحته ليصير بمثابة فرمان وأمر رسمي على الناس إطاعته، ويتحول إلى مثابة بيان صادر من أعلى سلطة في الدولة تعيده وتؤكده بل وتكاد تهدد به. كل هذا مجرد توظيف لدعاء صحيح الثبوت عن النبي لكنه بالتأكيد لم يستخدم بهذه الكثرة وهذا الشكل لا في حياة النبي ولا في عصر الخلافة الراشدة.

لا نقول ذلك تهرباً من اتهام فلان أو علان ممن عاصروا الرسول صلى الله عليه وسلم بالكذب، المسألة حقيقة أعمق من ذلك، وإصدار الأحكام على أشخاص صاروا في ذمة الله يجب أن يكون آخر اهتماماتنا.

الحديث رغم كونه حديث آحاد ولم يرد بهذه الصيغة إلا عن المغيرة، إلا أنه صحيح وصياغته اللغوية البليغة تبعد عنه احتماليات الوضع. إنه في أسوأ الاحتمالات (توليفة) من مجموعة أدعية وآيات، وهو أمر مقبول ولا يمكن أن يعد كذباً. لكن الأكيد والثابت من السياقات المختلفة وجود آلية توظيف وتضخيم (سياسية) على الأغلب لحديث آحاد تحول عبر هذا التوظيف إلى فرمان وبيان رسمي». وكان قد قدم لذاك بقوله:«كيف يمكن للحظة تاريخية واحدة أو فترة تاريخية معينة - إن شئنا القول - أن تستمر وتهيمن على مراحل تاريخية بل عصور

تاريخية لاحقة؟ يحدث ذلك ببساطة ودونما تعقيدات عندما لا تعارضها لحظات أخرى تلغي تأثيراتها وتنفيها عن الوجود. لا يمكن تصور حدث تاريخي معين لم تعارضه وتحاربه عوامل سواء من داخل بيئته وواقعه أو من خارجها...

لكن المهم في المسألة هو هل ستستطيع هذه العوامل أن تلغي من تأثير تلك اللحظة؟ أن تعكسها وتنفي سلبياتها [أو إيجابياتها] بمستجدات جديدة مختلفة عن تلك التي حاربتها وألغتها؟ المهم في المسألة هو اللحظة التي ستنتصر، فالرابح في النهاية يأخذ كل شيء حتى التاريخ».

**فهم الواقع وتطوراته**

فهو عندما يتناول الموضوع الفلسطيني نجده يقول: «وسقوطنا الحالي هو الناتج النهائي لمجموعة أسباب تعود لنا، تخصنا بالدرجة الأولى، أما المؤامرة اليهودية فتعود بالدرجة الأولى إلى (استثمار) هذا التخلف واستغلاله...»، «وهذا كله يجعل - وعلى نحو مدهش - القضية الفلسطينية هي القضية الأكثر مركزية بالنسبة إلى الفكر الإسلامي المعاصر، لا بسبب قداسة الأراضي الفلسطينية ومسرى النبي عليه الصلاة والسلام ومعراجه، أو بسبب وجود اللاجئين والاضطهاد الذي يواجهه السكان العرب والمسلمون؛ وإنما لأن هذه القضية تلخص وبشكل موجز ومكثف مشكلتنا الحقيقية: تخلفنا بمواجهة تقدمهم. رغم الشعارات والأناشيد، ورغم كل المشاعر الحماسية "التي لا بد من الاعتراف بأهميتها في الإبقاء على ديمومة الرفض بمواجهة التطبيع"، ورغم العمليات الفدائية التي قد يكون من ضمن فوائدها ترسيخ هذا الرفض وإبقاؤه حياً في الذاكرة، رغم كل ما سبق وأهميته علينا أن نعترف أن الطريق الحقيقي إلى القدس يمر بأنفسنا، بنخاعنا، يمر عبر تاريخنا كله وقصتنا الطويلة مع التدهور والانحطاط. ببساطة لن تكون المسألة أن نتفق على كلمة ونجمع السلاح ونتدرب عليه ونذهب لنحارب كما يحاولون أن يصوروا لنا المسألة».

**تجاوز الضغوطات المذهبية**

فهو ابن التوحيد بصورته الإسلامية الإنسانية، المنطلقة من أسس علمية محضة، فكيف يخضع لحسابات ضيقة حبست أنفاسها تحت ركام التاريخ؟! لهذا نجده يقول بكل صراحة: «نقطتان تحتاجان إلى توضيح قبل الخوض في لحظة معاوية:

الأولى: أن الحساسية من الخوض في هذا الموضوع لا معنى لها، وهي ناتجة بشكل ما عن تاريخ طويل من السب والتعريض واللعن المتبادل عبر العصور، من النزاع المستمر الذي

صار بالتدريج جزءاً من الدين نفسه. هل يمكن أن نتناسى المسبة والانتقاص ولو قليلاً ونبحث الموضوع بشكل علمي؟

الثانية: أن الإقرار ببعض حقائق لحظة معاوية ومحاولة إخفائها، و/ أو التجاوز عنها بسبب أن التيار الآخر المناوئ (الشيعي) سيستفيد من هذه الحقائق أو سيروج لها، الإقرار والإخفاء هما أبعد ما يكون عن مبادئ الخطاب القرآني الذي يطالبنا دوماً بالبحث عن الحقيقة بغض النظر عن كونها جارحة». ويقول في موضع آخر: «فلننس الشيعة، فلنفترض أنهم في مرحلة من مراحل الصراع انقرضوا واختفوا تماماً. ألن يكون وقتها موقفنا من لحظة معاوية مختلفاً؟ أكثر حياداً ونزاهة دونما خوف أن يستغل موقفنا لصالح هذه الفرقة أو تلك؟ فلننس هاجس الآخر المسيطر علينا؛ لعل ذلك يكون بداية لفهم نشوء الأنا ونشوء الآخر. وكل العلاجات تبدأ بالتشخيص». ومع أن العمري قد عدّل في نسخة البوصلة (المزيدة والمنقحة)، بما يوحي أنه تعاطى مع الواقع المذهبي، لكن عند التدقيق يتبين أنه قد راعى ذلك شكلياً فقط، وقد عاتبناه حتى على هذا التراجع ولو كان شكلياً، لأننا نراه أقوى حتى من التعامل مع البعد الشكلي الخاضع للمصلحة المذهبية.

**التجرد من الموروث البشري، على أهميته، وحسن التعامل معه**

فهو مثلاً يواجه المؤسسة التقليدية، جهاراً نهاراً: «وكما فعلت المؤسسة الدينية التقليدية مع موضوعة التساؤل التي رأينا كيف حولتها المؤسسة من عنصر شديد الأهمية والعراقة في الديانة الحنيفية إلى بدعة يستحق صاحبها النار الأبدية، فإنها فعلت الشيء ذاته تقريباً مع السببية والبحث عن الأسباب. ومع أن وعاظ المنابر يثرثرون عادة عن أن الإسلام حث على البحث عن الأسباب، ويستدلون بذلك على الحركة العلمية في العصور الإسلامية الزاهرة، إلا أن هذه الثرثرة ليست سوى من قبيل ذر الرماد في العيون والتبجيل والثناء الفارغين، في مواجهة (الآخر) الغربي المتمسك بالأسباب.. إلا أن الحقيقة التي يتخفى خلفها هؤلاء الوعاظ هي أن المؤسسة الدينية التقليدية التي ينتسبون إليها لا تحارب فقط بل تنكر الأسباب بوجهيها العقائدي والفقهي..». «أما نظرية الشاطبي فقد كانت تبني قواعد جديدة، تؤصل فهمها للتشريع ضمن إطار جديد؛ إطار مقاصد الشريعة واستقرائها عبر ماهو قطعي الدلالة.

نعم حصل ذلك، لقد اجتهد هؤلاء وأبدعوا وقدموا فكراً مغايراً للفقه السائد في زمانهم، ولكن لم تحدث الشرارة، ولم يحصل التفاعل، وظل ذلك الفكر المغاير مجرد تعبير على أوراق مخطوطة».

**القداسة للنص القرآني دون الأشخاص**

فأنت تجده يعرض الشخص على النص، وليس العكس كما دأب أهل التقليد، فهو مثلاً يتناول بعض من عاصر النبي صلى الله عليه وسلم ، مع تأكيده سلفاً على عدم التعرض للأشخاص كأشخاص، كما أنه يتناول حال عدد من العلماء المشهورين، يقول: «فابن تيمية كمثال لا يمكن على الإطلاق اعتباره مأجوراً لأي سلطة أو واعظاً لأي سلطان، بل إنه كان في أغلب الأحيان متمرداً على أوضاع مكرسة وساندة للسلطة، لكننا نراه في فتواه يكرس الطاعة للسلطان مهما جار ومهما ظلم، حاله حال المأجورين والوعاظ، وإن اختلفت منطلقاته في الفتيا. فلو دققنا أكثر في منطوقه الذي صدر عنه فهو في دعواه لطاعة السلطان ينطلق من مبدأ دفع المفسدة المتأتية من الخروج عنه [سفك الدماء وهدرها وهتك الأعراض... إلخ] أي إنه ينطلق من الأمر الواقع المفروض بالقوة وبالسيف أكثر مما ينطلق من نصوص دينية مقدسة يجري توظيفها خارج السياق لخدمة السلطان، وهو أمر يمكن فهمه وتفهمه ضمن ظروف عصر ابن تيمية وملابساته. أكثر من هذا علينا أن ننتبه إلى أن القرون الخمسة أو الستة التي تفصل ابن تيمية عن النصوص وعن العصر الذي جرت فيه لحظة معاوية بكل ملابساتها كانت كفيلة بتحويل الكثير من النصوص والتوظيفات والمفاهيم إلى مكرسات لا يمكن تجاوزها من قبل أي فقيه مسلم، حتى لو كان ابن تيمية، لقد كانوا يفكرون جميعاً ضمن نفس المنظومة العقائدية الفقهية التي جعلت، ولأسباب مختلفة ومعقدة، من طاعة الإمام، ولو كان ظالماً، جزءاً من العقيدة، من الإيمان إلا في حالة واحدة نادرة جداً إن لم تكن معدومة أصلاً؛ وهي إظهاره لكفر صريح ».

**براعة الأسلوب**

هنا تجد كل سطوره تفيض بالروعة، وتبعث على الإثارة، وتشدك للتواصل، مجرد استعراض لعناوين أعماله، يكشف لك عن روعة الأسلوب: فيزياء المعاني، ضوء في المجرة، كيمياء الصلاة، الفردوس المستعار.

لنقرأ ما بدأ به (كش ملك): «يا صديق...حياتنا ما هي إلا ملحمة شطرنج كبرى؛ شيقة وشاقة، نقضيها دون أن ندري، ونحن نحرك الجنود والخيول والقلاع ندافع عن ملكنا أو نضحي به..».

**عذوبة التعبير**

انظر ما كتب في (الذين لم يولدوا بعد): «والقرآن... لا تتعامل معه كالمرابي اليهودي، لا تقف منذ أول يوم في رمضان وتقول: جزء كل يوم، والختمة المعتادة نهاية الشهر. لو كان ذلك ينفع لنفع!..... انطلق بلا حدود أيها الفارس العتيق، واستغل أن الخيول تجهل قوانين المرور.... لا تدع النسر الرابض على كتفيك يتقاعد...لن يرهقك التحليق صعوداً، بل سيربحك، في كل مرة أكثر..».

**روحانية النفس - الصدق والشفافية - الاطلاع وشموليته**

حدث بلا حرج، فمدرسة العمري تنبض بكل ذلك وأكثر، إنه حقاً حفيد الفاروق عمر، من قرأ سيرة عمر بعمق علم أن أروع تجلياته ليس العدل أو الحزم أو الزهد، على أهمية ذلك، أروع ما كان في عمر، التجديد والإبداع، بهما بنى دولة الرشد، وهو ما نجده في هذا الحفيد، وهو يؤسس لنهضة فكرية عمادها الثورة على المألوف البارد الراكد الخاطئ، مثل برودة ليل النقب الصحراوي، وقد ألفته أجساد الأسرى المثخنة بالأنين والأشواق، ولكن الأرواح أبداً ما بردت ولا ركدت، لهذا عقابها حبس الأنفاس مع الأجساد، وهي تتجدد في عنفوانها مع كل سطر تخطه العقول العمرية المبدعة، على أمل العالمية الإسلامية الثانية، على خطا الحبيب محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، والصادقين من بعده؛ عمر وعلي وأبي بكر وعمار وحمزة والحسين، حتى آخر الركب في مرضاة الله العزيز الرحيم.

مع كل صفحة نطويها من دراساتك كنا نتساءل: لأي الدروب ستقودنا بوصلتك.. وأي الشواطئ ستراها أجسادنا وقد خضت بنا بحار الفكر وأزمة التساؤل وهدير أمواج من الأحداث تتراكم ظلمات بعضها فوق بعض؟.

أين نمضي.. مذاق السؤال المر نتجرعه من كل فكرة.. مع كل نبضة صدق ومساءلة للوعي وتمزيق لعباءة الجهل المخاطة بفتاوى تحت السيف أو تحت الإغراء.. وآه ما أشد تأثيرهما.. الجبروت أو البريق.. وأنت تقف كمنارة وسط سحابتين؛ أتلوذ بالصمت، أتلتحف السلامة، أم ستكون الشاهد الذي لا يزوّر وتدفع كلك قرباناً للحقيقة؟!.

لن نحتاج إلى شيء من العناد حتى نجد الإجابة، فكل حرف من حروفك قنبلة، وكل فكرة تؤسس لمفاعل فكري سيطرد كل خبث توارثناه، أو علق بذاكرتنا بفعل تضليل السنين والفتاوى المدفوعة الأجر والعديمة الضمير..

ها أنت ذا تقف اليوم لتنال الحقيقة معك جزءاً من أصالتها، حيث تكريمك يعني انحيازاً للصدق وانتصاراً للوعي ومحاربة للزيف والتضليل والاستحمار.. تكريمك اليوم يعني إزالة

أطنان من غبار الفكر الذي حملته ريح الخلافات وسطوة المال وسذاجة البسطاء وبساطة الطيبين، وقد تراكم فوق العقول والنصوص فبان الغبار واختفى كل شيء..

منذ إطلالتك الفكرية بدوت في عتمة اليأس بدراً من رجاء، وفتحت في جدار الجهل نافذة تطل على الوعي.. تطل على الصدق.. تطل على الحياة.. فلا غرابة إذن أن يصبح هذا المفكر الذي بدأ مغرداً خارج السرب، المهندس الذي يشق للعقول طريقها نحو احترام ذاتها، ونحو أعمالها بما ينسجم مع روحية هذا الدين، ومنطق الصواب وسلامة هذا الدرب..

ندرك أنك وإن بدأت غريباً، وإن كنت كمن يصرخ بأمة غير ذات عقل ووعي، فأنت الآن سلمت الأمانة بوصلة تهدي الحيارى ومنارة تنير الدرب، وصراطاً سوياً لا يحيد عنها إلا من كان في نفسه شيء..

أما نحن الأسرى، محررين وغير محررين، فسعادتنا في تكريمك كبيرة لأننا بذلك نكرم أنفسنا وننتصر لأهم ما ميزنا الله به عن غيرنا من المخلوقات.. إنه العقل.. سر الهداية ومناط التكليف.. هويتنا التي تدل على أننا لسنا أنعاماً..

# حوار خارج التصنيف مع كاتب خارج التصنيف

**الدكتور أحمد خيري العمري**

**مواجهات عكس التيار على هامش التكريم**

**حاورته: سهير علي أومري**

البوصلة القرآنية... كيمياء الصلاة... الفردوس المستعار والفردوس المستعاد... ليلة سقوط بغداد.... ضوء في المجرة... أبي اسمه إبراهيم... ألواح ودسر... وغيرها.... عناوين ضخمة لفكر جديد يسافر بنا نحو شواطئ لم ترسُ عندها من قبل مراكبنا... يمنحنا تلسكوباً يصحح لنا نظرتنا للماضي، وبوصلة تصحح توجهنا للمستقبل، وعصاً نتكئ عليها؛ لنقف من جديد على أرض واقع جديد أكثر صلابة وأكثر متانة لنعرف أين نضع أقدامنا لننطلق إلى نهضة نرتقبها ونحلم بها... نهضةٍ القرآنُ أساسُها والصلاة عمودها... نهضة حقيقية أرادها الله تعالى لنا... عجزنا قروناً عن تحقيقها بفعل عوامل فكرية عديدة نشأنا عليها وتأصلت فينا وحالت بيننا وبين نهضتنا، وكان لزاماً علينا إن أردنا النهوض أن نتبينها ونستأصلها ونفك قيودها لنمضي إلى حيث كانت أمتنا في فترة مضت وإلى حيث يجب أن تكون اليوم وغداً.... من هنا تأتي أهمية هذه العناوين كما تأتي أهمية نتاج صاحبها على اختلاف أنواعه... إنه المفكر الإسلامي: الدكتور أحمد خيري العمري الذي اختارته دار الفكر ليكون الكاتب الذي تكرمه لعام 2010م.

**الدكتور أحمد خيري العمري:**

كاتب ومفكر إسلامي من مواليد بغداد عام (1970)، من أسرة موصلية عمرية، يرجع نسبها إلى الصحابي الجليل: عمر بن الخطاب رضي الله عنه . درس طب الأسنان في جامعة بغداد وتخرج فيها عام (1993)، كان والده قاضياً ومؤرخاً معروفاً وهو (خيري العمري)، بعد سقوط بغداد انتقل مع أسرته ليعيش في دمشق نحو سنتين ثم ترك عائلته فيها، وسافر إلى واشنطن ليعمل في الملحقية الثقافية لسفارة دولة الإمارات العربية المتحدة.

أول مؤلفاته كان البوصلة القرآنية الذي صدر عام 2003م، وخلال ست سنوات قدم للبشرية ما يزيد على 16 مؤلفاً مطبوعاً كلها - عدا واحداً - كانت من منشورات دار الفكر في

سورية - دمشق، وله أيضاً العديد من المقالات التي نشرت في: صحيفتي العرب القطرية، والقدس العربي، وموقعه الإلكتروني الشخصي يستقطب العديد من القراء....

تلازم اسمه مع شعار رفعه عنواناً لموقعه، وقضيةً كبرى تدور في فلكها جميع مؤلفاته، وهذا الشعار هو: " القرآن من أجل النهضة ".

لقيت مؤلفاته ومقالاته رواجاً كبيراً، وأقبل عليها قراء كُثُر، وفي الوقت نفسه دارت حوله انتقادات عديدة، ووُجِّهت إليه اتهامات كثيرة تناولت فكره ومنهجه وأسلوبه....

مع الصفحات التالية نرصد أبعاداً خفية من شخصية الدكتور أحمد خيري العمري، ونسبر أغواراً عميقة في فكره وأسلوبه، ونتبين حقيقة نظرته للماضي والحاضر والمستقبل، متجاوزين خطوطاً حمراء وأسلاكاً شائكة في توجيه كل ما دار حوله من انتقادات وآراء، مستعيرين أقلام المنتقدين وألسنتهم بهدف تبصُّر حقائق ومواقف من شأنها أن تكشف اللبس وتزيح عن الأبصار الحجب وتضع حركات الإعراب فوق نهايات الكلمات...

مع العمري نقدم لكم حواراً "خارج التصنيف" مع كاتب ومفكر يصلح أن يكون هو أيضاً "خارج التصنيف"....

1- من بين أعلام كبار كرمتهم دار الفكر على مدى سنوات ماضية كالبوطي والزحيلي والمسيري.... وغيرهم، يأتي اسمك هذا العام لتكون أول كاتب تكرمه دار الفكر وهو في أواخر الثلاثينيات من العمر، فهلا حدثتنا - لو سمحت - عن هذا التكريم مبيناً ما يعنيه بالنسبة إليك؟

لا أوهام لدي حول هذا التكريم... لست بحجم الأسماء التي كرمت من قبل، ولن أكون بحجمها لمجرد أني لحقتها بالتكريم... إنني أكرم في سياق تكريم الشباب، وهذا يضع النقاط فوق حروفها.. في الوقت نفسه، تكريم الأسماء التي ذكرت كان مجرد تحصيل حاصل ضمن حدث ثقافي نظمته دار الفكر، ولا أظن أن التكريم كان الأول لأي منهم، أي إن سجل إنجازاتهم كان فيه ما فيه بحيث أن التكريم كان مجرد (تكريم آخر)..

بالنسبة إلي، الأمر مختلف، ليس فقط لأنه تكريمي الرسمي الأول، بل لأنه يأتي كتشجيع ودعم وإسناد من قبل دار الفكر لي أو لنتاجي بالأحرى.. وهو أمر أتشرف به، بل أنوء بحمله على ظهري..

لا أنفي أيضاً أن توقيت التشجيع جاء في وقت كنت بحاجة إليه جداً..

2- هل يمكن أن توضح لنا ماذا تعني بذلك؟

لم يكن عندي أي علم مسبق بالموضوع، لم أعلم أني مرشح أصلاً، أي إنه لم يحدث تسريب للأمر، وفي ليلة العيد، يوم الصعود إلى عرفة، كنت أتهيأ لعيد هو الأصعب؛ لأنه الأول لي بعيداً عن أسرتي، وجاءت رسالة الأستاذ عدنان سالم بهذا الحمل الثقيل ليكون هدية العيد.. سأكون كاذباً لو أنكرت سعادتي وفخري بهذه الثقة، لكني سأكون كاذباً أيضاً لو أنكرت خوفي من توقيت التكريم، ومن ثقل الحمل أن أكون في موضع المقارنة مع الأسماء التي كرمت من قبل..

3- قلت الآن إن هذا التكريم هو تكريمك الرسمي الأول، هل لك أن توضح لنا ماذا تعني بذلك؟

قصدت أن كل كاتب يأخذ تكريمه أولاً من القراء، وهو أمر لا شكوى عندي منه إطلاقاً، أما التكريم الرسمي فيرتبط بمعطيات أكثر تعقيداً، وتتعلق في جزء منها برسالة المؤسسة مانحة التكريم وحساباتها، وقد تتعارض هذه أحياناً مع رسالة الكاتب أو خطه..

لا أنكر سعادتي بالتكريم الرسمي كما أسلفت، لكن لو كان هذا التكريم قد جاء دون تكريم القراء من قبل، فإني كنت سأشعر أن في الأمر مجاملة ما أو تعويضاً ما..

على العكس من هذا، أشعر أن هذا التكريم، يكرّم ضمناً كل القراء الذين سبق لهم أن دعموني..

4- لماذا كانت دار الفكر بالذات الوحيدة التي حظيت بنشر كتبك؟ وهل بينك وبينهم عقد احتكار أم أن الأمر بالنسبة إليك بالخيار؟

أولاً، (ليلة سقوط بغداد) لم ينشر في دار الفكر، بل في دار نشر أخرى.

ثانياً، دار الفكر لم تحظ بنشر كتبي، بل أنا الذي حظيت بمعاملة استثنائية من قِبَل (دار الفكر)..

ثالثاً، لا احتكار بيني وبين دار الفكر، العلاقة بيننا لا تحتمل مصطلحات كهذه أصلاً، ولا أظن أن هناك مشكلة بالنسبة إلى الدار لو أني اخترت النشر في دار أخرى.. الأمر يشبه علاقة أب كريم بأحد أبنائه الذي قرر أن يخرج من بيت العائلة دون أن يكون عاقاً..

5- أنت كاتب ومفكر إسلامي؛ لم تدرس العلوم الشرعية، ولم تتخرج في جامعة إسلامية، ولم تتتلمذ على يد شيخ أو داعية، ولم يكن والدك عالماً ولا شيخ طريقة ولا حتى جدك أو أحدٌ من أفراد عائلتك!!! أليس هذا أمراً غير مألوف بين مفكري عالمنا الإسلامي ودعاتهم!! ماذا تقول في ذلك؟

نعم إنه أمر نادر جداً، باستثناء أنه حدث مثلاً مع واحد من أكثر المفكرين الإسلاميين تأثيراً في القرن المنصرم: (سيد قطب)، وهو نادر جداً مع أنه حدث أيضاً مع رائد فكر النهضة الإسلامي مالك بن نبي الذي لم يتلق التعليم الشرعي، وهو نادر أيضاً مع أن (العقاد) الذي أثرى المكتبة الإسلامية بعدد من الكتب لم يقدمه الكثيرون على أنه من أصحاب الشهادات الشرعية.

هذا بخصوص الدراسة الشرعية، أما تكملة السؤال عن كون والدي لم يكن عالماً شرعياً ولا جدي.. إلخ، فهو سؤال مؤسف، الفكر الإسلامي يا سيدتي ليس محلًّا للعطارة في السوق القديم، وهو ليس حرفة أو صنعة يعلم الأب أسرارها لابنه.. قد يكون الأمر مختلفاً قليلاً بالنسبة إلى العلم الشرعي، فهناك بيئة معينة قد يساهم وجود الوالد في تمريرها لابنه.. لكن علينا أن نميز تماماً بين (العالم الديني) - أو الشيخ كما يسمى في بعض البلدان - وبين المفكر الإسلامي..

على كل، لا أعرف مفكراً إسلامياً كان والده أو جده مفكراً إسلامياً كذلك.. وإن كنت تعرفين أحداً فأرجو إبلاغي بذلك..

6- وُلدتَ في بغداد، ونشأت وكبرت فيها، ثم كان سقوط بغداد على يد المحتل الأمريكي، فغادرتها إلى دمشق، وهناك بُحت بألمك لسقوط بغداد بملحمة أسطورية بعنوان: (ليلة سقوط بغداد)، وبعدها توجهت إلى أمريكة لتستقر في أحضانها... دون أن تكلّ أو تمل من تعداد مثالبها ورصد نقاط ضعفها قيماً معاشة وأساليب حياة... الأمر الذي جعل الكثيرين يرون فيما فعلت ازدواجية سلوكية وغير منطقية، فما قولك عن هذا الأمر؟

أولاً،لم أغادر بغداد بعد سقوطها، بل بقيت فيها ثلاث سنوات بعد السقوط، وغادرتها بعد انفجار العنف الطائفي الذي كان أحد نتائج السقوط وتداعياته، وكتابي (ليلة سقوط بغداد) كتب وصدر أثناء وجودي في بغداد..

ثانياً، لم (أستقر) في أحضان أمريكة، بل إني لم أدق مسماراً على الحائط فيها، إنني أعمل في سفارة دولة عربية شقيقة، وجواز سفري لا يزال عراقياً، ولم أحاول الحصول على سواه مع إمكانية ذلك، في أمريكة خصوصاً، لكني ببساطة لا أود لأولادي أن يكبروا فيها، وتجربة العمل والدراسة في أمريكة هي تجربة مهمة بالنسبة إلي على الصعيد المهني والثقافي، لكنها تجربة محدودة بعقد عمل ودراسة سيأتي أوان انتهائها قريباً..!

ثالثاً، ما أراه غير منطقي، أن أكتب عن أمريكة، ثم أتهيب من زيارتها عندما تسنح الفرصة، كما لو أني أخشى على نفسي منها، ها أنذا، أكتب من أمريكة بعد أكثر من سنة من زيارتي لها، زادت التجربة رؤيتي نضجاً، وثوابتي يقيناً..

كلي ثقة أن هؤلاء أنفسهم هم الذين قالوا قبل ذلك إني أنتقد أمريكة مع أني لم أزرها!! أو - في قول آخر - لأني لم أزرها..!!

الحل الوحيد مع هؤلاء هو إلقامهم بحجر اللامبالاة والمزيد من الإنتاج والعمل الدوؤب..

7- واجهتَ القيم الأمريكية بكل جرأة وقوة، ورصدتَ ملامح الشيخوخة في هذه الحضارة، وقرعتَ في أذهاننا ناقوس الخطر محذراً منبهاً مرة، معنفاً موبخاً مرات أخرى، خشية الانقياد وراء هذه الحضارة أو محاولة تقليدها أو الشعور بالنقص تجاهها، فهل تعرضتَ بسبب هذا الأسلوب لمواجهات ما من أبناء هذه الحضارة أو تهديدات أو ملاحقات أو تعطيل لمصالحك؛ خاصة أنك تقيم بينهم؟!!

لا، ليس بعدُ على الأقل.. ونقدي يصب غالباً على جوانب حضارية مختلفة يتحدث فيها أبناء هذه الحضارة أنفسهم، سواء كانوا من اليمين أو اليسار..

لكن هل هذا سؤال صحفي أم أنه تحريض بصيغة سؤال؟؟

8- عادة التصنيف عادة متأصلة فينا نحن البشر عامة والعرب خاصة، فما إن يلتقِ أحدنا بآخر أو يقرأ لكاتب حتى يضع على جبهته لصاقة يعنون بها اتجاهاته، ويحدد بها انتماءاته، فينظر إليه من خلالها، ويتعامل معه وفقها، فهل يصلح أن تكون كاتباً فوق التصنيف أم يمكن أن تقدم لنا نفسك وفق التصنيف الذي تراه لتوفر على المصنفين جهودهم؟

قبل أن أجيب عن هذا السؤال أستدرك على الصيغة الاعتذارية التي قدمتِ بها، كما لو أن التصنيف تهمة علينا أن نعتذر ونبرر قبل أن نسأل عنها.. أرى أن التصنيف أمر طبيعي جداً، وما هو غير طبيعي الاعتذار عنه، ما دمتِ لا تصنفين الناس بناء على لونهم أو أعراقهم، بل على نتاجهم واختياراتهم، فلا ضير أبداً من التصنيف، بل الضير هو أن نبتعد عن التصنيف..

في الوقت نفسه لا أعتقد وجود من هو فوق التصنيف، ولكن أؤمن بوجود تصنيفات جديدة وخانات شاغرة لم تملأ بعد، أي إن من قد يبدو أنه خارج التصنيف لفترة ما فإنه سرعان ما يجد تصنيفاً ولصاقة ما يضعها على جبهته..

شخصياً أنا سعيد بلصاقتي أنني مفكر إسلامي، لأنها تعبر فعلاً عن نتاجي وخياري، لكني أستدرك أن بعض نتاجي لا يزال خارج التصنيف، وهو شيء مؤقت كما أسلفت..

9- من الشائع في مجتمع التأليف والفكر في عالمنا الإسلامي أن يولد فيه مفكرون يبدؤون صغاراً بمؤلفات صغيرة ثم يكبرون، أما بالنسبة إليك فقد ولدت كبيراً بضخامة أول مؤلَّف أبدعه عقلك وفكرك ألا وهو (البوصلة القرآنية) الذي كان ضخماً في المضمون، ضخماً في الفكر، ضخماً في الكمّ، لدرجة أن كثيرين ممن قرؤوه أنكروا أن يكون كاتبه شاباً في مثل سنك، وكانوا مصرين أن عمرياً آخر ربما يكون صاحبه أو أن أحداً ما كتبه لك، فما السر الكامن وراء هذه الولادة غير العادية؟

ليس سراً أن (مجتمع التأليف والفكر في عالمنا الإسلامي) -كما أسميته- ليس في أفضل أحواله حالياً، وبذلك فإن كل ما هو شائع فيه لا يعبر بالضرورة عن حالة صحية.

شخصياً لا أؤمن بجدوى (الولادة بالتقسيط) ولا أعتقد أنها تعبر فعلاً عن الواقع لكل من يرغب بالتغيير فعلاً، وبغض النظر عن ضخامة حجم الكتاب، فإن أهم المفكرين يبدؤون بكتب كبيرة حتى لو لم تكن ضخمة الحجم، وهذا لا يعني أنني أضع نفسي معهم، ولكني أؤكد أن ما هو شائع وسائد يخص الكتابات المكررة فحسب، وليس الكتاب الذين يتركون تأثيراً على المدى البعيد، كما أن علينا أن نتذكر هنا أن كبار الكتاب ربما بدؤوا نتاجهم بعرض أفكارهم في بعض المشاكل الجزئية التي يمكن أن تحلل وتشخص بكتاب (صغير) حجماً كبير مضموناً..

فيما يخص البوصلة، فالكتاب كما وصفته إحدى القارئات المثقفات اللواتي أعتز بهن: "جملة واحدة تمتد من أول الكتاب إلى آخره"، وهذا صحيح.... إنه يمثل رؤيتي الأساسية التي لم يكن من الممكن أن أقدمها بالتقسيط أو التجزئة؛ لأن ذلك كان سيفسدها حتماً..

البوصلة يتجه بشكل شمولي إلى مشكلة تاريخية، وأي اختزال في عرض المشكلة وأسبابها سيكون تبسيطاً مخلًّا لها..

فيما يخص ما ذكرت من إنكار البعض أنني أنا الكاتب، فقد مررت بثلاث مراحل من رد الفعل تجاه هذا، أولاً: عددت الأمر مزحة، ثانياً: عندما تبين لي لاحقاً أنهم جادون انزعجت، اليوم أرى الأمر كما لو كان ثناءً جميلاً بحق الكتاب، لقد عبروا عن إعجابهم بالكتاب بطريقة مميزة: أنكروا إمكانية أن يكون كاتبه في الثلاثينيات من العمر.. ويعني ذلك ضمناً أنهم معجبون جداً بالكتاب.

10- بنظرة سريعة إلى تاريخك ونشأتك؛ هل لك أن تعدد لنا - لو سمحت - العوامل التي ساعدت على تكوينك الفكري والثقافي، مبيناً الأشخاص والمواقف التي كان لها التأثير الأكبر في وصولك إلى ما أنت فيه اليوم؟

نشأت في أسرة تنتمي إلى الطبقة الوسطى العراقية، كان لها دور في الحركة الوطنية العراقية في أيام الاحتلال البريطاني، وكان ذلك من الجهتين، أي من أسرة والدي وأسرة والدتي، كبرت على حكايات ثورة العشرين وثورة 1941 والحلم القومي لاحقاً.. ولعل ولادتي ونشأتي في فترة انكسار هذا الحلم والإحباطات التي تعرض لها المناضلون القدامى، قد فتح وعيي على وجود (تناقضات) في النضال ضد (الاحتلال) من جهة، واستيراد معاييره ومظاهر حياته من جهة أخرى..

لا يمكنني أن أنكر أن اعتزاز الأسرة باللقب العمري وبانتسابها إلى عمر بن الخطاب قد ترك أثراً كبيراً في داخلي.. كان عمر بن الخطاب بطلاً من أبطال طفولتي حتى قبل أن أستطيع فهم واستيعاب دوره الحقيقي، محاولتي الأولى لقراءة عبقرية عمر عندما كنت في الصف الثاني الابتدائي.. لكنني تنبهت مبكراً إلى أن اعتزاز بعض الأقارب باللقب وبمكانة عمر بن الخطاب كان اعتزازاً أجوف بما أنه لم يكن مصاحباً دوماً بالتزام يمنح هذا الاعتزاز المصداقية، ولعل ذلك فتح عيني على اعتزاز الأمة بماض عريق لم تمنحه حقه في الالتزام الجاد بما يتناسب مع هذا التاريخ..

كان والدي رحمه الله قاضياً ومؤرخاً معروفاً لديه العديد من المؤلفات التاريخية، في الوقت نفسه والدتي كانت محامية، أي إنها درست القانون أيضاً، وكانت قريبة من الكثير من الأحداث في تاريخ العراق المعاصر في فترة الحكم الملكي خاصة، ولا بد أن يكون ذلك قد ترك أثراً كبيراً أيضاً، فالتأريخ والقانون كان لهما حضور دائم في كل جلسة عائلية، وقد أسهم ذلك في تكوين رؤية شمولية للأحداث، فالتاريخ يأخذك من الرؤية الجزئية القاصرة إلى رؤية أوسع، والقانون يمنحك الحس العام بالالتزام وأهميته في حياة الفرد والأمم.. والدتي أيضاً لها دقة ملاحظة في التفصيلات الصغيرة وربطها بما هو أكبر، كانت تهتم جداً بتاريخ الحضارات ومنتجاتها الثقافية والفنية المختلفة، وعندما كنا نسافر في الصيف لقضاء الإجازة - على عادة الطبقة الوسطى العراقية في السبعينيات - كان المتحف هو محطتنا الأولى (لا السوق**!**)..

من المواقف التي تركت أثراً في ذهني من كثرة ذكرها وتكرارها، أننا أثناء زيارتنا مسجد القصر الأحمر في إسبانية، الذي صار كنيسة كما هو معلوم، وكان عمري آنذاك أربع سنوات فقط، كانت والدتي تبكي بهدوء، وأخبرتني أن الأذان كان يرفع هنا لكنه تحول الآن إلى كنيسة، يومها أخذت أصرخ بأعلى صوتي "الله أكبر" كما لو كنت أغيظ الأمر الواقع، وكان تصميم المسجد يتيح للصوت أن يتضخم بفعل الأصداء المتداخلة، وهكذا ترددت أصوات "الله أكبر" في كنيسة سانتا ماريا، تقول أمي إن الدم جمد في عروقها، لكن نظرات غاضبة حاصرتنا جعلتها تجرني ونخرج مسرعين.. كوفئت بعدها على ما فعلت، وكوفئت أكثر من قبل الأسرة في بغداد، كان يمكن أن يُنسى الأمر كما تنسى الكثير من الأحداث، لكن والدتي كانت حريصة على تذكيري بما فعلت بين الحين والآخر..

اكتشفت والدتي أن لي موهبة للكتابة في عمر مبكر (السابعة أو الثامنة).. وشجعتني كثيراً، احتفظت بكل شيء أكتبه (ولا يزال كل ذلك محفوظاً في بغداد)..كانت أولى محاولاتي في الكتابة يوميات لطفل فلسطيني في قرية دير ياسين، تنقطع فجأة في يوم المذبحة.

تفاعل كل ذلك مع ظروف عامة مرّ بها العراق خاصة والأمة عامة.. مما لا مجال لذكره الآن...

11- من المعروف أن أبرز القضايا التي جندتَ نفسك لمواجهتها ودحض أخطائها ظاهرة (أدعياء التجديد) -كما تطلق عليهم - فمن هم هؤلاء؟ وماذا تريد منهم؟

لم أجند نفسي لمواجهة هؤلاء، بل جندت نفسي لقضية أكبر بكثير، وكان هؤلاء بمنزلة عقبة علي اجتيازها لكي أواصل الطريق، أي إن الحديث عنهم هو من باب " ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب !".. بعبارة أخرى كان من الضروري أن أضع خطاً فاصلاً بيني وبينهم، وأن أحدد أنني لا أنتمي إليهم وإلى معسكرهم بوضوح، هؤلاء أساؤوا أكبر إساءة للتجديد لأنهم جعلوا الجمهور يسيء الظن بالتجديد ويخلطه بالتفلت، وكان التفلت هو جوهر تجديد هؤلاء، بالذات التفلت من كل الضوابط الشرعية، جوهر تجديدهم ولبه ومحوره كان الإلغاء غالباً .. إنهم يمررون بوضوح شديد (وأحياناً بصراحة) مشروعاً ليبرالياً إلى الفكر الإسلامي عبر إلباسه شعارات إسلامية، مع أن الحجر الأساس في هذا المشروع يتناقض مع ثوابت إسلامية واضحة.. لا يعني هذا أنهم مأجورون بالضرورة، فالمشروع الليبرالي أشرب في قلوبهم وعقولهم، ولعلهم يتصورون أنهم يحسنون صنعاً وأنهم يقدمون للإسلام خدمة عظيمة عبر مشروعهم هذا.. لكن كذلك لا ينبغي أن نبالغ في حسن الظن، فبعض المؤسسات الغربية تدعم بعض هؤلاء بوضوح، وتوصيات مؤسسة (راند) تذكر بعض الأسماء التي ينبغي دعمها بصراحة.. لكن تصوري العام أنهم يتلقون الدعم بعد أن يصلوا إلى مرحلة معينة من الثبات على مبدئهم.. المفاهيم الغربية لم تعد بحاجة إلى مفكرين - عملاء - بشكل مباشر؛ لأنها مدعومة أصلاً بقوة التجربة الغربية وسطوتها الإعلامية.. لكن كان لا بد من توجيه دعم وترويج لبعض هؤلاء المفكرين في مرحلة لاحقة..

وإذا كنت تقصدين بالسؤال عنهم تحديد أسمائهم فهذا أمر لن يحدث، بعض هؤلاء معروف قطعاً، ولكن البعض الآخر هو من طالبي الشهرة، وسيستفيد من مجرد ذكر اسمه..

12- هلا تحدثنا عن منهجك وطريقة تعاملك مع الرأي الآخر؟

يعتمد الأمر على الرأي الآخر!.. هناك (رأي آخر) في مسائل يتعدد فيها الصواب ، وهو أمر عادي وطبيعي، وكل ما ينقل في التراث من أقول للأئمة، من قبول للخلاف وتسامح فيه، مثل قول الإمام الشافعي: "ما ناظرتُ أحداً قط، إلا أحببتُ أن يوفَّق ويسدّد ويعان"، كل ذلك يندرج في أمور فقهية يتعدد فيها الصواب ويتسع فيها مجال الخلاف..

وهناك (رأي آخر) ينتمي بصراحة إلى منظومة فكرية مختلفة ومغايرة تماماً (كأن يكون علمانياً صريحاً أو ملحداً) والعلاقة بهذا الرأي واضحة أيضاً، وإذ المشترك قليل أصلاً فإن الاحتكاك يكون محدوداً؛ لأن أي حوار يتطلب بناء لغة مشتركة..

مشكلتي الحقيقية هي مع رأيين آخرين، الأول: (رأي آخر) بلا انتماء محدد، وبلا هوية واضحة ، يتزلف (قبول الآخر) ويأخذ من كل منظومة فكرية ما يتناقض مع سواها ويتصور أنه بهذا يمتلك إرثاً إنسانياً، وأصحاب هذا الرأي غالباً حسنو النية ومغرر بهم بشعارات فارغة، الثاني: (رأي آخر) يبطن غير ما يظهر، ويحاول تمرير أفكار مضادة عبر وضع شعارات إسلامية فضفاضة ..

وليس سراً أن علاقتي بالرأيين فيها أقل قليلاً مما صنع الحداد..

أحب أن أنبه هنا إلى أني لست ممن يعتنقون مبدأ (قبول الآخر)، ولي تحفظ شديد على طريقة استخدام المصطلح في بعض الأدبيات الإسلامية، لكني اكتشفت مثلاً أني أكثر تقبلاً للآخر بكثير من بعض الذين يتحدثون عن قبول الآخر طول الوقت لكنهم عملياً يرفضون كل آخر يخالفهم، خاصة عندما لا يكون هذا الآخر أشقر أو من أمة أخرى..

إنني، على الأقل، لا أتناقض مع نفسي عندما أرفض قبول آخر أراه يتعارض مع ثوابتي ويحاول إلغاءها، لأنني أصلاً لا أدعي قبول الآخر.. أما هم فيسقطون في تناقض، ولا أظنهم يخرجون منه..

13- ما تعريف التجديد الحقيقي برأيك؟ وما سماته وأركانه؟ وهل يحق لأي مسلم أن يجدد ويكون مجدداً؟

يعتمد الأمر على أي تجديد نتحدث، فالتجديد مصطلح واسع ولا يمكن أن نعرّفه إن لم نحدد المجال الذي نوجهه له، التجديد في الفقه مثلاً أمر لا يمكن أن يحدث دون دراسة شرعية متخصصة، ودون أن يكون امتداداً لعملية تأصيل واضحة، وشروطه وضوابطه بهذا أعقد من التجديد في مجال الفكر الإسلامي مثلاً، والتفريق بين الأمرين مهم جداً، وإن كان يخفى على الكثيرين للأسف، مما يحدث خلطاً وفوضى تزيد الأمور صعوبة للجميع..

التجديد في الفكر الإسلامي ضوابطه وشروطه أقل تعقيداً، فهو يتطلب الثقافة العامة والرؤية الشمولية أكثر مما يتطلب الدراسة المتخصصة، ولا يعني هذا أنه أسهل منالاً من التجديد في الفقه أو علوم الحديث مثلاً، لكن شروطه مختلفة..

بكل الأحوال، سواء كان التجديد في الفكر أو الفقه، فإن هناك حدوداً مشتركة يجب أن يراعيها، وهو عدم التناقض الداخلي مع مشروع التجديد نفسه، وألا يتناقض مع نصوص صحيحة وثابتة ..

بالنسبة إلي، لا أفهم أي محاولة تجديدية أو أي مشروع تجديدي ما لم يكن مرتبطاً بنهضة الأمة وإخراجها مما هي فيه ، لا أفهم أي قراءة جديدة للنص القرآني ما لم تكن مرتبطة بهذا، هناك بعض القراءات الجديدة تجعلني أفكر أن الإتيان بما هو جديد بالنسبة إلى أصحابها هدف بحد ذاته، وليس وسيلة لنهضة الأمة.. ربما لهم وجهة نظر في هذا، لكني لا أفهمها، لا أفهم التجديد إن لم يأت بمعنى يفعّل نهضة هذه الأمة.. ببساطة لا أستطيع التفاعل مع أي شيء آخر، وأعد (التجديد من أجل التجديد) في هذا الوقت ترفاً، بل ربما أكثر..

هل يحق لأي مسلم؟ لا أظن أن ذلك ممكن في العلوم المتخصصة، في مجال الفكر السؤال ليس (هل يحق؟) بل (هل يستطيع؟)...

14- تعقيباً على كلامك أنك لا تقبل أي مشروع تجديدي ما لم يكن مرتبطاً بنهضة الأمة، ألا يتطلب ذلك توحيد النظرة للنهضة التي يسعى إليها المجددون؟ وهل تسمح بتعريف دقيق للنهضة؟

سؤال مهم للغاية، خاصة في الوقت الحالي الذي يتعرض فيه مفهوم النهضة للخلط مع مفهوم التنمية، مع أن الاختلاف كبير بينهما..

من السهل (وصف النهضة) بكونها (روحاً تسري في الأمة) مثلاً.. ولكن هذا محض توصيف وليس تعريفاً.. النهضة في رأيي هي عملية (شروع) في الخروج من الوضع السلبي لأمة ما باتجاه أداء دورها، أي إنها في مرحلة وسطى بين (الصحوة) و(الفاعلية).. ويشبه ذلك كثيراً الأطوار التي يمر بها أي فرد في حياته اليومية بعد استغراقه في النوم، إنه يستيقظ أولاً، لكنه يبقى مستلقياً مدة ما قبل أن ينهض، ثم إنه يستجمع طاقته ليترك فراشه وينهض.. قبل أن يذهب لممارسة نشاطه..

النهضة إذن هي رؤية شاملة تتطلب ليس الاعتراف بالسبات الذي مررنا به فقط، بل بتحديد أسباب هذا السبات واقتلاعها من جذورها كي لا تجرنا دوماً إلى نفس السبات والجمود في مرحلة لاحقة.. ويتضمن ذلك أيضاً وجود رؤية واضحة لدور هذه الأمة ورسالتها وما تريد تقديمه لنفسها وللبشرية ..

أقول ذلك وأؤكد أن هذه الرؤية قد تتضمن اقتلاع ما تآلف الناس معه وتعودوه، بل تصوروا أنه جزء من دينهم، والدين ونصوصه منه براء.. عملية الاقتلاع هذه ليست سهلة

إطلاقاً، خاصة عندما يتعلق الأمر بمفاهيم سائدة ومكرسة، وتتطلب حتماً جهداً علمياً وتأصيلاً لهذا الاقتلاع، كما أنها في الوقت نفسه يجب أن تعزل نفسها عن المؤثرات الخارجية ومعايير الأمم الأخرى فيما يجب اقتلاعه وما يجب إبقاؤه.. بل يجب أن يكون احتكامها الوحيد لنصوصها الدينية التي تشكل العمود الفقري لهذه الأمة ونهضتها..

15- حسناً، هذا من ناحية رؤيتك لمعنى النهضة، ولكن ماذا تقصد بأن هناك خلطاً بين النهضة والتنمية؟

الخلط موجود فعلاً، بنية حسنة غالباً، وربما دون معرفة بوجود فرق بين المفهومين.

مفهوم التنمية يرتكز بشكل أساسي على البعد الاقتصادي ، وأهداف التنمية غالباً ما تتعلق بأهداف اقتصادية، قد يكون منها ما هو في منتهى النبل مثل حل مشكلة الفقر والقضاء على البطالة، وقد يكون منها ما هو دون ذلك، لكن التنمية بكل الأحوال تركز على هذه الجوانب فحسب، وليست في صدد الدخول في البنية التحتية الثقافية للأمة ..

مشاكل الأمة متعددة، ومن ضمنها حتماً الجانب الاقتصادي والفقر والبطالة..إلخ، لكن هذه كلها مجرد أعراض لمشاكل أكبر تتعلق بالسبات التاريخي الذي دخلنا فيه، ومعالجة الأعراض دون الجذر الحقيقي للمشكلة يشبه إعطاء حبة مسكن للألم لمريض بالسرطان.. هذا وإن التنمية الاقتصادية بمعزل عن النهضة الشاملة قد تكرس التبعية الاقتصادية لمنظومات حضارية مغايرة، لكون مفاهيم التنمية كلها صادرة عن هذه المنظومات..

16 ما تقييمك لجهود الدعاة الجدد الذين ظهروا على الفضائيات بحلل جديدة لم تكن مألوفة بين دعاة القرن الماضي؟ وهل الشكل الجديد الذي ظهروا فيه يُعَدُّ تجديداً نوعياً ناجحاً في جذب جيل الشباب؟

من الظلم الفادح تقييم جهود هؤلاء بالجملة، فلكل منهم جهده الخاص به، وأداؤهم ومستواهم متفاوت جداً.... أما أن الوسائل الجديدة تجذب الشباب فهذا صحيح، لكن جذب الشباب ليس هدفاً بحد ذاته بل هو وسيلة، وأخشى أن بعض الأساليب المستخدمة بدأت تطغى على المضمون، أو أن المضمون نفسه لم يعد صحياً جداً من ناحية أسلمة المظاهر الغربية ووضع بعض الشعارات الإسلامية عليها ..

شخصياً كنت متفاعلاً جداً مع أحد هؤلاء الدعاة في مرحلته الأولى حين كان يبدع في مجاله الخاص.. ولكن لم يعد التفاعل على الوتيرة نفسها منذ مدة للأسف لأسباب كثيرة..

عموماً، كنت كتبت ذلك في مقال حول الموضوع، لعل من إيجابيات الدعاة الجدد إنزال مفردة النهضة من البرج العاجي إلى مجتمعات الشباب والجيل الجديد ، أما أن مفهوم النهضة

الذي يتم تمريره سطحي ويختزل النهضة إلى مجرد تنمية وعمل خيري، فهذا صحيح، ولكن لا يعني أنه غير قابل للتصحيح.

17- دارت حولك في مجتمع الفكر والثقافة مجموعة انتقادات، فهل تسمح بالرد عليها؟

- الانتقاد الأول: أحمد خيري العمري أديب وليس مفكراً.

يعود هذا إلى التصور الشائع بأن لغة المفكرين يجب أن تكون غامضة وعصية على الفهم لكي تكون عميقة، والحقيقة أن التعقيد في رأيي غالباً يخفي فقراً في الفكر، وكذلك فالمضمون يقنِّعُه البعض بالمفردات الصعبة والأسلوب الغامض لإيهام القارئ العادي أنه إن لم يفهم فإنما يعود ذلك إلى مشكلة فيه هو شخصياً وليس في أسلوب الكاتب..

للأسف الفكر الإسلامي، ومنذ ما بعد سيد قطب افتقد ضمن أشياء أخرى اللغة الأدبية الحية، فخسر القارئ، ولا أظنه ربح الفكر..

عموماً، صفة الأديب تندرج حتماً على أعمال مثل سلسلة (ضوء في المجرة) و(أبي اسمه إبراهيم) و(ألواح ودسر).. لكن الأمر ليس سواء في البوصلة والفردوس وكيمياء الصلاة..

علماً أني لا أؤمن حقيقة بالفصل الكبير بين الاثنين، فالأدب في رأيي يجب أن يحمل فكراً، والفكر يجب أن يصاغ بأسلوب جميل أو واضح على الأقل..

- الانتقاد الثاني: تعبر عن فكرتك بأساليب عديدة وكثيرة حتى تجعل القارئ يقول: "فهمنا والله فهمنا".

من قال إني أريد (فهم) القارئ؟..

الفهم سهل المنال، لكني أريد أن يتكرس هذا الفهم في وعيه ولاوعيه ويصير جزءاً من بديهياته.. هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكن أن يصير من خلالها الفهم وسيلة للتغيير، التكرار وسيلة لتكريس الفهم، وهو للعلم وسيلة مستخدمة في الكتاب الذي كان التغيير معجزة من معجزاته..

- الانتقاد الثالث: تتقن في كتاباتك ثقافة النواح والعويل من خلال تعداد الأخطاء في الفكر والقناعات والإشارة إليها، ممضياً الوقت في اقتلاع أعشاب الأمة الضارة دون أن تقدم مشروعاً تنويرياً واضحاً يكون كفيلاً بالإصلاح والنهضة...

لست واثقاً أن مفردتي (النواح والعويل) يمكن استخدامهما في هذا السياق، لا أفهم على الإطلاق كيف يكون النواح وسيلة لاقتلاع الأعشاب الضارة!..

على العموم من يقول ذلك لا أظنه قرأ لي البوصلة القرآنية أو كيمياء الصلاة.. فمقابل كل نقد لفهم سلبي للنص الديني، هناك فهم إيجابي بديل في البوصلة.. أما الكيمياء فالرؤية بمجملها تعتمد على تقديم مفهوم إيجابي لكل تفصيلة من تفصيلات شعيرة الصلاة..

- الانتقاد الرابع: محاربتك لمن تسميهم: "أدعياء التجديد" ما هي في حقيقتها إلا محاربة للتجديد نفسه، فأنت كاتبٌ تراثيٌّ تمجّد الماضي وأهله، وتغلق الباب أمام اجتهادات الإصلاح والتنوير.

من الأخير كما يقال: أفضِّل ألف مرة التراث بكل تحفظاتي عليه، على الإصلاح والتنوير إذا كان مجرد شعار براق يمرر التفلت والانحلال.. (وأتحفظ أصلاً على كلمة التنوير واستخدامها السائد حالياً!!).. كذلك يفضل قرائي..

لكني أحاول أن أجد طريقاً ثالثاً لا يمر بسلبيات ما تراكم من أفهام حول التراث، ويجد طريقه إلى البناء والنهضة، دون أن يمر بعثرات وسلبيات التجارب الأخرى.. وكذلك يأمل قرائي..!

- الانتقاد الخامس: تتشبث برأيك تشبُّث الشمس بكبد السماء، ومهما كانت حجة المعارضين قوية من الاستحالة بمكان أن تبدي تراجعاً في رأيك أو مواقفك.

في الحقيقة هذا الأمر شائع جداً عند الجميع، وليس عندي فقط، أغلب الكتاب والمفكرين يتشبثون برأيهم ويتمسكون به ويبحثون عن كل الوسائل من أجل الدفاع عنه.. ولا أدري لم يكون ذلك انتقاداً عندما يخصني فحسب؟!..

على أي حال، حدث فعلاً أني تراجعت عن استخدامي لأحد الأدلة بعد رسالة وردتني من قارئ شاب، وقد عدلت من الأمر في طبعة جديدة من البوصلة القرآنية، وعدلت من أمور أخرى بعضها بسبب النقاش مع القراء وبعضها بسبب النضج الشخصي، والتعديلات في كل الأحوال لا تمس جوهر الفكر أو مضمون الكتاب، وحذف الدليل الذي أشرت إليه لا ينقض النتيجة التي بنيتها عليه لأني غالباً لا أعتمد على دليل واحد بل على جمع متسلسل من الأدلة، لكني أورد الأمر هنا للتدليل على أن التشبث بالرأي ليس قاعدة عامة..

في الحقيقة أتشبث برأيي عندما يكون متعلقاً بالثوابت التي أرى أنها مستهدفة اليوم وبأكثر من وسيلة ومن أكثر من جهة، ولا أرى حقيقة من قوة في الحجج المضادة لهذه الثوابت..

وللحق الشيء الوحيد القوي فيهم بوضوح هو انبهارهم المريض بالغرب..

تعقيباً على كلامك لو سمحت:

في تعديلات البوصلة التي ذكرتها والتي منها ما كان تراجعاً عن استخدام لدليل بسبب رسالة وصلتك من أحد القراء الشباب، وبعضها بسبب بعض نقاشاتك مع القراء، هل أشرت في حاشية الطبعة الجديدة في مواضع التعديل إلى سبب هذا التعديل ؟....

لا، لقد حذفت استخدام حديث شريف فحسب، ولم يؤثر ذلك في الاستدلال لوجود أدلة أخرى..

- الانتقاد السادس: ترتكز في أسلوبك على العواطف فتستميل قراءك وتجذبهم من حيث لا يشعرون، ويتجلى ذلك في مواضع عديدة، منها كتاباتك عن وطنك وأولادك....

يمكن إعادة هذه الجملة وحذف الفقرة الأخيرة منها لتكون كما يلي: "ويتجلى ذلك في مواضع عديدة منها 5% من كتاباتك..!".

- الانتقاد السابع: هل من المنطقي لكاتب أو مفكر جديد في وقتنا الحاضر أن يقدم خلال سبع سنوات ما يزيد على 16 مؤلفاً، فضلاً عن الكم الكبير من المقالات الدورية التي ينشرها في بعض الصحف وعلى موقعه الإلكتروني؟ لا بد أن هناك من يساعده، وليس بالضرورة أن تكون هذه المعونة من الإنس!!!

من قال أصلاً إني أكتب بمفردي؟.. الكتابة ليست عملاً فردياً كما يتخيل البعض إلا بمقدار التنفيذ الإجرائي فحسب.. لكنها عمل جماعي بطريقة أو بأخرى..

شخصياً أكتب ومعي دعم مؤسساتي هائل يجعل من نتاجي الذي يعده البعض غزيراً متواضع الحجم والعدد، أكتب وتدعمني مؤسسة ضخمة لعلها الأعرق والأضخم بين كل المؤسسات، هذه المؤسسة اسمها الحركي ( الأمة ).. الأمة التي آن لها أن تنهض، والتي أكتب بدافع من حتمية نهوضها، أكتب بدعم من مؤسسة أخرى، أصغر حجماً لكن لها امتداد في كل مكان وسيكون لها أكبر الأثر في نهضة هذه الأمة، إنها مؤسسة ( الأسرة )، وقد دعمتني أسرتي في أكثر من مرحلة وأكثر من اتجاه؛ بدعم لا محدود من والدتي، ومن ثم من زوجتي بل من أسرتها الكريمة أيضاً. بصراحة، (أم زين) وحدها شركة عامة ذات مسؤولية غير محدودة..

ثم إني دعمت من مؤسسة عريقة مثل دار الفكر ، خاصة في شخص الأستاذ عدنان سالم الذي كان لي ولنتاجي كالأب وأكثر، بل حتى من قبل ( الشباب ) في مكتبة الدار وفي المعارض الخارجية، لقد دعموني وروجوا لي، ولم يكونوا هم من أخبرني بذلك، فكثيراً ما أستلم بريداً من قارئ جديد يقول إنه أخذ بنصيحة البائع في المعرض الفلاني..

كذلك دعمت من قبل السيدة الفاضلة (أم بشر) هدايت سالم التي كانت لي المرشد والناقد والموجه.. والتي صارت هي وأسرتها بمثابة الأسرة لي ولعائلتي في الشام.. ولا أعتقد حقاً أن هناك ما يمكن أن يوفيها حقها.. لقد كان دعمها يتجاوز الثناء والإشادة إلى النقد وبيان الخطأ أحياناً، ولكنه كان يدعم لأنه يقوي البناء ويمدني بالإرشاد والتصحيح الذي يحتاجه كل كاتب، وتزيد حاجته إلى ذلك عندما يكون في أول الدرب..

كذلك كان هناك دور القراء الذين تفاعلوا سلباً وإيجاباً، لقد أغنوا تجربتي بتفاعلهم معي على نحو جعلهم أحياناً شركاء في الكتابة..

كل هؤلاء (مؤسسات وأفراداً) كانوا شركاء في عملية الكتابة بطريقة أو بأخرى، ودون أن يدركوا ذلك..

وفقاً لكل ما سبق، نتاجي ليس غزيراً على الإطلاق، بل إني استلمت قبل مدة رسالة من قارئ سعودي يلومني على قلة نتاجي ويخبرني بما معناه أنني سأحاسب على ذلك**!**

18- لا بد لكل من يتقدم إلى الأمة بفكر جديد أو قديمٍ بقالب جديد أن يواجه بأعاصير من النقد، منها ما هو سلبي، ومنها ما هو إيجابي، فأيهما كان بالنسبة إليك أكثر؟

الإيجابي حتماً. كان هناك نقد سلبي بطبيعة الحال، لكن التفاعل الإيجابي خاصة من القراء كان له أكبر الأثر في مسيرتي، ولست واثقاً من أني سأكون بنفس الدأب إذا حذفنا دور القراء وتفاعلهم معي من مسيرتي.. تفاعل القراء قال لي ببساطة إن رجع الصدى لن يكون الجواب الذي أحصل عليه من نتاجي.. وكان هذا يعني أن الأمر لن يكون عبثاً ضائعاً بلا جدوى..

19- وعندما يواجهك النقد السلبي هل يساور الإحباط نفسك، ويدخل اليأس إلى قلبك موحياً إليك أن لا فائدة من الفكر والتفكير ومن الإصلاح والتنوير؟

في البداية كنت أحبط طويلاً، لمدة نصف ساعة تقريباً.

اليوم صرت أحبط قليلاً لمدة تقل عن خمس دقائق**!**

20- هل لمست في مجتمع النقاد عامة الرغبة الحقيقية في الإصلاح أم الرغبة في الإلغاء؟

لا ينبغي التعميم هنا، ولا يمكن وضع النقاد في سلة واحدة بالجملة، هناك الناقد المتعالي والناقد المؤدلج والناقد الذي لا يقرأ ما ينقد، والناقد الذي ينقد بصفته (كاتباً فاشلاً) ويريد من الجميع أن يكونوا مثله.. ولكن هناك أيضاً الناقد المنصف والناقد المتفاعل والناقد المتابع، من

الطبيعي جداً أن يكون هؤلاء هم الأقلية؛ لأن الساحة الثقافية كلها هي انعكاس لوضع متردٍّ.. وسيكون غريباً جداً لو أن النقد والنقاد كانوا في منتهى العدل والإنصاف، في حين أن الواقع كله في اتجاه آخر..

لكن ما أنبه له هنا هو أن الكتاب الإسلاميين يفتقدون ظاهرة (التساند) الموجودة عند التيارات الأخرى.. لقد تمكن اليساريون، ولاحقاً الليبراليون من فرض أسماء معينة على المشهد الثقافي العربي رغم تفاوت القيمة الأدبية لنتاج هذه الأسماء، وبعض هؤلاء كرس على أنه قامة أدبية عملاقة بقوة هذا التساند والتكاتف بين النقاد والصحفيين.. وصاروا فوق النقد مع أنهم حتى ليسوا فوق مستوى الشبهات..

الكتاب الإسلاميون - عموماً - لا يزالون بعيداً عن هذا، كما لو أنهم يحرمون الدخول في لعبة كهذه!

21- هل السبب في ذلك برأيك أن الكتاب الإسلاميين يفتقدون المؤسسة الإسلامية القوية التي تتبناهم وتدعمهم بهدف النهضة الحقيقية للأمة، في حين أن لأولئك الليبراليين واليساريين مؤسسات قوية حققت لهم هذا الدعم؟

لست واثقاً من هذا، صار هناك اليوم مؤسسات إعلامية إسلامية كثيرة، لكني لم أقصد ذلك، بل قصدت ذلك الجهد المبذول من الكتاب والنقاد الليبراليين للترويج لكاتب وكتاب يطرح أفكارهم، في حين أننا لا نرى ذلك عند الإسلاميين، لا يمكن حذف العمل المؤسسي تماماً، لكن لا يجب أيضاً إغفال روح التساند الفردي، وعدم الانزلاق إلى (عداوة الكار) تحت شعارات النقد العلمي الأكاديمي والموضوعية.

22- قلت قبل قليل: سيكون غريباً جداً لو أن النقد والنقاد كانوا في منتهى العدل والإنصاف، في حين أن الواقع كله في اتجاه آخر.. الواقع كله في اتجاه آخر!!! أهكذا يرى الدكتور أحمد الواقع؟؟!!

نعم، بالتأكيد... هل هناك من لا يزال يعتقد أن "على الأرض السلام وفي الناس المسرة؟".. الواقع سيئ جداً.. سيئ بحيث يصعب علينا أن نتخيل ما هو أسوأ، لكن ذلك يجب أن يكون حافزاً لنا على عدم الرضوخ لهذا الواقع ومحاولة إعادة تشكيله بكل الأساليب..

23- والآن، وبعد أن ذكرتُ لك مجموعة الانتقادات التي توجه ضدك وتكلمنا على النقد هل لك دكتور - لو سمحت - أن تخبرنا كيف تتعامل مع الانتقادات بشكل مختصر يعيه كل من يتوجه إليك بانتقاد...

لا أستطيع الفصل بين الانتقاد وبين توجه الشخص الذي ينقد... على ما يبدو في ذلك أحياناً من انتقائية في الموقف تجاه النقد..

بعبارة أخرى، قد تصدر جملة النقد أو فحواه من شخص متفاعل مع ما أطرح، ومن منطلق المساءلة والحرص، وبأسلوب يُظهِر ذلك، عندها ينزل النقد برداً وسلاماً وأتفاعل معه ربما بأكثر مما يأمل صاحب النقد..

وقد يأتي نقد مشابه، بأسلوب ينضح بالتعالي ويكشف عن توجهات صاحبه الفكرية، ويكون موقفي هنا مختلفاً تماماً.. ربما بالتجاهل التام أو برد شديد اللهجة..

دعينا لا ننسى هنا أن الكاتب اليوم الذي يستفيد حتماً من (النت) ومن الانتشار والتواصل مع قرائه عبره، عليه أن يواجه الجزء السلبي من الظاهرة، وإذا كانت ظاهرة مثقفي المقاهي وثرثرتهم التي يسمونها نقداً قد انتهت عملياً لأسباب عديدة، فإن النت يمنح شخصيات مماثلة، تملك نفس دوافع مثقفي المقاهي، يمنحها الازدهار والنمو في العالم الافتراضي.

لدينا اليوم أشخاص يملكون اتصالاً بالنت وجهاز الحاسوب والكثير من الوقت على ما يبدو، ويعتقدون أنهم صاروا كتاباً ولديهم (مشاريع) لمجرد أنهم كتبوا شيئاً في هذا الموقع أو ذاك.. هؤلاء بالذات يشكلون جزءاً من النقد الفارغ الذي يواجهه كتاب اليوم والذي يجب أن يواجه بالتجاهل غالباً، لأن لا هدف من ورائه غير (الشطرنج الفكري) وتمضية الوقت...

بالمناسبة، كان من السهل جداً أن أقول: إني متقبل جداً للنقد، وإن صدري رحب دوماً، لكني أفضل هذه الصراحة الفجة، أحياناً أنا متقبل جداً لدرجة صادمة، وأحياناً أنا على العكس، في الحالتين الأمر لا علاقة له بالمزاجية، بل بكون هذا النقد جزءاً من رؤية أشمل..

24- لمن يقرأ أحمد خيري العمري؟ وبفكر من يتأثر ويُعجب من القدماء ومن المعاصرين؟

أقرأ كل ما يقع في يدي، على الأقل أمنح نفسي فرصة الاطلاع على كل ما يقع في يدي..

ليس سراً أني تأثرت بفكر النهضة ممثلاً بمالك بن نبي، وبالأسلوب الأدبي في طرح الفكر ممثلاً بقطب والغزالي إلى حد كبير..، أدبياً تأثرت بغسان كنفاني وغادة السمان ورشيد بوجدرة.... من القدامى أحببت ابن القيم كثيراً، أما من الأجانب فتفاعلت مع أسلوب ماركيز وغراهام غرين وأندريه جيد وفرجينيا وولف ومارسيل بروست.

25- في وقت غزت فيه وسائل الإعلام السمعية والبصرية البيوت، هل ترى أن الكتب الورقية لا تزال وسائل ناجحة لجذب أبناء الأمة وجيلها الجديد؟

وسائل الإعلام السمعية والبصرية موجودة في العالم كله، ولم تؤثر حقاً في الكتب الورقية.. لذلك أرى التباكي على هذا الأمر (حجة) نسوقها لكي نغطي على مشاكل أعمق تخص فشلنا في الوصول إلى القارئ..

26- من المعروف أن لك موقعاً إلكترونياً خاصاً يجذب عدداً كبيراً من القراء الشباب وتدور في صفحاته العديد من النقاشات والسجالات، هل لنا أن نعرف الهدف من إطلاقك هذا الموقع؟ وهل من كلمة توجهها لمتصفحي موقعك خاصة ولقرائك عامةً؟

هدفي من الموقع توفير أرشيف لمقالاتي بحيث تكون متوافرة للقراء على الشبكة.... الموقع شخصي ويظل محكوماً بالثوابت التي أؤمن بها..

ليس من كلمة خاصة أوجهها للقراء أو لزوار الموقع، فكل ما أكتبه هو موجه لهم..

27- هل كنتَ قبل عشر سنوات تتوقع أن ترى نفسك في مكانك ومكانتك اليوم؟ وهل من تصور تطمح إليه لنفسك بعد عشر سنوات قادمة؟

بالنسبة إلى المكان لا طبعاً، قبل عشر سنوات كنت مستقراً في بلدي، لم أكن أتوقع أبداً أن أكون في المكان الذي أنا فيه اليوم..

بعد عشر سنوات، وبالنسبة إلى المكان أيضاً، أتمنى أن أعود إلى نفس المكان الذي كنت فيه قبل عشر سنوات.. وخلال مدة أقل من عشر سنوات بكثير..

بالنسبة إلى المكانة، لا أعرف إن كنت فكرت بهذا من قبل، أحاول دوماً التركيز على ما أنتجه وما أكتبه، لا على نتائج هذا..

28- في روايتَي: (أبي اسمه إبراهيم) و(ألواح ودسر) قدمت للتراث الإنساني أدباً يتجاوز أبعاد المكان وحواجز الزمان ليكون قصة ماضٍ وحاضر ومستقبل، وبذلك فإنك من الممكن أن تُعَدَّ رائداً لمدرسة جديدة في الأدب تنتهج هذا الأسلوب الممتع في الكتابة، فما قولك في هذا؟

أقول: الريادة ليست في بالي، وليس من شأني أن أدلي فيها برأيي، كما أسلفت، ما يهمني حقاً هو أن أكتب وأن يكون نتاجي مؤثراً ومساهماً في التغيير، ما تبقى مجرد تفاصيل يمكن للمختصين لاحقاً أن يحددوها..

29- تقول: إن ما يهمك حقاً هو أن تكتب وأن يكون نتاجك مؤثراً ومساهماً في التغيير، هل يمكن أن توضح لنا لو سمحت المراحل التي تمر بها الفكرة لديك منذ ولادتها إلى أن تصير صوتاً مدوياً على الورق؟ وهل هناك طقوسٌ معينة تقوم بها قبل وأثناء الكتابة؟

"معلومات الكاتب عن عملية الكتابة هي بقدر معلومات الشجرة عن الهندسة الزراعية!"، لا أعرف شيئاً عن مراحل الفكرة، لكني أظن أنها تولد غالباً بالتفاعل مع الناس، وأحياناً من كلمة عابرة يقولها شخص عابر، عملياً أنا في حالة كتابة في رأسي طول الوقت، خميرة الفكرة تكون هناك، ربما كـ"رؤوس أقلام" أو نقاط أساسية، وتحويلها إلى الورق أو إلى شاشة الحاسوب يوضحها وينضجها..

لا طقوس لدي تخص الكتابة، عندما بدأت في مرحلة المراهقة كان هناك التصور المسبق بضرورة الكتابة وقت الليل وسط أجواء حالمة. لا شيء من هذا استمر بالنسبة إلي، كان لدي مساحتي الخاصة في بغداد، لكني كنت أكتب أينما وجدت وقتاً لذلك، كنت أعطي مرضاي حقنة المخدر وأكتب بضعة أسطر ريثما يبدأ مفعول المخدر!.. أوراقي كانت معي أينما حللت، وقد نسيت مرة أحد فصول البوصلة عند بائع العصير قرب عيادتي في بغداد، وعدت إليه مرعوباً بعد منتصف الليل..

بعدما غادرت بغداد، قلت المساحة الخاصة، لكني لم أسمح لذلك أن يؤثر في نتاجي، بعض حلقات (القرآن لفجر آخر) كتبت في المطبخ لأنه لم يكن هناك أية مساحة أخرى خالية!! بعض أجزاء كيمياء الصلاة كتبتها مستلقياً وابنتي أروى تلعب على ظهري.. لا مشكلة لدي في وجود صوت مذياع أو تلفاز قريب، فلدي قدرة على الانفصال عن ذلك كله، كما أنفصل عن أي منغصات أو متاعب في العمل والحياة اليومية.. الشرط الوحيد تقريباً هو أن يكون محيط الكتابة في غاية الترتيب!!.. لماذا؟.. ليس لدي أدنى فكرة عن ذلك!

30- ما دمت تنتقد فيما تكتب قيم الحياة الأمريكية وتبين مظاهر ضعفها وتداعيها، ألا يكون الصدى أوسع والتأثير أكبر فيما لو فكرت أن تكتب باللغة الإنكليزية أو تترجم ما كتبت إلى الإنكليزية؟

بصراحة لا أستطيع أن أخفي استغرابي -بل صدمتي!- من هذا السؤال كلما طرح علي.

إنني أنتقد قيم الحياة الأمريكية ليس لكي أعظ أمريكة أو الجاليات التي تعيش فيها، فهذا ليس شأني على الإطلاق، وهم لهم الحق في اختيار طريقة حياتهم وموتهم.. إنني ببساطة أنتقد القيم الأمريكية لأنها تتسرب إلينا بطرائق مختلفة ووسائل مختلفة، بعضها قسري بواسطة إعلام يمارس عملية غسل دماغ جماعية، وبعضها خفي بواسطة عملية أسلمة هذه القيم ووضع شعارات إسلامية عليها.. ليس هناك ما كتبته عن أمريكة إلا ويكون مندرجاً في هذا: هل يعتقد أحد أن مقالاتي عن الشذوذ مثلاً، كانت بعيدة عما يدور ويخطط له في مجتمعاتنا؟ هل مقالي عن ظاهرة ملك البوب الذي اختصر بموته كل مظاهر الضعف في الحياة الأمريكية، هل هذا

يخص الأمريكيين وحدهم، أم أنه يخص من يستوردون مظاهر الضعف هذه دون أن يمروا أصلاً بمظاهر القوة؟

أستغرب أيضاً من طرح موضوع الكتابة باللغة الإنكليزية، كما لو أن بإمكان أي كاتب أن يضغط على زر ما ليحول لغة الكتابة التي يكتب بها.. كل لغة تملك فلسفتها الخاصة، وقواعدها تعكس قيماً معينة ومنهجية في التفكير قد لا تكون محسوسة للعيان لكنها متضمنة حتماً في البنية الثقافية.. هناك بعض الكتاب يملكون القابلية على الإنتاج مزدوج اللغة لكنهم قلة وهذا النتاج يكون غالباً أكاديمي الطابع..

أكتب باللغة التي أفكر بها، وهي لغة القرآن، وهي اللغة التي يتحدث بها أكثر من ثلاث مئة مليون عربي، وإذا كان هناك من مشاكل تخص التواصل مع هؤلاء، فاللغة بالتأكيد لا علاقة لها بذلك..

كذلك أمر الترجمة: هل على الكاتب أن يسعى لترجمة أعماله؟ ألا يفترض أن يكون ذلك عمل شخص آخر أو مؤسسة أخرى؟

31- للتوضيح أقول: إن الدافع الكامن وراء هذا الطلب هو الرغبة الكبيرة في أن تتكشف الحقائق التي تقدمها عن أرض الأحلام إلى كل حالم في مشارق الأرض ومغاربها، وإلى أصحاب هذا الحلم المزيف أنفسهم الذين زينوا كابوس واقعهم بأنغام البوب وأضواء ناطحات السحاب وطعم الماكدونالد وصدروه لنا ليكون حلماً ممتعاً ننام عليه ونصحو عليه.... فمن حقك تحديد شريحتك المخاطبة ومن حقنا أن نتأمل ونتمنى أن تتسع هذه الشريحة وتكبر.... أليس كذلك؟

أكتب بالعربية وللعربية، أحمل همّ أمتي وثوابتها، وأحاصر نفسي بها مثل نقطة داخل دائرة، إن حدث وتسربت كلماتي إلى لغة أخرى أو إلى لغات أخرى فلا بأس (وقد حدث هذا فعلاً بالمناسبة) لكن سيظل أبناء وطني وأمتي هم الهدف الأول، (العالمية) وَهْمٌ يتداوله نجوم الغناء والطرب، وحري بنا أن نترفع عن هذه الأوهام ونركز على المشاكل الحقيقية التي تحول بيننا وبين القارئ..

شخصياً أعتقد أني سأموت همًّا لو شهد أي من كتبي رواجاً بأي لغة أكثر من رواجه بلغته الأصلية.

32- هل ترى في جيل ألفيتنا الثالثة جيل (الأكشن والكولا والتشات) بقية من سمات نرتكز عليها في نهضة نرتقبها ونحلم بها؟

جيلي سمي يوماً بجيل الديسكو، والجيل الذي قبلي سمي بجيل الهيبيز والميني جوب، والجيل الذي قبله سمي بجيل الخنافس والروك أند رول.. لكن ذلك لم يمنع أن كل هذه الأجيال

أنتجت أفراداً في منتهى الوعي والالتزام والنضج، وبعضهم كانوا مناضلين وشهداء.. كما أن التداخل بين بعض هذه الأجيال وبين ما أطلق عليه أيضاً اسم جيل الصحوة واضح جداً.. لذا لا أفضل التعميم على جيل بأسره، خاصة أن هذا التعميم يقطع جسوراً مهمة للتواصل والتأثير...

لا أنكر طبعاً أن الأمور آخذة بالتدهور، لكن هذه مسؤوليتنا نحن المثقفين أولاً وأخيراً..

فيما يخص (سمات) الجيل الحالي أظن أن هذه السمات لا تقل ولا تزيد عن أي جيل آخر من الأجيال السابقة..

33- تقول: إن سمات جيلنا لا تقل ولا تزيد عن أي جيل آخر من الأجيال السابقة.. هل أفهم من كلامك أن التطور التقني والتكنولوجي ليس له أي تأثيرات إيجابية على وعي الجيل وازدياد معارفه وقدرته على الإلمام بالتجربة الحضارية للأمم بحيث يكون له قدم سبق تميزه عن الجيل الذي سبقه، وتعينه على القيام بمهمة النهضة على نحو أيسر وأسهل؟

التطور التقني والتكنولوجي أنتج (ثورة معلومات).. وثورة المعلومات بالتعريف تيسر الوصول إلى كم هائل من المعلومات، لكن علينا أن نميز الفرق الجوهري بين المعلومات من جهة وبين المعرفة والوعي من جهة أخرى، كما نميز الفرق بين الحقائق والحقيقة، فتراكم المعلومات لا يزيد الوعي أو العلم، إنه يزيد من استهلاك خلايا الذاكرة فحسب..!

الوعي والمعرفة يكون كبوصلة تلم وتشد هذه المعلومات وتنظمها في إطار الرؤية المتكاملة التي تأخذ فيها المعلومات حجمها الحقيقي..

بل في الحقيقة إني أعتقد أن زيادة حجم المعلومات لمن لا يملك البوصلة قد يكون مشوشاً جداً..

بعبارة أخرى: التطور التقني والتكنولوجي أنتج أشخاصاً يمكنهم حل الكلمات المتقاطعة في الجريدة بسهولة أكبر، المشكلة أنهم غير قادرين على معرفة (كلمة السر) أو الصورة الأكبر..

34- سأطرح عليك لو سمحت مفردات وأريد أن تقابلها بمفرادت أخرى أو عبارات مختصرة:

- النهضة: البديل الوحيد عن الانقراض.

- القرآن: البوصلة.

- أمريكة: روما صارت في كل مكان.

- العولمة: المنتصر يأخذ كل شيء.

- بغداد: جرح مفتوح أحمله معي أينما ذهبت.

- دمشق: الملجأ.

- إبراهيم عليه السلام: المسلم الأول.

- الصلاة: عماد النهضة.

- عام 2009م: ألواح ودسر.

- المستقبل: تكليف.

- التاريخ:مثل الجينات، نحمله معنا شئنا أم أبينا.

- مالك بن نبي: إرث ضيعته النخبة.

- غوانتنامو: ليست الأنظمة العربية وحدها تنتهك حقوق الإنسان!

- فلسطين: كل مشاكل الأمة في نموذج واحد.

- التطرف: الوجه الآخر من التمييع.

- الإرهاب: طباخ السم يتذوقه، والعالم كله يتجرعه.

- المذاهب الأربعة: السعة بثوابت.

- أدعياء التجديد: خيول طروادة!

35- دكتور في ختام هذا اللقاء اسمح لي بهذا السؤال: - جاء في بداية سلسلة كيمياء الصلاة قولك: "أضع نتاج الأشهر المضيئة تلك في قنينة زجاجية وأرمي بها في بحر الظلمات.. وكلي ثقة أنها ستعين بطريقة ما في الوصول إلى بر النور...." وبالفعل تم الإرسال كما تم الاستلام من هيئات وجهات ربما لم تتوقعها، فهل من رسالة أو رسائل جديدة تشحذ لها قلمك وتجند لأجلها دواتك وتستعد لإرسالها في بحر تراثنا الفكري والإنساني؟

بالتأكيد، كما لو أن بإمكاني أصلاً أن أتوقف عن الكتابة!.نسأل الله التيسير والتسديد والتوفيق..

# د. أحمد خيري العمري

**حين يلتقي الفكر بالأدب**

**نُور محمد مؤيد الجندلي**

رائحة الفجر بضيائه وانتعاشه وتجدده تفوحُ من حبره، فجر النصر على الجهل والتخلف والتقليد الأعمى، وإغلاق العقل عن كل ما ينفع...

الفجر الذي يضيء البصيرة، لتتفتح مجدداً وترى النور، ممزوجة بعبير الأمل الواعي المدروس، والرغبة الواثقة الأكيدة في التغيير...

في قلمه إضاءات كثيرة، تنبعث مثل شرارات تضيء العقل، أو تشحذه بما يضيء، نداءات لم تنبت من فراغ، بل تعالجه في كيان كل شخص منا...

منذُ الكلمة الأولى التي تصافحك وأنت تقرأ له، تحسّ بحركة دؤوب تدبُّ في أعماقك، حالة من التجدد، ونفض للغبار المتراكم في العقول على مدى أعوام طوال، عبر لغة تلامسُ الوجدان، لغة أديبٍ متمرّس، يقدُّر جيداً قيمة القلم ورسالته، وعقل مفكّر لا يتحدّث من بروجٍ عاجيّة، بل هو مختلط بالناس، مدرك لمشكلاتهم وقضاياهم، متفاعل معهم حتّى النخاع، بقلب لا يكف عن النبض بنداءات الإصلاح، وضرورة التغيير ابتداء من الذات، وانتهاء بالكون كله.

**عناوين وإضاءات**

(سلسلة ضوء في المجرة)، (ليلة سقوط بغداد)، (الفردوس المستعار والفردوس المستعاد)، (كيمياء الصلاة)، (البوصلة القرآنية)، (ألواح ودسر)، (أبي اسمه إبراهيم).

كلها عناوين لمؤلفات رسخت في الذاكرة، وطبعت أثراً طيباً فيها. فكأنه أكسبها خبرته الفكرية والمهنية بصفته طبيباً للأسنان، فأسقط خبرات تعلمه على الحياة، فإذا به يُشير إلى مواطن النخر في جسد الأمة من ناحية، ويوجه الأنظار نحو التهابات مستعصية، تشلّ الفرد المسلم عن النهوض وتقعده عن أداء رسالته.

وهو إذ يستعمل أدواته محاولاً علاجها، ليستأصل العلّة من الجذور، إلا أنه يحتاج إلى عقول أخرى تسانده، وسواعد جادّة تبني معه سلّم الحضارة التي قد لا يتسنى لنا أو له مواكبة لحظة الوصول إليها، لكنها لبنة توضع لتكون حجر أساس، عليها سيقوم بنيان راسخ، وتتجدد حضارة عتيقة.

**من كتيب صغير إلى ركن في مكتبة**

وسط مزيجٍ من الأضواء السّاطعة التي تُضيء مثل منارات في عالم الكتب، وبين خفقات كثيرة سطرتها أقلام مختلفة على مرّ الزمان، كنتُ أفتشُ بين رفوف المكتبة عن شيء مختلف، عن فكرٍ متألق ممزوج بروح العصر، عن لغة متمكنة تأسرني، وأسلوب بارع يشدّني من العبارة الأولى حتّى السطر الأخير.

كانت في داخلي فجوة تحتاج إلى سد، حائرة بين السطور والكلمات، أبحثُ عن ذاك المختلف، بكل توق إلى لقائه، ولا أنكر، كان شيء من اليأس قد بدأ يتسرب إلى قلبي، من أن يجتمع الأمران معاً بين دفتي كتاب واحد... الفكر والجمال..

حين كنت أبحث لم أعتقد أبداً بوجود كنزٍ ينتظر على أحد الرفوف، قد يقودني يوماً لامتلاك العالم عبر (اقرأ)، بدأ الأمر بكتابٍ واحد ثمين، وانتهى بركنٍ خاص لمؤلفات أعتبرها من أثمن الكتب التي أمتلكها.

وقد كانت الرحلة طويلة مع كل كتاب، لكن الإبحار كان هادئاً وسعيداً، والمحطات التي توقفتُ عندها كانت كثيرة، وأولها كتيب صغير أرسل الشرارة، وكان القائد بمضمون فريد.. إنه دون شك (غريب في المجرّة).

**إبحار الفكر والقلم**

التجوال في مؤلفات الدكتور أحمد خيري العمري أشبه بالصعود إلى سفينة من ورق، مجدافها القلم، بحثاً عن جُزر مفقودة، فيها كنوزٌ موصلة إلى الحقيقة، تلك الرحلة التي ابتدأت في ضمير كل شخص منا، ونأمل أن تتواصل وتستمر...

**غريب في المجرّة**

من عمق الغربة، تولد الحاجة الماسة إلى الأنس والضياء، ومن عالم الغرباء ينطلق، ليعيد صياغة معنى الغربة، برؤية مختلفة، ووجهة نظر متميزة، تطالعنا من الصفحة الأولى في

الكتاب، تأخذنا عبر حديث أخوي عذب، يوجهه الكاتب لحقيقة الإنسان، في ضمير كل شخص منا.

نجده يمضي جاهداً، يفتّش في القلوب عن جوهر الإيمان الضائع، يحاول إعادة رونق الحياة إلى الوجوه الجليدية الصّماء، لعل الطبقة التي تعزلها عن تلمس حقيقة الحياة تذوب، إنه لا يكلّ أبداً، محاولاً في كلّ سطر، وكلّ كلمة، أن يعيد لنا المسلم الحق الذي غادرنا ذات ظلمة، فاغتربنا وعانينا مرارة الوحدة في غيابه. وهو يجمعنا لنتحلق حول شعلة مضيئة، قد تتحول يوماً إلى منارة، أو تنقلب شمساً تنير وجه الأرض، ولا غرابة، فالرسائل كتبت من أجل إنسانٍ حقيقي، والخطوة التالية مهمة ذلك الإنسان في استجابته وتلبية دعوة قد تكون الأثمن في تاريخ حياته.

**يوم، شهر، سنة**

رسالة الحياة والموت، حياة القلب طبعاً أو موته، وتصوير عميق لحالة من خداع النفس، توصل عادة إلى الدمار. عبر مشاهد متعددة ترتسم الخطيئة على سرير المعصية، ونكاد نختنق تارة برائحة الدخان، أو نسمع فحيح أفعى تحوم في الجوار. عبر مشاهد تتصارع فيها المعاني المتضادة، ليسدل الستار على مشهد التوبة والندم والرجوع، ونلتقط نحن أنفاسنا وقد كادت تتقطع أسفاً على ذلك التائه المتخبط في الظلمة.

لكن الكاتب لا يرحل قبل أن يحملنا المسؤولية، ويضع على عاتقنا أمانة التغيير. فلا نكتفي بعد اليوم بدور المشاهد الآسف، أو اللائم الحذر، مادام بإمكاننا أن نمد أيدينا، وننقذ شخصاً تائهاً من دوامة التيه والضلال.

**تسعة من عشرة**

إبحار في عالم الغربة والغرباء، ونداء من عمق الألم، مليء بغيرة الأخ المشفق على أخيه من ضياع الهوية في لوثة الافتتان بالغرب، والانجراف في هاويته، وما يترتب على ذلك من فقد للارتباط بالدين، بالوطن، بجوهر الحياة وغايتها.

وهو دعوة للثبات، للتمسك بالجوهر، على كل العوائق والصعوبات.

قد تختلف أنواع الغربة، لكن لا يوجد أشد من غربة المؤمن عن دينه، واغترابه عن حقيقة إيمانه.

في الكتاب يتمسك العمري بنسبة الواحد من عشرة، ويراه ربحاً حقيقياً، إنه الشخص الثابت الذي لم تنحل شخصيته في قوالب أخرى، بل حافظ على نفسه وصمد، وكالنجم أضاء وسطع، في أحلك الأمكنة وأشدها ظلمة.

**أدرينالين**

وقفة يحتاجها كل شخص منا، كيلا يتحول يوماً إلى كائن صخري أصم، هويته مسلم، وعاداته وعباداته تنتمي بشكل أو بآخر للإسلام، لكن كل شيء يذوب ويتلاشى في لحظة التزام للصمت، وسكوت عن إنكار منكر...

إنها الغيرة، حين تُنتزع من القلب، فعندها تحين ساعة الوفاة الحقيقية للفرد، للمجتمع ككل.

لا يقيس الكاتب موت المرء بتوقف نبضات قلبه، بل بتلاشي تلك الغيرة التي إن نبضت في العروق أثرت في القلب والجوارح، في ردات الفعل، فوجهت الغضب إلى مساره الصحيح فجعلته فاعلاً إيجابياً، فحركت السكون المريب، وأنطقت حروف الاعتراض على الخطأ، وصححت المسار، وغيّرت مجرى الحياة.

**الذين لم يولدوا بعد**

مواسم العبادة والطاعة تتجدد، ومعها تتجدد أيضاً الدعوات للإصلاح، وتغيير الذات إلى الأفضل.

لكن هذا الكتاب تحديداً، أحدث تغييراً من نوع مختلف، في عمقه وصدقه وشفافيته.

ففيه دعوة لفتح القلوب المغلّقة بأقفال شتّى، دعوة لأن يكون رمضان هذا العام مختلفاً عن أيّ رمضان آخر، إذا عُقد العزم على اغتنامه كما يجب، واستغلاله أداة حقيقية للنهوض.

إنها دعوة جادة لكل شخص في أن يولد من جديد، وأن يفتح صفحة بيضاء ناصعة من حياته، وتحذير لمن سيصومه بامتناعه فقط عن الطعام والشراب، في أنه سيبقى مكانه، يراقب مواكب العابرين، ويتجرع حسرة إقفال أبواب قلبه، ليأتي رمضان ويغادر، فلا يفتح له، ولا يولد معه وبه.

**كش ملك**

صراع الأبيض والأسود في الحياة، النّور والظلمة، الخير والشر، الإيمان والكفر.

صراعنا الأزلي مع إبليس الذي لا يكلّ من التلاعب بنا، وهو الخبير المحترف العارف بتكتيك لعبته.

لكن الغلبة والنصرة لا تكون إلا لمن يفهم مداخله الكثيرة والمتشعبة، تلك المداخل التي كثيراً ما تخدع وتبهر، فينصاع المرء إليها دون بصيرة. ولذلك، فلا تتحقق الغلبة عليها إلا بإعمال العقل، والصعود بالفكر مع تطورات اللعبة، وعبر إيقاظ كل حواسه النائمة، مستعيناً بسلاح الإيمان، باحثاً عن حقيقته.

**الفردوس المستعار والفردوس المستعاد**

رسالة في قنينة مُذهّبة عثرت عليها عند شاطئ ساحر، وأخرى التقطتها وسط الرّكام. الأولى طبعت كلماتها عبر الحاسوب بخط جامد متكلّف، حملت في مضمونها صورة مبهرة للحضارة والتقدم، للحصول على ماديات شتّى، وكُتب في الهامش بخطٍّ واضح بأنها روح الحياة، وترياق السعادة، والفردوس المفقود! وفي الأخرى كانت رسالة الإنسانية، ونداءات الروح، ودعوة لفردوسٍ مختلف، عبر رحلة للعقل بحثاً وتأملاً وتحليلاً واستنتاجاً وعملاً. وبالمقارنة بين الرسالتين، وفحوى الدعوتين يقع المرء في حيرة الاختيار. وتبقى القلوب الحيّة تتخير الدرب الأصعب، وتحدي المعوقات، مستجيبة ومفضلة لإرادة الحياة في داخلها، عن قرار الموت في رخاء المادة ومغرياتها.

الكتاب يسمي الأشياء بأسمائها، رسالة تُحطّم الحلم الأمريكي، المرسل إلينا في زجاجة، وتُحجّمه بكل ما يحمله من قيم مغرية.

إنه يدفع كل شخص منا للتفكير بعقلانية، قبل الانجراف مع التيار، ويساعدنا على أن يصنع كل شخص منا قنينته الخاصة، ويكتب فيها رسالته في الحياة، ولكن على أن تنبثق بما يتوافق مع ثقافته وفكره.

**ليلة سقوط بغداد**

لا أبالغ إن قلت إن هذا الكتاب قد صيغ بحبر من دم القلب، جسد فيه كاتبه أصدق المشاعر، وأكثرها صعوبة في التعبير على قلب المرء، وهو يرى مدينته الحبيبة تعاني الأوجاع والألم.

وحين يكتب القلب يتجلى الجمال، وتصل الرسالة أسرع مما نتوقع.

الكتاب كنز للتاريخ، فيه توصيف لحظة لا تُنسى، بآثارها وتبعاتها، ورسالة تحمل الألم، تُنبته كزهرة ياسمين فوق تلّ من الركام، لتوصل للعالم كله صمود هذا الشعب الأصيل، وإصراره على البقاء، ليس مجرد بقاء من أجل الحياة، بل من أجل صناعتها، وهذا هو مركز القوة والتأثير والجمال في الكتاب.

**كيمياء الصّلاة**

سلسلة مترابطة، لا تفرّقها إلا الأغلفة، فكأنها كتابٌ واحدٌ دسمٌ أراد أن يقدّم نفسه على دفعات، كي يسهل معه الهضم، وتحصل الفائدة.

إنها عبارة عن جسم مترابط، لكل عضو منه وظيفة، ولكل وظيفة إنجاز، ولكل إنجاز جوهر.

العنوان يبدو غريباً للوهلة الأولى، وقد يتساءل القارئ: ما الرابط بين الكيمياء والصلاة؟!

يجيبُ الكاتب ببساطة، بأنها الباعثة لشحنة النهضة وقيمها ومعانيها، باعتبارها التي تجمع بين الفكر والسلوك.

إنه عمل عبقري يعيد لعبادة الصلاة شيئاً من معانيها الضائعة، لتغدو العمل الأساسي الذي يشحذ الهمم، ويجيش الجيوش، توثباً لانطلاقة قوية نحو النهضة.

الكاتب لا يصوغ عمله من فراغ، إنه- كعادته - يأسرنا ما بين خاطرة وحادثة ووقفة، ليظهر روعة الترابط في ديننا الحنيف، ويقودنا نحو فهم شمولي، يفرد للعبادة مجالاً واسعاً لتبني وتُزهر وتُثمر في كل قلب.

**البوصلة القرآنية**

كتاب متفرد بطرح الأفكار، قد يُحدثُ انقلاباً أو زَلزالاً للوهلة الأولى في نفس كل منا، فنشعر لوهلة أننا نسبح في فراغ، وبأن الطريق مظلمة، والوصول عسير، لكنه يعود بمؤشر البوصلة ليشير نحو الدرب الصحيح، نحو العودة للقرآن الكريم أصلاً ومنهجاً، ونحو كسر الجمود العقلي الذي لازم المسلمين دهوراً، فقادهم إلى الانحطاط.

منطلقاً من كلمة انبثقت في غار مظلم، فأضاءت الأرض، كلمة (اقرأ) تتمثل الدعوة جليّة واضحة، اقرأ لتتدبر، أعمل عقلك، حلل، استنبط، تساءل، استفسر، واجه، وازن...

كلها أمور تجلت في الخطاب القرآني للمسلمين، قد غُيبت عن أذهانهم، ليعتمدوا على التلقي الجاهز لكل شيء، وليعيشوا التدهور بكل أركانه.

البوصلة تشير إلى مكان الخريطة المفقودة، وفي الخريطة يوجد الطريق إلى الكنز، ذلك المدفون في أعماق كل واحد منا، الرحلة شاقة متعبة، لكن الوصول بالتأكيد هو الأجمل...

وما بين الأمس واليوم والغد نتوقف لحظة، لنراجع خرائطنا، ثم نعيد المحاولة.

**أبي اسمه إبراهيم**

في هذه الرواية شعرت أن العمري الأب يتحدث بعاطفته وعطفه، بمحبته وغيرته، وبكل الحنان الإيجابي الذي يمتلكه، فهو يحكي لأطفاله حكاية موغلة في القدم، يحاولُ جاهداً الوصول بهم إلى أعمق نقطة ممكنة من الفكرة. فيحطم أصناماً كثيرة في عصرنا، كما حطم إبراهيم الأصنام بيد ثابتة، وقلب مؤمن.

البداية بدت خجولة، لكن القلم انطلق بعدها ليبرز الجمال الحقيقي، ويكتب بقوة، ويبذل بعطاء.

لستُ شخصياً ممن يشجعون على إعمال الخيال بشكل موسع في قصص الأنبياء. ولعلي أكون في وجهة نظري مخطئة، لكن سأغض الطرف عنها قليلاً وأعترف بأن شخصية الطفل إبراهيم عبرت عن نفسها ببراعة، وأوصلت الفكرة بتميز وجلاء، فأضاف الكاتبُ عن طريقها عملاً جيداً يثري المكتبة والعقل في آنٍ معاً.

**ألواح ودُسُر**

هذه الرواية أسرتني، في فنيّاتها، وأسلوبها، في ابتكار الفكرة، وطريقة صياغتها.

جعلتني أحلم أن أكون يوماً كالنورس أو الأفق، ولعلي كنتُ فعلاً كذلك وأنا أتابع مجريات أحداثها.

كما كنتُ أحاولُ مراقبة طولي أنا الأخرى، تماماً كما فعل الطفل نور، مع كل عمل ينجزه. شعرت في لحظات بتقزّمي، وفي أخرى خيّل إليّ أنني أعيش زمن العمالقة.

ومع كل لوح كان يثبته نوح في السفينة، كانت خفقات قلبي تزداد، خشية من الطوفان القادم، أفكر بنفسي، هل سأستحق صعود سفينة النجاة، وهل سأتمكن من أخذ أحبابي معي، أم سأدعهم للغرق والهلاك.

رواية أمدتني بكل هذه الأحاسيس، ووهبتني معانيَ كثيرة عبر كل مقطع، حتى خلتُ أنها أمواج دافعة للأمام، سيراً نحو جزيرة آمنة. هناك حيث سترسو السفينة يوماً، وتولد حياة جديدة عامرة بالخير والجمال.

**جيل الشباب والأمل المعقود**

يصعب على المرء تحديد عمر الكاتب عن طريق كتاب، فالعقول لا تُقاسُ بالأعمار، كما أن العطاء لا يحسب بالأرقام.

وحين قرأت له في المرة الأولى تخيلته شخصاً قد ناهز الستين من العمر، وحين عرفت أنه من جيل الشباب لم أخفِ سعادتي؛ ذلك لأنه كسر الرؤية القديمة السائدة حول جيلنا المتخبط الضائع، ومن ناحية أخرى فأمامه المستقبل يضيء طريقه بإذن الله، ليقدم الأفضل والأجمل، مما ننتظره منه، ونترقبه من فكره الثري.

لقد استطاع الدكتور أحمد خيري العمري بتوفيق الله أن يكون رمزاً إيجابياً لجيل الشباب، الذي تفاعل معه، وتأثر برسالته، وتشرّب أفكاره. أقرأ ذلك في حماسهم أثناء مناقشة فكرة أرسلها، أو مقالة كتبها، وقد أجد من يوافقه أو يعارضه، وهذا بحد ذاته أمر إيجابي، لأنه استطاع أن يوصل رسالته، ويحرك الجمود السائد في العقول المتلقية على أي حال، وهذه هي الوسيلة الأهم للتغيير.

**التكريم هو البداية فقط**

رائع أن نكرم المبدعين وهم في أوج عطائهم، أن نخبرهم بأننا نقدر كل لحظة تعب ومشقة يجهدون بها أنفسهم، لإيصال فكرة، أو تصحيح مسار، والأروع أن نتفاعل معهم بشكل عملي على أرض الواقع، فنخرج الكلمات من سجون الكتب، ونطلقها طيوراً حرّة في الآفاق. وإن كنا في الحقيقة نكرم أنفسنا عبرهم، فتكريم الدكتور أحمد خيري العمري هو تكريم لكل عقل مسلم مبدع، بل لكل إنسان مسلم حي توّاق لهدم المعاني الجاهلية في هذا العصر، وبناء مجد إسلامي راسخ وأصيل مبني على الفهم الصحيح للإسلام.

فله نرجو التوفيق في كل عمل جديد يقدمه، وكل فكرة نهضوية يغرسها، ونقول له بأننا ننتظر الأجمل دائماً، الأجمل الذي لم يأتِ بعد!

# الدخول إلى عقل القارئ - رغماً عنه!!!

**ريما محمد أنيس الحكيم ***

في زحمة الكلمات التي تملأ أفق الأدب، ومن بين جموع الحروف المحتشدة عند أبواب الكتب.. تنبثق كلماتٌ مشعة تنير دروب قارئيها وتعلن نفسها منارة لهم على طول الطريق...

**إنه ضوءٌ في المجرة..**

ما زلتُ أذكر بداية قراءتي لتلك الكلمات، كانت في أواخر عام 2005، حين اشتريتُ كتابين من سلسلة (ضوء في المجرة) أحدهما كان اسمه (أدرينالين) والآخر (الذين لم يولدوا بعد).. ولكنني كنت قد اشتريتهما مع عدة كتب أخرى مهمة لدراستي، فتأخرت في قراءتهما قليلاً ريثما أنهيتُ الكتب الأخرى، بدأت بـ (الذين لم يولدوا بعد).. شدتني المقدمة التي لم تكن مقدمة اعتيادية أبداً.. شدتني الكلمات التي دعتنا أن نُغير من حالنا..

وكان دخوله إلى عقلي.. دون استئذان..

كانت نقطة دخول كلماته إلى تفكيري دون أن أشعر..

كانت بداية تناغمي مع كلماته الجديدة.. تلك التي انسجمت مع تفكيري.. وأعطتني أملاً بأن هناك من الكتاب من يفهم علينا نحن الشباب.. هناك من وجد لنفسه نقطة الدخول إلى عقولنا بشكل نهضوي إسلامي دون الحاجة إلى الكتابة بمصطلحات الفقه والعقيدة وأصول الشريعة..

**ومنسوبٌ لعُمر!!!**

وتأملتُ في اسمه أكثر.. «د.أحمد خيري العمري».. وقرأت ملخصاً عن سيرته على الكتب.. «العمري».. تفاءلت كثيراً بهذه الكنية.. ذكرتني بسيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه .. (عمر) قدوتي، هو ذاك الرجل الذي أحبه من كل قلبي، وأشعر بفقدانه في عصرنا الحالي.. (عُمر) الذي بحثتُ كثيراً عمن يشبهه وكلي يقين بأننا نحتاج رجلاً مثله ليساعدنا على النهضة في زمنٍ فُقِد فيه الرجال..

سيرته المكتوبة كانت مختصرة جداً.. لم يُكتب فيها عنه إلا أمور بسيطة.. لكنني كنت أريد أن أعرف أكثر عن هذا الطبيب الأديب، من هو؟ من أين هو؟ وما هذا الأسلوب الرائع في كتاباته؟ ولماذا لم أعرفه حتى الآن وأنا القارئة النهمة للكتب عادة؟!..

**الإبداع العراقي..**

حاولت أن أعرف عنه ممن هم حولي.. فاكتشفت أن أغلبهم لا يعرفه!!.. حاولت سؤال أساتذتي فلم يعرفوه.. فذهبت إلى دار الفكر، الدار التي اشتريتُ منها كتبه، وحصلتُ على أغلب كتبه الموجودة في الدار، وسألتُ عنه الموظف في المكتبة فقال لي إنه عراقي الأصل.. ولم يمض عليه وقتٌ طويل في الشام..

عندما علمتُ أنه عراقي أحببتُ هذه الحقيقة جداً.. ذلك أنني في خضم قراءاتي المتعددة كنت معجبة جداً بكتب الأستاذ العراقي محمد أحمد الراشد وبأفكاره الرائعة في صناعة الحياة، وبأسلوبه الجديد في الدعوة إلى الله..

أيقنتُ يومها أن الإبداع العراقي فريدٌ من نوعه، وأنه يحمل أسلوباً راقياً وجمالاً فريداً متميزاً.. وأن الأفكار التي تحملها كتابات العراقيين أفكار جديدة..

ولما كان عمر الأستاذ الراشد يقارب السبعين.. فإنني لا أدري لماذا خطر في بالي أن الدكتور العمري أيضاً يقارب هذا العمر، وعندما تعمقت في قراءتي لكتبه أكثر كنت أزداد يقيناً أن رجلاً يحمل هذا العمق في كتاباته لا بد أن يكون كبيراً في السن، خصوصاً أننا اعتدنا أن من يصل إلى هذه الدرجة في العمق وسعة الأفق لن يكون شاباً..

عندما قرأتُ رواية (أبي اسمه إبراهيم)، وجدت على غلافها عنوان البريد الإلكتروني للدكتور العمري، فسررتُ كثيراً، وسارعتُ بإرسال رسالة إليه أخبره فيها عن مدى تأثري بأفكاره الرائعة حول النهضة، ومدى روعة كتاباته وجمال أسلوبه.. وجاءني منه الرد بغاية اللطف والرقة يخبرني أنه يتشرف بجميع القراء ويسره التواصل معهم..

وكانت بداية تواصلي معه عبر الإنترنت.. وبعد مدةٍ من هذا التواصل أحببتُ أن أجري معه حواراً يفيد الموقع الإلكتروني الذي أديره، فأرسلت إليه رسالة بهذا الخصوص، ووافق على الموضوع، وأجريتُ معه حواراً في غاية الروعة تجدونه منشوراً في موقع رسالتي وفي موقعه الشخصي (القرآن من أجل النهضة).

ما زلتُ أذكر صدمتي بالدكتور العمري عندما رأيته، ذلك أنني كنت أظنه رجلاً عجوزاً في السبعين من عمره، فوجدتُهُ شاباً في أواخر الثلاثينيات.. لم أتوقع أبداً أن كل هذا الإبداع قد تفجر من قلب شابٍّ بهذا العمر.. ولم أتخيل أن هذه الأفكار قد تفتق عنها عقل شاب طبيب لم يدرس الدعوة في الجامعات، ولم يمارسها عبر المنابر..

سبحان الله!! كيف استطاع هذا الطبيب أن يكون داعية بحق وينافس دعاةً درسوا علوم الشريعة وخطبوا على المنابر، بل يسبقهم بأفكاره وإبداعه في عرض الدعوة وممارستها عبر الكتابة؟!

**حواري معه..**

كان حواري مع الدكتور العمري نقلة نوعية بالنسبة إلي، تعرفت من خلاله على شخصية في قمة الأدب واللطف والذوق والتواضع، شخصية تملك من جاذبية الأفكار ما يضاهي علماء العصور السابقة الذين جذبوا بأفكارهم الناس حتى عصورنا الحديثة.. تعرفت من خلال الحوار على إنسان يحمل في قلبه همَّ الدعوة بشكل كبير، ومستعدٌّ لممارسة الدعوة والعمل بها، تعرفتُ على إنسان يحمل في تفكيره الكثير من النقد لما يجري حولنا في نطاق الدعوة، النقد البناء، النقد المستعد لإيجاد حلولٍ لمشاكلنا الدعوية، ولا بد أن من يقرأ كتبه ومقالاته سيجد هذا ويراه في أثناء السطور، وفيما بين السطور..

لا يمكنني أن أنسى كلامه عن الشام خلال حواري معه حين سألتُه عن رأيه بالشام، حيث قال: «لن أخفي حبي الشديد للشام. ربما كلمة حب هنا قاصرة.. أنا " منحاز " للشام وللشوام أيضاً. انحياز يضم الحب طبعاً، ولكنه يضم أيضاً أشياء أخرى... هناك ما لا يمكن أن يتجاوز من اللطف والذوق الشاميين، الذي يميز حضارة الياسمين ، ربما لم يعد (الياسمين) موجوداً كما كان في البيوت الشامية القديمة، لكنه سكن ألسنة الشوام وجعل ذلك اللطف علامة مميزة لهم.

باختصار، الشام ( مروحنة ) جداً، حسب التعبير الشامي، إنها مدينة فيها حميمية من نوع خاص، وهذا يجعل انحيازي لها، أمراً حتمياً..».

وبغض النظر عن كوني من الشام، إلا أن كلامه هذا عنها يجعل من لا يعرفها يتشوق لرؤيتها والتعرف على أهلها.. ذكرني كلامه بعاشق الشام نزار قباني رحمه الله، ولكنني أقول له: إن حضارة الياسمين تفتخر بوجود إنسان مثلك فيها، وتُسرُّ بأنك جعلتها نقطة لبداية أعمالك وكتاباتك الدعوية الأدبية ..

**ليلة سقوط بغداد..**

عندما تضع عينك على حروفه تحتار في نقطة الانطلاق التي بُدئ بها عنده، تحتار في سر الإبداع الذي يشد عينيك إلى كلماته، تحاول أن تحيط بكل نقطة من نقاط حروفها خشية أن تهرب من عقلك كلمة.. وتعيد القراءة مرة أخرى.. فتقرأ معاني جديدة..

في كل كتاب له فكرة جديدة مختلفة عن السابقة، وكلما قرأت له مطبوعاً جديداً تجده يُفاجئك بمضمون جديد.. وكلما توغلت في أفكاره وجدت إبداعاً لم يُسبق وطريقة عرض لم تُطرق..

وكل كتبه التي قرأتُها أثرت بي وحملتني معاني غير مسبوقة.. ولكن أكثر كتبه التي أثرت بي كان كتابه: (ليلة سقوط بغداد)... الذي عرض فيه الدكتور العمري الأحداث التي واكبت سقوط بغداد منذ بداية الاحتلال الأمريكي للعراق حتى ما بعد سقوط بغداد بمدة قصيرة.. عرضها بطريقة أدبية مؤثرة، تجلى الصدق بين حروفه، مما يجعل القارئ للكتاب يشعر أثناء قراءته أنه يُعايش تلك الأحداث كما لو أنها تجري الآن أمامه.. يشعر بالناس، ويحس بإحساسهم، ويموت مع استشهاد كل فردٍ منهم، يشعر بالخوف عندما يخافون، وبالشجاعة حين يقفون بكل شجاعة أمام المحتل، ويبكي كل طفلٍ فُقد، وكل شابٍّ استشهد، وكل أم ثُكلت، وكل أب بكى..

وسقطت بغداد في الكتاب، فشعرت بسقوطها كما لو أنها سقطت أمام عيني، سقطت بغداد، فبكتها حضارة الياسمين، ولجأ أبناء بغداد إلى أحضان الشام، فما كان منها إلا أن ضمتهم إلى صدرها الحنون وربتت على رؤوسهم وهي تحاول سحب الخوف الذي يبرق في عيونهم.. وكان أن سكن الشام هذا الإنسان يحمل معه بذور النهضة من بغداد.. ونثرها في الشام.. فكبرت ونمت.. وكانت بدايته..

**ضوء في المجرة.. مرة أخرى!!**

«أفكار السلسلة عموماً مقاربة للموجود في موضوعات الدعوة والوعظ، لكني كنت أشعر، ومنذ زمن بعيد، أن تكرار النمط الواحد في الوعظ، قد جعله يكفّ عن التأثير في الكثير من الناس، خصوصاً الناس (غير الملتزمين) الذين يجب أن يكون الخطاب موجهاً إليهم!.. لذلك حرصت، في السلسلة، على تقديم نمط مختلف في الأسلوب، نمط شخصي وحميم، يقدم الفكرة نفسها، ولكن من مدخل آخر..».

عندما أخبرني الدكتور العمري بهذا الكلام عن السلسلة.. شعرت بكلامه حقيقة واقعة.. ذلك أن جيلنا الحالي لم يعد يتأثر بكلمات الوعظ إلا تأثراً بسيطاً جداً، ويكاد يكون تأثراً آنياً في لحظة الوعظ فقط، ثم لا يلبث أن ينساه ويعود لحياته بعد انتهائه.. أما كلمات تلك السلسلة المؤلفة من ستة كتب متنوعة الأفكار، فكانت مؤثرة وواقعية.. صحيح أن بعض الأفكار فيها كانت أفكاراً معروفة، إلا أن الأسلوب كان أسلوباً يُشعر القارئ بأن هذا الكاتب يشعر بشعوره كما لو أنه معه، حين كنت أقرأ كتب السلسلة كنت أشعر كما لو أنه يخاطبني أنا فقط، كما لو أنها كُتبت لي، ويبدو أن هذا الشعور كان قد رافق كل من قرأها، ذلك أن العديدين ممن قرؤوها أخبروني بالكلام نفسه عنها..

وما كُتب على الغلاف الخلفي للسلسلة يشرح ما شعرنا به نحن القراء:

**[إنها رسائل مكتوبة من أجل إنسان واحد فقط، لكنه إنسان حقيقي: قد يكون أي واحد منا، بكل خفاياه وخباياه وخطاياه ورغباته وخيره وشره]..**

كلمات السلسلة كانت مؤثرة وتحمل في حروفها صدقاً استقر في قلوبنا ونحن نقرؤها، مما جعلنا نشعر بها ونحاول تطبيقها واقعياً.. ويبدو أن إخلاص الدكتور العمري هو ما جعلها تحمل هذا التأثير الكبير الذي نُقل عبر صفحاتها إلى عقولنا..

وها هو ذا.. يدخل إلى عقولنا مرة أخرى.. دون استئذان...

**إلى جيل آخر... قادمٍ لا محالة...**

بهذه العبارة افتتح الدكتور العمري كتابه (البوصلة القرآنية).. حيث جعل الإهداء كله عبارتين هما:

**«إهداء.... - إلى جيلٍ آخر.. قادم لا محالة....»**

لن أعرض ما في الكتاب من بحوث كانت غاية في الروعة وسلاسة الأسلوب، والتي اختصرها الدكتور العمري خلال حواري معه بكلمتين حين قال عن الكتاب باختصار: «لا نهضة إلا بالقرآن**!**، لكن الكتاب استغرق 600 صفحة في تكريس ذلك**!**»..

لكنني أريد أن أتحدث عن هذا الإهداء، غير الاعتيادي.. الذي حمل الكثير من التفاؤل والأمل بجيل جديد..

كثيراً ما أسأل نفسي، هل سنكون ضمن هذا الجيل.. هل ستكون أعمالنا وأفعالنا وأفكارنا وأحلامنا وطموحاتنا وآمالنا بطاقات لانتسابنا إلى هذا الجيل القادم لا محالة؟؟ وهل سننتسب إلى هذا الجيل القادم.. وعلى أقل تقدير.. هل سنستطيع بذر نواة الجيل القادم؟ وهذا أضعف الإيمان؟؟!!

يُدخلني هذا الإهداء في دوامة من الأسئلة.. لم أجد الجواب عنها حين قرأته في البداية.. لكنني من خلال تعاملي مع جيل آخر للمرة الأولى، ضمن عملي مدرسة لأحد الصفوف الثانوية، وجدت معنى إهداء الدكتور العمري حاضراً.. ذلك أنني وجدتُ بذور النهضة في هذا الجيل.. وجدتُ فتيات في عمر الورود يحملن الفكرة التي أحملها، فجعلتهن يقرأن كتباً للعمري، ورأيت مدى انسجامهن معها..

قمة الروعة كانت حين أتت إلي إحدى الفتيات وأخبرتني بأنها تأثرت كثيراً بهذا الإهداء في بداية (البوصلة القرآنية).. وقالت لي: «هل سنكون ضمن هذا الجيل القادم لا محالة؟؟»...

أبكتني كلماتها وهزتني في أعماقي.. جعلتني أحمل أملاً جديداً.. وجعلتني أحلم بأن يكون كل جيل من أجيالنا جيلاً قادماً لا محالة.. ريثما يأتي الجيل القادم.. ولكن؛ هل سنراه بعيوننا.. هل سأرى الجيل القادم؟؟!!

دخل كتاب البوصلة إلى عقلي منذ صفحاته الأولى.. منذ قراءة الإهداء..

دخل إلى عقولنا دون استئذان.. رغماً عنا.. لكنه كان دخولاً يفتح العقول لتحمل بذور النهضة.. ويا ليت كل أفكار النهضة تدخل إلى عقولنا رغماً عنا...

**بعض الكلمات ترعب....**

[الكلمة تخيف.. وبعض الكلمات ترعب..

والكلمة مسؤولية.... والمسؤولية لها ما وراءها..

وحين تصدر الكلمة، وتكون أحياناً كالقنبلة التي تُحدث الانفجار، حين ذلك لا يمكن أن ترجع أو تُسترجع.

على أن أجزاء هذه السلسلة ليست قنابل، ولا تُحدث الأذى، ولكنها أجراس قوية وضعيفة تُوقظ النائمين، وتُنبه الغافلين، وتهدي الحيارى].

لا أدري لماذا أعود لسلسلة ضوء في المجرة كلما فكرت في كتب الدكتور العمري.. وأتذكر هذه الكلمات التي كتبها الناشر في تقديمه لها، ربما لأنها كلمات نطقت بالحقيقة.. وربما لأننا يمكننا أن نطبقها على كل كتب الدكتور العمري وأفكاره ومقالاته..

ربما لأن كلماته ترعب فعلاً.. خصوصاً حين أذكر شاباً قرأ كتاباً من تلك السلسلة: (تسعة من عشرة).. وحين وصل إلى الصفحة التي كتب فيها الدكتور العمري عن القرار الذي على المهاجر أن يتخذه: العودة أم الهجرة.. قال ذلك الشاب بأعلى صوته: «بل العودة.. العودة.. العودة».

نعم.. كلماته تخيف وتشعرنا بالمسؤولية.. كيف لا وقد صرنا نرى الهدهد الغيران يطير إلينا من كتاب (أدرينالين) ليشعرنا بمسؤولية ما يحدث حولنا؟؟!!

إنها تنبه الغافلين.. واقرأ (الذين لم يولدوا بعد) لتتنبه من أجل رمضان.. وتعلم ما هو رمضان؟ وتفتح الأبواب لرمضان.. بعد أن تتأهب له وتستعد لملاقاته بشكل جميل...

**لكنها قنابل..**

قنابل الكلمات عادةً لا تنفجر إلا في عقول القراء.. حيث تتناغم مع أفكارهم وتنفجر لتجد لها مكاناً واسعاً في العقول لا تزول عنه ولا تتركه.. وحين تنفر الكلمات تستوعب محلها.. وتبقى في مكانها، وتعلن احتلالها وامتلاكها للعقل، وعندها لا فرار للقارئ من تطبيقها، خصوصاً عندما تحتل عقله باقتناعه بها، فتمتلك قلبه الذي يسعى نحو تحقيقها..

هكذا كلمات الدكتور العمري، سواء في كتبه ومقالاته.. إنها قنابل تقنع عقل القارئ وتلوذ به ليسعى نحو تحقيقها على أرض الواقع.. إنها محطات نور على الدروب تنير للسائر طريقه في دروب الدعوة التي يمضي بها..

إنها كلماتٌ تحمل من المعاني ما يجعل الشباب يتأثرون بها.. ولأن الأجيال الجديدة لم تعد تقبل بالوعظ التقليدي، كانت كلمات العمري محطات احتلت عقول القراء الجدد من الجيل الجديد لابتعادها تماماً عن الوعظ الاعتيادي..

لقد نزل الدكتور العمري بكلماته عن منبر الوعظ إلى مقعد النصيحة والكلمة الصادقة في درب الدعوة.. فكان لكلماته صداها الحالي.. وكان لكتبه تأثيرها في الشباب الجديد..

ومن خلال تعاملي مع بعض الشابات من خلال عملي التدريسي، ونقاشي معهن لكتبه رأيت مدى تأثيره الكبير بهن.. ولن أنسى موقفاً بيني وبين إحداهن حيث قالت لي: «كلماته لا تبذر بذور النهضة فقط، بل إنها ترويها وتسقيها وتعتني بها ريثما تصبح شجرة كبيرة».. قلتُ لها: «نعم، كلامك صحيح»، فقالت: «ولكن للأسف، يحزنني أنني قد لا أكون من الجيل القادم لا محالة»، فقلت لها: «لعلك تكونين.. كوني متفائلة، إن كنتُ أنا متفائلة بأن أكون منهم، فكيف لا تكونين وبيننا من العمر أكثر من ست سنوات؟!»، فقالت: «على كل حال سأحاول نشر كلماته بين صديقاتي، لعلنا معاً نشكل الجيل القادم..»..

لقد أثرت كلماته في فتاة في عمر الورود بحيث جعلتها تحمل همَّ النهضة، وتفكر في كونها من الجيل القادم لا محالة.. وأعتقد أن هذا أكبر دليل على كون عباراته تحمل من الصدق ما جعلها تستقر في قلوب الناشئة قبل الكبار.. فكيف نرى بعض قلوب الكبار غافلة؟!

**إنها الكيمياء.. معادلات الكيمياء!!!**

فلمعادلات الكيمياء جاذبية خاصة عند البشر، بها حلموا بتحويل الحجارة إلى ذهب، وعن طريقها حولوا السوائل إلى غازات.. كيف لا وهي المعادلات السحرية؟؟

عن طريقها حول الدكتور العمري الصلاة من مجرد عادة يمارسها أغلبنا دون روح، إلى عبادات تنهض بنا وتسمو بحياتنا.. عن طريقها كتب كتابه الرائع: (كيمياء الصلاة)..

وأذكر مناقشة جرت بيني وبين مجموعة من الأصدقاء كان محورها عن هذا الأمر وعن أن الصلاة في حياتنا قد تحولت من عبادة إلى مجرد عادة نؤديها بسرعة لنعود إلى أعمالنا الأخرى.. ما زلت أذكر قولاً قالته إحدى الصديقات: «أشعر بأننا نؤدي الصلاة كنوع من إرضاء الضمير.. بمعنى أننا نصلي كي لا يؤنبنا ضميرنا أننا لم نُصلِّ..»..

يبدو أن كلامها صحيح، فعلاً معظم الناس باتوا يصلون وهم فاقدون للروح التي كان يجب أن ترافقهم أثناء تأديتهم لصلواتهم، تلك الروح المتوقدة التي تشعل فينا نور الإيمان عبر الصلاة، وتضيء لنا الوقت ما بين الصلاة والصلاة.. تلك الروح التي ستنهض بأمتنا وتعيننا على فهم شعيرة الصلاة بشكل يجعلها لبنة هامة تعيننا على نهضة أمتنا..

كيمياء الصلاة كتاب برع في شرح أدق تفاصيل الصلاة وربطها بفكرة التغيير، ليكون ذاك وسيلة لتغيير الذات من أجل تغيير المجتمع ككل.. الصلاة شعيرة نهضة.. لا مجرد حكمٍ فقهي مفروض على كل مسلم ومسلمة...

أهديت الكتاب لفتاة من الفتيات اللواتي يحاولن تعلم الصلاة والقيام بها، ولما قرأته قالت لي أنها ترى في الصلاة معنى جديداً مختلفاً عما أخبرها به الآخرون عن الصلاة وأهمية القيام بها، وأنها صارت ترى فيها أساساً للعلاقة مع الله والصلة به، ولكن بمعنى جديد، معنى قد لا نجده عند الواعظين التقليديين..

عندما قالت لي ذلك الكلام أثلجت صدري، ربما لأننا بطبيعتنا حين نتعامل مع أولئك الذين لا يصلون أو من تركوا أمراً مهماً من أمور الدين فإننا بطبيعتنا نتألم من قلوبنا ونحاول أن نكون سبباً في إدخالهم جنة التطبيق لفروض الله وأوامره..

وحين نرى بارقة أمل في أحدهم، فإننا نشعر بأن هذه البارقة تكفينا لتمد عمرنا بعمر جديد، فكيف إن صدرت تلك البارقة عمن نحاول زرع بذور النهضة فيهم، بل كيف وهي تنبت من كتاب أحببناه، وتتناغم مع أفكارنا بحيث نشعر كما لو أننا نتمنى أن نتكلم بتلك الأفكار منذ زمن، لكن أعيتنا كلماتنا وقيدتنا عباراتنا وألسنتنا، وها نحن أولاء نقرؤها على لسان إنسان من أشد الناس حملاً لبذور النهضة في جيلنا، وأكثرهم محاولة لزرعها في حقول أفكارنا، وأولهم ركضاً لسقي تلك البذور وإمدادها بنور الكلمات التي ستساعدها لتكون جزءاً لا يتجزأ من تلك النهضة المنشودة.....

**وأخيراً.. عندما تُضَمُّ الألواح والدسر!!!**

آخر كتب الدكتور العمري كانت رواية تحمل اسم: (ألواح ودسر)..

حيث تُضَمُّ الألواح للدسر، وتكون سفينة النجاة من الطوفان، لتبدأ رحلة الحياة عبر الإبحار في بحر الظلام، وتُنار السفينة بنور راكبيها، وكل راكب فيها يحمل في قلبه بذرة للنهضة، فتتجمع البذور معاً وتشكل نور الدرب...

**نورٌ يلوح في الأفق...**

لا أدري بماذا يمكنني أن أختم مقالتي التي بدأتها بحروف من نور.. لأكتب كلمات.. عن كلمات ليست كالكلمات!!!..

وأي كلمات هي التي تستطيع أن تصف إبداعاً يتمثل في كل حرف نقرؤه في كتب الدكتور (أحمد خيري العمري).. وفي كل عبارة تحمل مدد النهضة وتحاول زرع بذورها..

لن أقول إنني استطعت أن أصف كتب الدكتور العمري، ولن أدعي بأني استطعت أن أنقل لكم ما نشرته تلك الكتب من أفكار في عقلي، وما جسدته من إبداع..

ولكن يكفيني أنني استطعت أن أنقل بعضاً مما رأيته من تفاعل للشباب مع نتاج الدكتور العمري الدعوي، ففي كل بريق كنت أراه في عين من يقرأ له، كنت أشعر بثمار البذور التي يحاول زرعها في العقول، وأراها متجسدة فيها، لعلها مع الأيام تنمو وتكبر وتصبح أشجار نهضة نفتخر بها جميعاً..

وما زالت نبضات الفتيات التي كنت أسمعها عندما يخبرنني بما أثرته كلماته فيهن في محيط سمعي، ما زلتُ أسمعها كلما قرأت كلماته التي أثرت فيهن وأنارت لهن درباً من دروبهن..

إن عملي مُدرسة للفتيات حيرني في البداية في نوعية المشروع الذي سأستطيع تقديمه لهن بالإضافة إلى منهجهن الدراسي، ولكن كتب الدكتور العمري أعانتني في تقديم كل كلمة من كلماته لحالة تهمها هذه الكلمة، وكان النجاح حليفي في معظم الحالات والحمد لله..

**وفي النهاية...**

أهدي كلامي لكل من يهمه أن يكون من الجيل القادم لامحالة.. وكلنا يهمنا أن نكون**!!**

أهدي كلماتي إليكم لنبدأ معاً حملة قراءة شاملة تعيننا على طريقنا وتنير دروبنا، نبدؤها بكتب الدكتور أحمد العمري، ونتممها بكتب مفكرين كثر ينهضون بنا، لنُكوِّن النهضة ونكونَ بذورها..

جزاكَ الله عنا كل خير حضرة الطبيب المفكر الأديب ( أحمد خيري العمري )، وسلم قلمك وأمده بنوره، وجعله سيالاً بنور النهضة دوماً.. كما اعتدناك..

# رواية أحمد عن مالك

**من رواية الحديث إلى رواية الفكر**

**قراءة في مقال: حدثنا مالك قال!**

**د. محمد موسى باباعمي**

حتى يُعدَّ الحديث صحيحاً، لا بدَّ أن يكون مستوفياً خمسةَ شروط، بعضُها يخصُّ الراوي وبعضها الآخر يَسقط على النصِّ؛ وهذه الشروط، كما نقلها علماء الحديث، وعلماء الجرح والتعديل بالخصوص، هي:

الأول : عدالة الراوي.

والثاني : حفظه وتمام ضبطه.

والثالث : اتصال إسناده.

والرابع : سلامته من الشذوذ.

والخامس : سلامته من العلة.

لكن، هل تساءل العلماء يوماً: ما هي شروط رواية الفكر ؟

يقيناً لو طبقنا الشروط نفسها التي ضُبطت في الحديث الشريف، فسنقترف الكثير من الأخطاء، هي ذاتُها الأخطاء التي يرزح فيها الفكر الإسلامي من لدن خلافة الأصحاب وتولي الأعراب للسلطة، إلى يوم الناس هذا.

الخطأ الأول : هو أننا نُعلي من مقام المروي عنه - حديثُ الفكر - إلى مقام النبوَّة، ونعتقد فيه عدم الخطأ، فنجعل من فكره تشريعاً، ثم نوظِّف، في الحكم على من خالفه، مصطلحاتٍ خطيرة مثل: (الكفر)، و(الفسق)، و(النفاق).... فيغدو التفكير - بعد ذلك- تكفيراً، والنقدُ فسقاً، والتغيير نفاقاً...

الخطأ الثاني : هو أننا، برواية الفكر وفق شروط رواية الحديث، نحنِّط العقول، ونبلِّد الذكاء، في ممالك اللاَّمعقول؛ ونقف أمام كلِّ تطور ونموٍّ، ونغنِّي لكلِّ جمود وخمود، في معابد البلادة والببغائية؛ مُستعينين - في ذلك - بنصوص حديثية صحيحة لفظاً، لكنَّ فهمنا لها سقيم معنى ومبنى، مثل حديث: " خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم ..."، وهو حديث دخل في زمرة المتواتر بهذا اللفظ، مع أنَّ الصحيح هو لفظ: " خير الناس قرني ..."...

وشتان بين دلالة (الناس) ودلالة (القرون)، الأولى دلالة مرجعية خاصَّة، والثانية دلالة زمنية عامَّة؛ وحاشى الرسول عليه السلام أن يعمِّم الحكم وهو الذي نهانا عن التعميم في قوله: " من قال هلك الناس فهو أهلَكُهم (أهلَكَهم) "، وفي قوله عليه السلام: " أشد الناس عذاباً يوم القيامة رجل هجا رجلاً، فهجا القبيلة بأسرها ".

الخطأ الثالث : في هذه الرواية الخطيرة للفكر على شاكلة الحديث، أن نجعل الموقف هو الأساس والحكمَ هو التبع،

ونقول: "بما أنَّ فلاناً قاله، أو فعله، فهو إذن صواب"، و:"فلان لا يقول ولا يفعل إلا الحقَّ"، و:"هو معصوم من الخطأ، إلا أنك لم تفهم"، و:"من تكون حتى تخطِّئه وتكتشف زلاته؟"... فيصير الحقُّ بذلك باسم الرواية، منوطاً بالجماعات، والمذاهب، والاتجاهات، والحركات... لا حقًّا حقيقاً، حرًّا شامخاً، عزيزاً قوياً... يصير الحقُّ بهذا مثل ذنب (الديك باشي) في المثل المصلاوي المشهور بالعراق...يصيرُ تبعاً للهوى، وللقوة، وللشهرة، وللاعتبارات السياسية، وللمصالح...

***

**هي ذات الشروط، ونزيد...**

غبي ذاك الذي يهدم دار جده ليبني داره، وأغبى منه ذاك الذي يبيع تراب وطنه ليشتري غيره... وأشدُّ غباء من الجميع ذاك الذي يبدأ طريق العلم من الصفر، ويعيد اكتشاف البارود وصياغة الحروف... كما لو أنَّه أوَّل نزيل على الأرض مع أبينا آدم عليه السلام...

الفكر بناءٌ، والعلم تراكمٌ، والحضارة تواصلٌ...

أمَّا الإقصاء فهو سياسة الضعفاء المهزوزين المهزومين، أولئك الذين قصُر نظرهم وضعف بصرُهم، حتى إنهم ليحجِّمون الدنيا، على سعتها، في حجم أرنبة أنفهم...

إننا لا نلغي شروط رواية الحديث، لكنَّنا نشد بالنواجذ على شرط (العدالة)، و(الضبط)، و(الحفظ)... في الراوي؛ وعلى شرط (السلامة من الشذوذ)، و(السلامة من العلة) في المرويِّ... أمَّا اتصال السند فقد كفتنا مؤونته تقنيات العصر، من طباعة وتسجيل، وتصوير، وتوثيق...

وإننا بعد ذلك نضيف شروطاً أخرى ينبغي على راوي الفكر أن تتوافر فيه، وهي:

الأول : الفهم الجيد الدقيق العميق.

الثاني : الرؤية الكلية الشمولية، بعيداً عن التجزيء والتفتيت والحَرفية...

الثالث : القدرة على تبني الصواب واتباع الحقِّ من أيّ جهة كان...

الرابع : النقد وتبيُّن مواطن الخطأ والزلل، مهما بدا المرويُّ عنه عظيماً أو كبيراً... فلا أحد يخلو علمه من هنات واختلافات، إلاَّ كلام الله تعالى؛ لقوله سبحانه: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا} [النساء: 4/82]، وكلامَ رسول الله عليه السلام؛ لقوله تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (*) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: 53/3-4] .

الخامس : الإبداع في ربط ما رُوي بخطٍّ منهجي، ونموذج معرفي، يكون دليلاً على الراوي وعلى الناقل: مميِّزاً لفكره وفعله، مبرِزاً الجديدَ الذي حباه الله به، والمختلِف الذي أودعه الله فيه... بلا غرور ولا ادعاء...

***

**وماذا عن رواية أحمد عن مالك؟**

المتتبع للأحاديث التي رواها الإمام أحمد في سننه عن الإمام مالك، يعرف أنَّه لم يرو عنه مباشرة، بل عن طريق الإمام الشافعيِّ... رضي الله عن الجميع؛ وثمة جملة من الأحاديث رواها أحمد عن الشافعي عن مالك...

الذي يعنينا في مقالنا هذا هو رواية (أحمد خيري العمري) عن (مالك بن نبي)، والتي هي رواية غير مباشرة كسابقتها؛ لكن بواسطة (الكتب) لا غير، فهو يقول عن أوَّل اتصال به:

" كنت في السابعة عشرة من عمري عندما تعرَّفت إلى مالك للمرَّة الأولى. ابتعتُ تلك النسخة القديمة المهملة (من كتاب شروط النهضة)، التي تنازل عنها صاحبها إلى سوق الكتب المستعمَلة.

لا أزال أذكر كيف هزني الكتاب، ولكن أيضاً كم شعرت بالإحباط المرِّ يجتاحني بعدما انتهيت من قراءته.....

شعرت بغم لا حدود له، لا لشيء، إلاَّ لأني لم أكن قد سمعت بمالك قبل ذلك، ولا حتى باسمه رغم أني كنت (دودة كتب) حقيقية، وقارضاً قديماً من قوارضها منذ أن تعلمت الأبجدية، وكان عدم معرفتي بمالك، ولا حتى باسمه، وهو بهذا الحجم الذي اصطدمت به منذ أوَّل كتاب، دليلاً على خلل كبير في الثقافة التي بدا لي أنها أمدتني بما هو خطأ ... لأقرضه"[5].

- لكن، ما الذي روى أحمد (العمري) عن مالك (بن نبي)؟

- وكيف روى عنه؟

- هل ردَّد مثل البعض مقولات مالك بالحرف، وسوَّق لها باللفظ، دون وعي ولا إدراك، ولا رابط يربطها؟

- أم هل قدَّس مالكاً، وتمذهب بمذهبه، فصار يرى العالَم من خلاله، ويقيس الأمور بمنظاره، غير آبه بما يلده الزمان من جديد؟

الحقُّ أنَّه حتَّى المترجمون لكتب مالك بن نبي، من مثل عبد الصبور شاهين وعمر مسقاوي، على ما يبدو في الترجمة من نقل للألفاظ والمعاني من لغة إلى لغة أخرى، لم يكونوا مجرَّد رواة حرفيين مجبَرين، بل كانوا مفكِّرين مخيَّرين... ينتقون أدقَّ الألفاظ لأبلغ المعاني...

أمَّا البعضُ ممن لم يفهم مالكاً، وروى عنه بأسلوب جافٍّ، فقد قطَّعوا أوصال فكرِ الرجل... قدَّسوه حيث لا ينبغي التقديس، وبجَّلوه وهو المبغض للتبجيل... فراحوا يطعِّمون ( greffer ) الليمونَ بالباذنجان، ولا أقول الليمون بالبرتقال... ولو أنَّ مالكاً كان حياً لألقمهم نقداً لا حجراً، ولقال: "إنكم شوهتم بَنات أفكاري، لا بارك الله في فعلكم"...

وفي هذا المعنى يقول العمري، تحت عنوان مثير، وهو (تحويل مالك إلى رف من رفوف المكتبة التقليدية)[6]:

".. وعليَّ هنا أن أقول: إنَّ ظاهرة الاهتمام (الأكاديمي) المتأخِّرة بمالك هي أمرٌ مقلق.

قد يبدو ذلك غريباً، وحريٌّ بي أن أعتبر هذا الاهتمام ردَّ اعتبار لرجل طالما عانى من الإهمال والإقصاء والعداء طيلة حياته، لكني رغم ذلك أجد الأمر مقلقاً وغير مريح على الإطلاق ..".

والعمري، في روايته لفكر مالك، تميز بالعديد من المميزات، وخالف هؤلاء في العديد من النقاط؛ ذلك الذي جعلَ منه راوياً للفكر من الطراز الأوَّل، ومبدعاً في الحضارة من الدرجة الأولى...

وأبرز خصائص هذه الرواية:

**أولاً- أنَّ الراوي لم يكن مفرداً، ولا ذاتاً، ولا واحداً... لكنه كان جمعاً، ومثالاً، ووحدة...**

فقد تقمَّص روح عصره بامتياز، ومثَّل جيله بجدارة؛ ثم قرأ مالكاً ضمن إطار عصره وجيله، فلم يخلط بين العصر والعصر، ولا بين الجيل والجيل...

وإذا كان مالك - بتفاؤله - قد قسَّم الأجيال المعاصرة إلى ثلاثة:

جيل جدِّه، الذي افتقد القضية والمعنى...

وجيل والده، الذي وجد القضية والمعنى، ولكنه أخفق في إبداع الكيفية...

وجيله، الذي جمع بين القضية والمعنى من جهة، والبحث في المنهج والكيفية من جهة أخرى... غير أنه يغادر بداية الطريق...

إذا كان هذا هو تقسيم مالك، فإنَّ أحمد قد ألحق بالتقسيم جيلاً جديداً، هو جيله هو، وليد السبعينيات... وجيلي أنا وليد سنة النكسة والهزيمة، سنة سبع وستين، فقال عن جيلنا[7]:

" أنتمي لجيل وُلد أو نشأ بعد وفاة مالك بن نبي، إنَّه الجيل الذي كبِر على انكسار الحلم العربي الكبير، الذي ازدهر في خمسينيات القرن الماضي: جيل الهزيمة والتخبط والتيه... الجيل الذي افتتح وعيه بهزيمة 1967، وضياع القدس، وكبر على الهزائم المتتالية منذ حصار بيروت إلى سقوط بغداد.

أنتمي إلى جيل هو جيل السقوط بلا منازع ولا جدال... جيل الإحباط واليأس من أي قدرة على أي تغيير... جيل فَقد الثقة في نفسه وفي كلِّ ما حوله، وتوّج تفاعله السلبي مع ظروفه بنماذج من الشباب أوصلهم فكرُهم إلى طريق مسدود واحد: الانفجار انتحاراً..

إنَّه جيل الإحباط بامتياز، هو هذا الجيل الذي أنتمي إليه، سواء كان هذا الإحباط انتحاراً مع كل الحجج التي تدعي الشريعة، أو تغريباً مدعوماً بسطوة الحلم الأمريكي المؤدلج، أو محض استسلام سلبي لكلِّ ما تأتي به رياح الظروف".

لو أنَّ أحمد (العمري) انتهى إلى هذه النقطة نتيجةَ لِما رواه عن مالك، لحاكمه التاريخ، ولَحاكمه جيلي، ولَحاكمه كلُّ مفكِّر حرٍّ مُريد... لكنَّه، ما كان ليفعل، وما ينبغي له... هذا ظنُّنا فيه، ولذلك رشَّحناه، ونرشِّحه اليوم للحديث عن جيلنا بامتياز، ولتمثيلنا في محافل الفكر العالمي والعربي والمحليِّ بلا منازع... لا ترشيح نائب لنوائب، لكن ترشيح خِرِّيت رائد لشدائد، والرائدُ - كما في المثل القديم - لا يكذِب أهله...

لله درُّ العمري حين لم يُخلف ظنَّنا، فما لبث - بعد هذه الاستثارة المنهجية - يعود ويقول[8]:

" لكن بما أنَّنا، واقعنا، وجيلي - تحديداً - وصلنا إلى ما يبدو أنَّه نقطة النهاية... فإنَّه صار لزاماً على واقعنا أن يتغيَّر، وأن يتخلَّى عن رموز خرابه ورُكامه، ويبحث عن خميرة لواقع آخر، خميرة لمستقبل (علينا) أن نجعله أفضل من واقعنا... وإلاَّ كنَّا مهدَّدين بخطر الانقراض.. بخطر ألاَّ يكون هناك مستقبل على الإطلاق ".

وماذا عن المرويِّ عنه مالك بن نبي؟

يقول العمري[9]:

" في نقطة كهذه على جيلي أن يلتقي بمالك...

ليس لقاء الصدفة، عند باعة الكتب المستعملة...

بل لقاء الحتمية، لقاءَ الضرورة التاريخية - والحضارية ...".

**ثانياً- أنَّ أحمد رأى في مالك اختلافاً جذرياً، خارج دائرة المألوف:**

ولذلك اهتمَّ به، وقرأ له، وقرأه، وأضاف إليه... تماماً كمن اكتشف أرضاً صلبة فراح يبني فوق أسسها المتينة بناءه، بلا خوف أن يقال (قلَّد)، ولا إيهام أنه هو الذي (جدَّد)... فالمهمُّ هو الفكر والحقُّ والصواب، والأهمُّ هو الحضارة والتمكين والنصرة... أمَّا الأسماء فهي مكونات أساسية، لكنها ليست ضرورية... وماذا يضير لو أنَّ حضارة الإسلام جاءت باسم فلان لا علان، أو أتت على يد علان لا بيد فلان؟

لا شيء، المهم أن تأتي، وكفى...

يقول الراوي في هذا الشأن مقيِّماً فكر المرويِّ عنه[10]:

"أستطيع أن أزعم أنَّ مالك بن نبي يمثِّل نسيجاً مختلفاً عن كلَ النسيج الثقافي العربي - الإسلامي، الذي فرض نفسه كرداء شرعي وحيد منذ أن بزغ تساؤل (لماذا تأخرنا، ولماذا تقدموا؟) أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ...

وعندما أقول إنَّه كان نسيجاً مختلفاً فإنِّي لا أضمر الثناء التقليدي الذي تعوَّدنا أن نوزِّعه ذات اليمين وذات الشمال، كلَّما دعينا إلى الكتابة عن أحد، بل إني أقصد أن أقول إنَّ اختلافه كان جذرياً جدًّا عن كلِّ السائد والمنتشر والمتداول من الأفكار.. وربما كان هذا سبباً من الأسباب التي جعلت من أفكاره تبدو مطمورة وغير قابلة للانتشار؛ لأنَّه كان ببساطة يتحدث بلغة أخرى: بأبجدية مختلفة عن الأبجدية التي سادت الخطاب الديني، والخطاب الفكري بصورة عامة... وهذا ما جعله يبدو هجيناً ونشازاً عن كلِّ السائد ".

**ثالثاً- مشروع خارجَ دائرة المشروعين التقليديين...**

للإجابة عن سؤال النهضة لم يفلح الفكر الإسلامي المعاصر، للأسف، في الخروج من ثنائية "إمَّا وإمَّا"، "كذا أو كذا"... تلك الثنائية الإقصائية الإطلاقية، الرافضة للنسبية واللافظة للإمكان الآخَر...

ولقد وُجد في عالمنا العربي مشروعان: (سياسي) ينسب للأفغاني، و(ديني) يُرجَع لمحمد عبده... فكان الجدال حادًّا وعشوائياً، إذ " إنَّه إما (الإسلام السياسي)؛ بتدرجات مختلفة بين البرلمان والحياة النيابية إلى الكفاح المسلح، أو (الإسلام الوعظي)؛ إسلام التذكير بالسلف الصالح، وترقيق مشاعر الناس وقلوبهم لغرض العودة إلى التقوى المفقودة .

لو تأمَّلنا كلَّ ما كان لَما وجدنا غير هذين المشروعين، يتداخلان أحياناً، ويتفارقان أحياناً، بل ويصطدمان في بعض الأحيان؛ لكنَّهما وحيدان في ساحة فارغة، إلاَّ مِن منطقيهما ورؤيتيهما ..".

وجاء مالك بن نبي بخيار ثالث، هو خيار (الإسلام الحضاري): " مقابل (الإسلام السياسي) و(الإسلام الوعظي)، طرحَ مالك بن نبي فكرة (الإسلام الحضاري)؛ وكان الأمر غريباً جداً على طروحات (الإسلام هو الحل)".

واللافت للانتباه أنَّ التفسير الذي اقترحه أحمد لظاهرة التنكُّر لفكر مالك، هو أنه جاء بهذا الخيار الثالث، ولم تكن الساحة الفكرية والسياسية مستعدَّة لقبول "بديل عن..." أو "إضافة إلى...".

وهنا أقف في جهة مباينة لأرض أحمد (العمري)، وأفضِّل أن يكون المنطق هو "هذا وهذا وهذا..."، منطق الجمع، والخيارِ الثالث والرابع والخامس... لا بغرض التلفيق، إنما بقصد الاستفادة من جميع التجارب والرؤى ضمن منهج (توجيه الطاقة)، واعتمادِ (النسبية)، والعملِ على أسس (العمل الجماعي)، و(البحثِ الجماعيِّ)...

هنا أقف وأقول بالحلِّ السياسي، والحلِّ الديني، والحلِّ الحضاري، والحلِّ المنهجيِّ، والحلِّ العمليِّ... آخذاً من كلٍّ منها ما يصلح، طارحاً ما لا يصلح... ما دامت الحلول كلها إنسانية تجريبية بشرية، ممكنة الخطأ والضعف...

ومما يقوِّي اختياري هذا، أن مالكاً - في حياته، وبخاصَّة أواخر عمره - كان ضحية السياسة بكلِّ معانيها، وكان أبعدَ ما يكون عن الفعل السياسيِّ، فاقداً الإرادة السياسية... فوضع رقبته بين يدي (رَعاع)، و(أنذال)، و(جَهلة) يجزُّونها متى شاؤوا، وكيفما أرادوا... ولقد لاقى الأمرَّين في هذا السبيل... ( Ibn nabi: journal ).

غير أنَّ العمري قد يعترض عليَّ، وأوافقه في الاعتراض، بأنَّ الحضارة هي كلُّ ما ذكرتُ، وفوق ما ذكرتُ... وأقول: لا مشاحة في الاصطلاح، والفكرُ سجال... إذا أريد بالأمر هذه الرؤى الشمولية...

**رابعاً- فكرة "البارادايم"...**

كنت قبل أعوام أطالع وأكتب على أساس (المعلومات)، محاولاً إيجاد (الشمولية)، والخط المنهجيِّ... غير أني يومَ اكتشفتُ مصطلح (البارادايم)، والمنظور، والرؤية الكونية، والنموذج الإدراكي، والتفسيري... ويومَ طالعتُ لـ(توماس كون)، و(كارل بوبر)، و(جون لاكاتوس)... ثم، بخاصَّة، يوم تعرَّفت فكر (عبد الوهاب المسيري)، و(عبد الحميد أبو سليمان).. وأخيراً.. (أحمد العمري)... تبلورت فكرة (البارادايم) عندي، وتحولت إلى خطٍّ جامع، وإلى نسيج كليٍّ، أوجِّه فكري وفقه، وأنسج كتاباتي في ضوئه...

هنا ولُد (نموذج القابلية للرشد)، مكمِّلاً لنموذج (القابلية للاستعمار)، الذي اعتنى بالجانب السلبي فقط، وأهمل الكيفيةَ، وطرائقَ العمل، وآلياتِ الفعل... وليس المقام مقام وصفه...

والعمري في روايته عن مالك أبدع في الإتيان بما لم يأت به مالك... وذلك باعتماده (بارادايم الإسلام الحضاري)، لتوسيع الفكرة، ولشرح الموقف... مسقطاً المصطلح من عالم (الثورات العلمية) إلى عالم (الثورات الفكرية الحضارية)...

ومالك لم يوظَف مصطلح (البارادايم)، ولم يعمل به مباشرة، وإن كان قد استبطنه بمعان مختلفة... ومداخل متباينة...

يقول أحمد[11]:

« فكرُ مالك بن نبي ثورة؛ ثورة فكرية وحضارية، هي ثورة تتقمص دور البارادايم بالضبط كما تفعل كلُّ الثورات العلمية في تحوُّلاتها البنيوية، وهذه الثورة لم تنتصر بعد، وبارادايمها لم يتحوَّل بعد، لم ينجز التحول بعد، لأننا نعيش في تلك العقود الفاصلة التي تشهد هذا الصراع بين القديم والجديد، بل إننا نعيش على عتبة ذلك الصراع..».

**خامساً- دور جيلنا، والجديد في فكرنا:**

يفرز السياق سؤالاً حقيقياً، موجَّهاً إلى جيلنا، وإلى ممثلنا العمري، وإلى كلِّ واحد منا على حدة، هو:

ماذا أضاف الراوي، وبماذا تميز عن المرويِّ عنه؟

للإجابة عن هذا الإشكال، لا بدَّ أن نعترف أنَّ مجرَّد تبني فكر مالك بن نبي، بوعي وفهم جديد، في عصر التنكر للبديع والأصيل والجديد، هو إضافة جدية وجديدة وجديرة...

ثمَّ إن العمري قد أجاب بوضوح عن السؤال، فقال[12]:

« لقد ترك مالك بذرة ذلك البارادايم ومضى، كان هو يسمِّيها دوماً الخميرة؛ والخميرة هي خطوة أولى في درب إنتاج طويل، مخاض طويل من أجل رغيف حضاري مشبع..، وقد مرَّت هذه الثورة في بنيتها بسُبات طويل سيطرت فيه البارادايمات التقليدية أكثر مما يجب، هي متسلِّحة بسطوة بعض المؤسَّسات التقليدية المتسلحة هي الأخرى بقداسة النصوص التي تدعي احتكارها واحتكار فهمها واستعمالها تفسيراً وتأويلاً، وبالتالي تطبيقاً ».

ثم يضيف، في بيان دورنا ودور جيلنا:

«... وبديهي جداً أن يكون جيلي، الذي ولد أو نشأ وكبر بعد وفاة مالك، هو الجيل الأكثر استشعاراً لفشل الأجوبة السائدة، وفشل البارادايم التقليدي السائد بمختلف ألوانه وأطيافه، إنَّه الجيل الذي انتهى بالانتحار العبثي أو الانهيار المستسلم دون قيد أو شرط، ولهذا فهو يعلم -أكثر من أي جيل آخر - أنَّه يحتاج إلى رؤية أخرى، وأجوبة أخرى، لقد وصل لتلك المرحلة

من (البؤس) التي تهيئه للاستعداد للثورة، وصل لتلك النقطة التي تجعله مستعدًّا، للإطاحة بأشياء كثيرة من أجل التمسك بحبل إنقاذ يخرجه مما فيه.

جيلي وربما الشبان الأصغر قليلاً من الجيل الطالع، ربما يكون هو الأكثر قدرة على تقبل منظومة مالك الفكرية، لأنَّه الأكثر استشعاراً لفشل كلِّ المنظومات الأخرى التي أوصلتنا إلى ما وصلنا إليه، أو على الأقل شاركت في ذلك..».

حفظك الله يا أحمد، ورحم مالكاً...

لا بدَّ لأيِّ مقال من آخِر... ولا بدَّ لأيِّ فكرة من تمام...

وإني لأرى فكرة (رواية أحمد عن مالك) جديرة بكتاب مستقل، يحفر في (البوصلة القرآنية) وعلاقتها بـ: (الظاهرة القرآنية)، وينقِّب في (الفردوس المستعار والفردوس المستعاد) ليجد نقاط اتفاق واختلاف بينه وبين (شروط النهضة)، و(بين الرشاد والتيه)... ثم تنفتح الزاوية ليتسع الفارق بين (مشكلة الثقافة) من جانب، و(كيمياء الصلاة) من جانب آخر...

وقد تلتقي أو تفترق المدارسة عند نقطة القصَّة والرواية، فتُعطي السبق للعمري في (ألواح ودسر)، و(أبي اسمه إبراهيم).. وتذكر لمالك قصة فريدة، في رأيي لم تنضج نضج كتاباته الأخرى، وهي: (لبيك... حج الفقراء)...

ولعلَّ البديعَ أنَّ أحمدَ لم يرو فقط عن مالك، شأن المقلِّين من الرواة... ولم يرو عن كلِّ واحد، شأن المكثرين... لكنه روى وانتقى، وأضاف وارتقى... وهو في عُمر يسمح له بإذن الله تعالى بالكثير، فالله ندعو أن يهبه عمراً طويلاً في الطاعة؛ وألاَّ يحرمنا من جهده وفكره وإبداعه... في زمن حاجةُ الأمَّة فيه إلى أمثاله من الرواد ماسَّة وقمينة...

ومن أبدع روايات أحمد، أنه حدَّث عن سيدنا نوح عليه السلام، فنقل عنه ملخِّصاً كلَّ ما ورد في هذا المقال، فقال:

« تذكَّروا دوماً أننا نتعلم الأبجدية من أجل أن نقول شيئاً مختلفاً عمَّا يقوله الآخرون... من أجل أن نقول جملة أجمل، كلمة أفضل... من أجل أن نصل لمعنى أكمل... إننا نتعلَّم الأبجدية لا لنردِّد ما قاله الآخرون، ولكن كي نقول الصواب... والصواب فقط ...» (ألواح ودسر).

رضي الله عنك يا سيِّدنا نوحاً،

ورحمك الله يا قدوتنا مالكاً،

وحفظك الله يا رائد جيلنا أحمدَ... آمين.

# العمري

**سيناريو الفكر المستعاد**

**أمير أوغلو**

عندما جلست على الجانب التركي من شاطئ البحر الأبيض المتوسط لأكتب عن الأخ الحبيب الذي لم أره بعد، الدكتور أحمد خيري العمري، "أبي زين" (كما يحب أن يسميه أصحابه)، كان يفصل بيننا بحر كامل بطوله، ومحيط واسع بعرضه، ولكنني كنت أتخيله واقفاً على الشاطئ المقابل في مدينة واشنطن الأمريكية، يرمي بزجاجاته، التي يسميها قناني (جمع قنينة)، في المحيط الهادر لتطوف الكون، تزرع الأمل في نفوس قرّائه، وتزرع الهمة في قلوبهم، لتثمر بعد هذا، إن شاء الله، جيلاً يعرف كيف يبني نهضته، وكيف يعيد لأمته الروح، وكيف يتجاوز هزيمته إلى النصر المبين القادم. يرمي بزجاجاته التي تحتوي على عصير أفكاره وآماله ومشاريعه الضخمة جداً، والتي لا يظهر منها في كتبه إلا ما يظهر من جبل الجليد في المحيط الكبير.

أول ما وصلني من زجاجاته كان البوصلة، وكانت السبب في تعرفي عليه، ثم تتالت الرسائل وتوطدت العلاقة، وصارت زجاجات أبي زين جزءاً من حياتي الثقافية والاجتماعية والإسلامية. صرت أستطيع أن أؤرخ لحياتي الثقافية بتاريخ ما قبل البوصلة وما بعد البوصلة، فقد غيرت كتاباته الكثير، وكان أهم ما استطاعت أن تفعله في نفسي هو دفقة الأمل التي يعطيها للقارئ في كل كتبه، فهو مع كل انتقاداته لكل السلبيات التي يراها من حوله، وهي سلبيات قاتلة وكثيرة، إلا أنه يستطيع في النهاية أن يضع قدمك على بداية طريق ترى في نهايته النور الذي تصبو إليه والذي كنت تطمح أن تصل إليه منذ عشرات السنين. في بداية كل فصل من كتب أبي زين ترى الهدم الشديد والهجوم القاسي على كل السلبيات وعلى كل الآراء التي أوصلت إلى هذه السلبيات، حتى إذا ما استيئس القارئ جاءه النور الساطع في نهاية الفصل أو في نهاية الكتاب ليريه أن كل ما يحصل هو من سنن الله تعالى، وأن الطريق واضحة وضوح الشمس، وأن ما عليه سوى أن يتحرك في الاتجاه الذي أشارت إليه البوصلة. وهنا أذكر بالمناسبة أنني أشعر أن اسم البوصلة للكتاب الأول، وتعرف الناس عليه من خلال هذا الكتاب، كان فيه نوع من الإلهام

الرباني، لأن كتابات أبي زين القادمة كان في كل منها بوصلة تعطي الاتجاه الصحيح لمن أراد أن ينطلق في سعيه إلى الهدف السامي هدف النهضة التي لم تبدأ.

قد يتهمني البعض بالمبالغة في المديح أو الثناء أو الإطراء، تزلفاً لأخ عزيز تكرمه دار الفكر هذه السنة، ولكنني في الحقيقة لا أكتب هنا من أجل أحمد، وإنما أكتب للناس لكي يعرفوا أحمد، أكتب لهم وأنا أخشى أن يمروا يوماً أمام مكتبة ما فيقرؤوا اسمه على كتاب ثم يمروا عنه معرضين لجهلهم به، فتضيع عليهم فرصة. أكتب لهم وأنا أخشى أن يتيهوا في كتب أخرى قد تكون لأناس أشهر من أحمد، ولكنهم لن يوصلوهم بحال من الأحوال إلى ما قد يصلون إليه إن قرؤوا كتب أحمد، أكتب لهم ليختصروا من أوقاتهم ويوفروا جهودهم في البحث عن بداية الطريق، فقد استطاع أحمد أن يضع لهم البداية وأن يشير إليهم إلى النهاية وأن يرسم لهم الخريطة.

أعتقد أن كل من قرأ لأبي زين يعرف تماماً عماذا أتحدث، وعندما أعود إلى موقعه على الشبكة (القرآن من أجل النهضة)، وأقرأ تعليقات الناس، أجد نفسي آخر من يحق له أن يتحدث عنه، فالمعجبون كثر وكلامهم أجمل وأرصف وأكثر تأثيراً في النفوس من كلامي.

لقد امتاز أبو زين عن كل من قرأت لهم ممن يحلو لهم أو يحلو للناس أن يسموهم مفكرين إسلاميين، بثلاثة أمور أساسية هي:

- أسلوبه الأدبي الرائع.
- تفاعله اللانهائي مع ما يكتب.
- أفكاره وطريقة استخراجها.

من ناحية الأسلوب، أشعر أن أسلوبه مميز جداً، يجمع بين الأدب والبلاغة، والقوة والسهولة، والسلاسة والعمق، والبساطة مع شدة القدرة على الإقناع. لست ناقداً أدبياً لأفصل في هذا المجال ولكنني هنا أصف ببساطة ما أشعر به عند القراءة له، وعلى المختصين في الأدب أن يبدوا رأيهم في هذا المجال.

أروع ما في أسلوبه هو الصدمة التي يحاول من خلالها أن يحرك كل خلية في جسدك وعقلك، ليُخرج منها مفاهيمك البالية، ثم يملأها بفكرته الجديدة الساطعة بعد أن يقدم لك السبب والحل والعلاج، ثم يتركك قليلاً ليتفاعل هذا كله في عقلك، لينقلك بعدها إلى فصل آخر أو مشهد آخر فيه المزيد من التشويق والصدمات والمزيد من العلاج.

وماذا تريدونني أن أكتب عن تفاعله مع ما يكتب؟ هل أكتب عن قصة سقوط بغداد التي أعتقد صادقاً أنه كتبها بجزء من روحه لا بقلمه، ألا تشمون رائحة دماء كل شهيد عراقي من صفحات الكتاب؟ ألا تحسون تفاعله مع التاريخ عندما وصف أبا جعفر المنصور؟؟؟

هل أحسستم بمشاعره في سلسلة ضوء من المجرة عندما كان يتكلم على صديقه الذي لا يصلي؟ هل رأيتم صدقه وفرحته بهذا الصديق عندما جاء إلى المسجد لأول مرة؟ هل عانيتم ما عانى وهو يكتب عن المؤسسة الدينية في البوصلة فينسفها بأفكارها البالية وخوفها من السلطان؟ هل شعرتم بحرقته على فردوسه المفقود وتفطر كبده وهو يحلل الحضارة الأمريكية، التي اخترقت عقولنا، ليثبت أنها أصبحت ديناً لا حضارة، وأن حبها لا يمكن أن يجتمع مع حب الله ورسوله في قلب مؤمن؟

كل هذا وغيره كثير يمكن أن تستخرجه من كل فصل، بل أحياناً من كل سطر مما كتب أبو زين، لتعرف السبب الأول في نجاحه، إنه التفاعل إلى حد الاحتراق الحقيقي ليضيء لك الطريق، إنه الكلام من القلب إلى القلب، إنه التوهج الذاتي الذي يجعل الظلام من حولك نوراً ترى به حقائق الأشياء، وأنت القارئ البعيد الذي لم يعرف أحمد بعد ولكنك تشعر أن كل كلمة من كلماته هي كلماتك أنت، وأن ما استطاع أحمد أن يعبر عنه هو ما كان يدور في أعماقك منذ أجيال ولكنه استطاع أن يخرجه وأن يحوله إلى جمل ومفاهيم وأفكار قابلة للتطبيق في حياتك وواقعك.

أما عن الأفكار فهي ليست منتقاة من فوق السطح، بل هي لآلئ الأعماق السحيقة، التي لا يصل إليها الإنسان إلا بعد أن يتعلم الغوص في أعماق الكتب، وأعماق عقول من كتب، وأعماق التاريخ الذي أوحى لمن كتب. وراء كل فكرة أزمان من التفكير والبحث والقراءة والدراسة. أتصور أحمد وهو يبيت الليالي سهران يبحث عن أصل فكرة، يربطها بالواقع، ثم يربطها بأصلها الإسلامي، ثم يعود إلى الأصل الإسلامي ليربطه بزمن خير البرية صلى الله عليه وسلم ، ثم يحلل ذلك الزمان والمكان والإنسان ليصوغ من جميع ذلك فكرته بقلم الأديب المتمكن، ثم لتصبح بعد ذلك جملة أو فقرة في كتابه، يحاول من خلالها تغيير أمة، ونفض الغبار عنها، ونفخ الروح فيها لتتحرك وتنهض من سباتها العميق الذي صار في عصرنا هذا جلطة دماغية شلت أمتنا شللاً كاملاً أو يزيد.

نستطيع في عالم الأفكار أن نطلق اسم مفكر على كل من يأتي بفكرة جديدة، وقد فعل أبو زين هذا في كل كتاب، بل أكاد أقول: في كل فصل، ولكن الذي يعطي المفكر درجة تميزه عن غيره، أو إذا أردنا أن نفاضل بين المفكرين، فإننا لا بد أن ننطلق من نقطتين أساسيتين هما:

أهمية الفكرة وجدتها، ثم مناسبتها للعصر وقدرتها على إحداث التغيير الحقيقي الذي يحتاجه المجتمع. وهنا أعتقد أن أفكار أبي زين تحوز هذا كله، وتتميز بهذا كله.

جمال أفكار أبي زين وأهميتها تأتي من كونه يستخرجها من المواد نفسها التي نحاول نحن أن نستخرج منها أفكارنا ومفاهيمنا، المادة الرئيسية بمتناولنا جميعاً، وهي مكررة إلى أبعد الحدود في حياتنا، ونحن نسمعها ونقرؤها ونكتبها ونستمد منها ونعيد صياغتها، ولكننا عندما نقرأ لأبي زين نشعر أننا نسمعها أول مرة! نشعر أننا لم نفهمها قبل هذا اليوم أبداً، مع أنها آيات وأحاديث ووقائع وكلمات نعرفها أو نكاد نحفظها غيباً. لا أخفيكم أنني كثيراً ما أتساءل وأنا أقرأ له: "من أين أتى بهذه الفكرة؟" كل المقدمات التي ذكرها أعرفها ويعرفها الجميع، ولكن النتيجة عنده دائماً مختلفة! النتيجة مدهشة ومذهلة وصادمة وبسيطة ورائعة، وقابلة للتطبيق، وذات نتائج حقيقية وقادرة على التغيير. أليس هذا هو الإبداع؟

على مستوى القارئ العادي قد يثير هذا الإعجاب والتقدير، ولكن على مستوى الكتّاب والمفكرين يثير هذا الحسد والغيرة، وقد يتحول هذا إلى عداء، ولا أكتمكم أنني شخصياً أغار أحياناً من أحمد وأحسده، ولكن، حسد غبطة، وأرجو الله أن يبقى هذا ضمن دائرة الحب والأخوة التي تجمعنا وتصهر أرواحنا وأفكارنا.

لا أعتقد أنني بحاجة هنا إلى أن أذكر كتب أبي زين ومؤلفاته، فلا بد أنها مذكورة أكثر من مرة في هذا الكتاب، ولكنني أود أن أركز على سفره الرائع الفردوس المستعار والفردوس المستعاد، فهو في نظري من أجمل وأروع ما كتب، وإن كان التفضيل بين كتاباته كالتفضيل بين مجموعة من اللآلئ الثمينة التي تساوي كلٌّ منها في يد طالبها وراغبها ثروة العالم كله.

لقد تألق أبو زين فكرياً في هذا الكتاب، ربما لطوله وكثرة الأفكار المطروحة فيه، وربما لجدة أفكاره الغائبة تماماً عن الكثيرين من المفكرين الإسلاميين فضلاً عن الناس العاديين، وربما لأنه كان دقيقاً، إلى حد الكمال، في التصويب.

البداية كانت عن الدين الجديد الذي لا يراه الكثيرون سوى أنه مجرد ثقافة أو حضارة جديدة، ولكن أبا زين ينظر إلى أمريكة على أنها دين، يمتلك كل مقومات الأديان، دين استطاع أن يحتل عقولنا وقلوبنا قبل أن يحتل أرضنا وبلادنا، وهذا هو مكمن الخطر. ثم يأتي الكلام على: "الفردوس المستعاد الذي فُقد مرتين ولكنه سيُستعاد بإرادة الحياة وإرادة التغيير".

ثم يأتي الفصل الأهم، في نظري على الأقل، وهو "سيناريو الفقدان وخطة الاستعادة"، هو الأهم لأن فيه كل جديد مستخرج من كل قديم قرأناه ومارسناه وحفظناه، خروج آدم من

الجنة، مفهوم الحلال والحرام، غواية شيطان الجن لآدم وزوجه، واستمرار المسلسل نفسه مع شياطين الإنس، ثم الكلام على سيدنا إبراهيم، وهنا لابد من الاعتراف بأنني أرى في أبي زين أعظم من تخصص في إبراهيم، فهو عنده شخصية محورية في تاريخ الدين ومفهوم الدين بشكل عام، وهو شخصية مركزية في ديننا بشكل خاص، وعلاقته بسيدنا محمد علاقة خاصة جداً، وعلاقته بالإسلام أيضاً علاقة أكثر من خاصة. وقد أجاد أبو زين وتألق في كل ما كتبه عن إبراهيم، وتوج هذا بقصته للأطفال الكبار، أو للكبار الأطفال، (أبي اسمه إبراهيم).

في هذا الفصل ترى ملامح ومقدمات سلسلة كيمياء الصلاة عندما تكلم على "ليقيموا الصلاة"، وفي هذا الفصل ترى أنك لم تفهم يوماً ما معنى رفع القواعد، ولم تستوعب يوماً ما معنى هجرة إبراهيم مع هاجر، ولم تفهم يوماً ما معنى الحجر الأسود.

بعد ذلك يصل بنا المسير إلى النقطة المركزية، نقطة الهدف التي يمثلها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وهنا ستكتشف من جديد أنك لم تفهم معنى القبلة حتى الآن، مع أنك تصلي إليها كل يوم خمس مرات على الأقل وتكرر في كل مرة "وجهت وجهي...".

وفي المحور الثاني الذي يقارب الأربع مئة صفحة، ترى تحليلاً رائعاً ومبتكراً ومبدعاً للثوابت الإسلامية الخمسة التي نسميها أركان الإسلام مقارنة بأركان الدين الأمريكي الجديد، وترى فعلاً كيف يمكن لأركان دينك التي أصبحت عندك مجرد عادات، أن تصد الهجمة الشرسة للدين الجديد وأن تخرجه نهائياً من حياتك وأن تنطلق بك لتقود مسيرة التغيير في ذاتك ومحيطك لتستعيد فردوسك المفقود منذ قرون.

هنا لن يفي أي تلخيص بحق هذه الثوابت الخمسة، ولا بد للإنسان من قراءتها كما وردت في الكتاب، ولا بد أن يُمضي معها ساعات وساعات ليحس بمعاناة الكاتب، ولتتحول أفكار الكاتب إلى طاقة خلاقة في نفس القارئ هي التي يسعى إليها أبو زين في كل كتاباته، لأن مشروعه مشروع نهضة وليس مشروع ترف فكري.

أما في (الخاتمة التي بعدها البداية) فيلخص أبو زين الكتاب كله بسطر واحد عندما يقول: "إن الأمر هو تقديم مجتمع جديد، بواقع علاقات جديدة، ونمط متوازن من العدالة الاجتماعية المرتكزة على قيم ثقافية وأخلاقية مختلفة، وعندما يُثبت هذا المجتمع البديل نجاحه، وعندما يُطرح مجتمع (التوحيد) بديلاً فإن مجتمع (الأوثان) سيسقط بلا مقاومة" (منقول باختصار). ثم يعود لزرع الأمل في قلب القارئ والثقة بالمشروع الحضاري الجديد في قلب

القارئ وعقله فيقول: "الأمر صعب، صعب جداً بالتأكيد.......... إنما لا يمكن أن يكون مستحيلاً........ لأنه حدث فعلاً".

ختاماً أحب أن أذكِّر أبا زين بحديث قديم قال لي خلاله: إنني أحب التطويل في الكتابة ولذلك كانت كتبي طويلة، ولكنني لا أستطيع أن أكتب مقالاً لأن المقال يحتاج إلى تركيز مكثف واختيار للكلمات، وأنا أتمنى أن أقدرعلى ذلك". بعدها بمدة بدأ أبو زين يكتب مقالاته الرائعة وينشرها على موقعه وفي صفحات الجرائد والمجلات والمواقع، عندها اكتشفت وجهاً آخر من وجوه إبداعه، وعرفت أنه كان فقط........ يجاملني!

# أحمد العمري

**صانع الأنفاق!**

**د. محمد عباس**

كانت لحظة تعرفي بالدكتور أحمد العمري لحظة رائعة ومروعة..

لحظة شبيهة بتلك اللحظة التي عبر عنها هو نفسه بفكره القابع (خارج التصنيف).. بطموح النسر، ودأب النملة.. بالتوفيق الإلهي يتوج الجهد البشري الذي يجمع بين الأمرين ويوصله إلى مقاصده عبر طرق تعيي أصحاب الحيل.

بأسلوبه الرائع وحساسيته المدهشة وموهبته العبقرية في عمله الدامي المروع، الرهيب القاسي، الدامع الباكي، الحنون، الجبار، الرحيم، اللائم المعاتب، المُدين المتفجر، المحاصَر، المحاصِر المحاكِم للأمة، المستعيد للتاريخ الرازح تحت الحاضر، الراني للمستقبل المدوخ بالألم، والمستدعي لماضي الفخار والندم، والمفعم بالأمل الـ.. الـ.. الـ.. الـ.. الـ.. الـ.. ألف الـ.. عمله: ( ليلة سقوط بغداد ).

في (ليلة سقوط بغداد) كان أحمد خيري العمري يقتص من الأمة.. يجلدها.. يعاقب صمتها الخسيس.... يندد بعار النجاة الدنيء الذي تسربلت به.. يعاتبها.. يعذبها.. يبكيها.. يفضح عجزها برواية ما حدث لبغداد أمام العالم وأمام الأمة المشلولة، الراكعة لغير الله، المستذلة لأعداء الله..

ولم يكن أحد ممن يقرؤون يستطيع ادعاء البراءة..

الفجار الذين يزعمون البراءة لا يقرؤون!..

نعم.. كانت لحظة تعرفي بالدكتور أحمد العمري لحظة رائعة ومروعة..

تلك اللحظة التي عبر عنها بقوله:

"كل شيء يبدو أنه كان يهم شخصاً آخر بعد عشرة أيام من الحرب.. وعندما سألتني زوجتي وهي تهم بتفقد روضتها إذا كنت سأذهب لتفقد عيادتي؟ ارتعبت كمن قالوا له إن على الباب يوجد شخص يطلبه، وقد كان يتوهمه مات منذ عدة عقود ".

أنا أيضاً.. وأنا أقرؤه أصابني رعب كرعبه..

ظننت أن كل شيء انتهى ومات.. العراق.. وبغداد.. والناس.. والتاريخ والجغرافية والخير والجمال والعقل والمنطق والميزان بين الأشياء.

نعم.. ظننت كل ذلك مات.. أما باقي عالمنا العربي فقطيع من خراف لوثوا عقله وزيفوا وعيه، فإذا به يندفع نحو المجزرة المعدة له وهو فرح بها نشوان.

لكنني أفقت في صفحات (ليلة سقوط بغداد) على أمور كثيرة.. لا يهم الترتيب أيها كان الأول وأيها كان الأخير.. لا يهم الزمن.. لا يهم الفاعل ما دمنا نحن المفعول.. وكان من بين ما أفقت عليه أن ثمة منافساً خطيراً لي في حب بغداد.. لم أكن أظن أن هناك كاتباً عربياً بكاها كما بكيتها، وكتب عنها كما كتبت (كتاب من 800 صفحة، ومقالات تكفي لكتابين مماثلين).

دوّختني ( ليلة سقوط بغداد )؛ فلم أكد أفيق من الدوار حتى فاجأتني أعماله الأخرى..

كانت (ليلة سقوط بغداد) قد حفرت موقعاً للعمريّ في قلبي وعقلي.. فتلقيت أعماله الأخرى متسائلاً عن قدرته على الاستمرار بهذا المستوى الفذ.. هل هو من كتاب العمل الواحد مثل (فرانسواز ساجان).. لكنني أفاجأ بفرسيْ رهان وبمنافسة خطيرة بين الكاتبين.. نعم.. الكاتبين: أحمد خيري العمري كاتب ( ليلة سقوط بغداد)، وأحمد خيري العمري كاتب بقية الأعمال: البوصلة القرآنية، والفردوس المستعار والفردوس المستعاد، وضوء في المجرة(ستة أجزاء)، وكيمياء الصلاة (ستة أجزاء)، وروايتان: أبي اسمه إبراهيم، وألواح ودسر .

إيهٍ يا أحمد العمري..

أي روعة وأي جمال وأي إبداع وأي فكر وأي ثقافة وأي شمول!!.

أقرأ الفردوس المستعار فتسلب لبي.. أكاد أصرخ في عالمنا الإسلامي: هذا كتاب لابد أن يقرأه كل تلميذ في المدارس، وكل صحافي، وكل كاتب وكل مفكر، وقبل ذلك وبعده كل شرطي وكل جندي.. وأخص الأخيرين لأن الإصابة فيهما أشد.. والتأثير منهما أكثر.. نعم.. أريد من كل واحد من أولئك أن يقرأه بل أن يحفظه.. ليت وزارات التربية والتعليم تقرره على المدارس

أربعين عاماً (مثل كتاب: الأيام لطه حسين، المقرر على المدارس المصرية منذ أربعين عاماً فلما عنّ لأحد المسؤولين تغييره لمصلحة كاتب تغريبي آخر انفجرت مزرعة حيوانات العلمانيين والتغريبيين بالعويل والصراخ والصياح والعواء والفحيح والنباح).. كانوا يعترضون لأن الوزارة سترفعه من المنهج الدراسي بعد أربعين عاماً!..

الفردوس المستعار والفردوس المستعاد كتاب يجب أن تعقد له آلاف الندوات وآلاف حلقات النقاش.. وأن يعد له برنامج على فضائحياتنا (يسمونها فضائيات وأسميها فضائحيات) يتجدد باستمرار..

***

ثم أقرأ البوصلة القرآنية..

يزداد الصخب والعنف، ويصطخب الصراع، وتظهر بوادر الخلاف بيني وبين الدكتور أحمد خيري العمري.. لكنني -وهذا عجيب حتى بالنسبة إلي- يزداد انبهاري به كلما أوغلت في قراءته برغم أي خلاف. ربما لأن انبهاري - وهذه محاولة للتفسير- لا يعود لفكره المتوقد فقط، بل لجذوة النار المشتعلة في وجدانه.. أشعر بها وأحس بلهيبها.. وهي نار مقدسة.. نعم.. أنا كاتب مخضرم عجوز.. أدرك معنى الكتابة، وخبرتي تفوق خبرة القارئ العادي.. لذلك أدرك أن أحمد العمري نبتة نادرة مبهرة، يصيبني اليأس لأنه ليست لدي طاقة ولا طريقة للحفاظ عليها ولتخليدها..!.. كنت أتمنى أن توجد طريقة وجدانية غير الكلمات أكتب بها عن أحمد العمري.. طريقة كالحلم.. حيث الكلمات دون صوت، والكتابة دون قلم، والمشاعر بسرعة الضوء.. وحيث أصل إلى عقول الناس ووجدانهم دون المرور بأبصارهم!..أغزو عقولهم دون أن يقرؤوا كلماتي!

أستغفر الله..!!..

أنا كالمهندس المعماري الذي يرى (الماكيت) فيرى بعيني خياله البناء كاملاً يعج بالحياة.. ذلك المهندس سيدرك عظمة الماكيت وسيتجاوز عما فيه من هنات أو حتى من أخطاء لأنه يدرك أنه سيتم تجاوزها عند التنفيذ أو بالزمن.. وهكذا أرى إنتاج أحمد العمري في الستين من عمره أو في السبعين أو في الثمانين..إذا شاء الله أن يمد بعمره ونتاجه..

***

نعم.. أختلف أحياناً مع أحمد العمري..

أختلف مثلاً معه في معنى (المؤسسة الدينية الرسمية)، وفي انتقاده لها، وفي حدة ذلك الانتقاد. وتمنيت كثيراً أن تخف شدة إدانته لها.. وفي مرات عديدة أثناء قراءة (البوصلة القرآنية) كنت أشعر بالغيرة على علمائنا.. لكنني أدركت فجأة أن هذا الاختلاف يبدو صورياً ويتعلق بالاختلاف في المصطلح لا في المعنى.. ذلك أنني أرى أن الإمام أحمد بن حنبل فقيه الناس هو المؤسسة الدينية الرسمية وليس ابن أبي داوود فقيه أمير المؤمنين!.. وبهذا تكون جبهة علماء الأزهر هي المؤسسة الرسمية وليس مشيخة الأزهر ولا مجمع البحوث الإسلامية. أدركت أن ما يقصده الدكتور العمري غير ما أقصده.. لأنني لا أرى حكماً إسلامياً كي تكون له مؤسسة دينية رسمية.. لا أرى سوى قطاع طرق وعملاء استولوا على الحكم.. رحماء بالكفار أشداء علينا.. لا أرى إلا الملوك الكلاب والكلاب الدمى على حد تعبير الشاعر محمد عفيفي مطر. نعم.. دمى ينطبق عليها ما جاء في بروتوكولات حكماء صهيون-مع الاعتذار للعملاق عبد الوهاب المسيري لبعض المخالفة لرأيه في البروتوكولات!- التي قالت: " سنختار لهم حكاماً ممن لهم صفات العبيد ".. لا يمكن إلا أن يكون شيوخهم على شاكلتهم.. إنني أرى المؤسسة الدينية الرسمية- حقاً وصدقاً وقولاً- في أبي حنيفة والشافعي وابن تيمية وابن القيم.. والقائمة طويلة لا داعي أن نذكر المتأخرين فيها كي لا نحاكم بقوانين الإرهاب!.. وأيضاً لا داعي لأن أستفيض في وصف الجبهة الأخرى.. جبهة فقهاء السلطان.. لا لشيء إلا لأن ذلك قد يوقعنا تحت طائلة قانون العقوبات.. وبهذا المعنى.. إذا تبنيت مصطلح الدكتور العمري في العلماء الذين يقصدهم فإن موقفي ينقلب إلى العكس.. لأعاتبه على فرط رقته مع من سماهم المؤسسة الرسمية.. فلا هم مؤسسة ولا هم رسميون.. وليسوا حتى من أعوان الظلمة وقطاع الطرق بل هم الظلمة أنفسهم.. وربما تنضح التجربة العملية بذلك.. ففي بلادي لا تكاد تُطلق تسمية: (المفكر الإسلامي الكبير) إلا على كافر ينقض عرا الإسلام عروة عروة!.

***

بيد أن الاختلاف مع الدكتور العمري هو شهادة له بالتميز والإبهار، وهو قد لا يعني التناقض بل التكامل كالشهيق عكس الزفير لكنه ليس ضده. كما أن الخلاف والصراع يشتد ليس عندما تبتعد الشقة بين الأفكار؛ لكن عندما تقترب جداً، فكلما ازداد الاقتراب ازداد الصراع.. ودعوني أضرب مثلاً: لو أن محمد علي كلاي لاكم صبياً هزيلاً فلن يكون هناك صراع.. لكن كلما اقترب منافسه من قوته ازداد الصراع وازداد الجهد وازدادت الحيرة في الأحق بالفوز.. كما أن أجلّ الصراعات في صدر الإسلام لم يكن بين صواب وخطأ بل كان بين صوابين.

أتذكر بيت شعر لصلاح عبد الصبور:

أعطيك ما ملكت يدي من التجريب والمهارة..

لقاء يوم واحد من البكارة..

وأنت -يا أحمد العمري- تعطينا آلاف الصفحات من البكارة!

***

مع الأيام الأولى لمعرفتي بأحمد خيري العمري داهمني شعور غامض وغريب بأنني التقيته منذ زمان طويل..ربما منذ أربعين عاماً.. لكن هذا الشعور جوبه بما ينفيه؛ إذ كيف يمكن أن أكون قد التقيته ولم يكن قد ولد بعد؟ أنقضَ ظهري هذا الشعور الطاغي بالانسحاق بين يقينين يمكن حدوث أحدهما ويستحيل حدوثهما معاً.

شيء ما في انبهاري بطريقة كتابة أحمد العمري تؤكد لي أنني التقيته.. لا يمكن أن تخونني الذاكرة إلى هذا الحد.. هذا الانبهار أذكره.. أحسست به قبل ذلك.. اندهشت.. الاندهاش ذاته من تلك (الطرائق) المبتكرة في الكتابة.. طرائق لا تخضع للتصنيف.. وإعجاز في المرور من معنى لمعنى.. وقدرة على توليد مسارات لم أكن أراها.. ومن ابتكار ما يشبه الأنفاق التي تنقذك من الاختناق في الزحام المفضي إلى الشلل..

من المؤكد أنني التقيته..!

من المستحيل أنني التقيته!!

فكيف يجتمعان؟.

***

فجأة انفجرت الذاكرة المضاءة كما يضيء كشاف ساطع يسلط على بقعة من خشبة المسرح لم تكن تراها على الإطلاق فإذا بك - فجأة - ترى كل تفاصيلها فكأنك لا ترى سواها.

كان ذلك منذ أربعين عاماً أو أقل قليلاً.. كنت في (دار الحكمة) بالقرب من ميدان التحرير في القاهرة.. وكان عليّ أن أصل إلى محطة باب الحديد للقطارات - في ميدان رمسيس- لأدرك القطار الذي لم يتبق على موعده سوى عشرين دقيقة. كان عليّ أن أسافر على الفور فلدي موعد هام جداً، لكن الوقت غافلني فتأخرت. وكانت شوارع القاهرة المختنقة بالزحام والفوضى وعادم السيارات السام رمزاً متجسداً على أمة مشلولة.

كنت أقول لنفسي ساخراً إن على إسرائيل أن تدفع بسيارتين تعطلهما في أحد شوارع القاهرة الكبرى.. ستصاب القاهرة بالشلل.. وتستطيع إسرائيل بعدها احتلالها بدبابتين!..

(دبابتان.. آآآه.. دبابتان كتلكما اللتان احتلتا بغداد)..

كنت أعلم من خبراتي السابقة أن اجتياز تلك المسافة التي لا تزيد على ثلاثة كيلومترات تستغرق أقل من ثلاثة أرباع الساعة مشياً على الأقدام وما يزيد على الساعتين في السيارة. وأسقط في يدي واستبد بي اليأس فاستسلمت له، لكن صديقاً كان يدرك أهمية الموعد قال لي: لا تقلق.. ووعدني أنه سيصطحبني في سيارته، وأنني سوف أدرك القطار. أذهلني ذلك الصديق.. لا بطريقة قيادته للسيارة فقط بل بكيفية تخلصه من الزحام.. كان قد تدرب في شركة سيارات عالمية على القيادة الخطرة؛ بل البهلوانية، وكان يبدو لي أنه يأتي بما يشبه المعجزات؛ كأن يسير على العجلتين الجانبيتين فقط مع الاحتفاظ بالتوازن الكامل!، وأن يسير بسرعة قصوى في شوارع بالغة الضيق. وهو بالضبط ما فعله؛ أفلت من الزحام، واندفع في شوارع وحارات كنت أظن أن سيارته أعرض منها فإذا به يطويها في سرعة هائلة. لم يكن في تلك الشوارع بشر ولا سيارات ولا محلات.. أو هكذا بدا لي الأمر.. بدت لي تلك الشوارع كما لو كانت في مدينة مسحورة غير مدينتي.. شوارع ما ظننت أنها توجد قط.. شوارع كنت أمر عليها كل يوم لكنني لم ألاحظها أبداً.. وأبداً لم أر مداخلها ومخارجها.. شوارع وصف مثلها أحمد العمري في بغداد اسمها (الدربونة) وهي تصغير لكلمة (درب) والتي أكد العمري أنها الفخ الذي سيهزم أمريكة واجتزنا (دربونات) القاهرة وأدركت القطار.

***

تذكرت كل ذلك متسائلاً في دهشة: ما علاقة ذلك بأحمد خيري العمري؟.. ولماذا ذكرني بتلك الحادثة التي غابت حتى ظننتها اضمحلت وتلاشت؟!.

فجأة.. انبلج التشابه كنور الشمس..

لقد فعل أحمد العمري في الكتابة ما فعله صديقي منذ أربعين عاماً بقيادة السيارة في الشوارع التي لا يعرفها سواه..

لقد هرب من شوارع الفكر المزدحمة حتى الشلل، الراكدة حتى التعفن، والمختنقة بالسموم.. شوارع الفكر التي تحولت فيها مؤسساتنا الثقافية والفكرية إلى قلاع للأعداء تمتلئ بالقناصين الذين يغتالون من هم على شاكلة أحمد العمري.. وإلى فخاخ يتستر بها النخاسون كي

يصطادونا ويسلمونا إلى الأعداء.. وتحول بعض قادة الفكر فيها من قواد إلى قوادين يزينون لباقي الكتاب بيع الشرف.. ويروجون للفردوس المستعار.. لم يكونوا مفكرين بل مجرد دعّار.. كانت شوارع الفكر مزدحمة بهم مختنقة بسمومهم ممزقة بأكاذيبهم.

***

من مثل تلك الشوارع الفكرية هرب أحمد خيري العمري ليصوغ بالعبقرية شوارعه السرية ويصنع أنفاقه السفلية، يتجنب بها الزحام ويصل إلى الناس وإلى مبتغاه حيث لا يعرقله الآخرون.

هرب أحمد العمري من حيث كان لا يستطيع أن يسير إلى دربوناته السرية التي لا يعرفها سواه كي ينصب للعدو الغاصب فخاخه، واثقاً من قدرته في النهاية على القضاء عليه.

تلك الدربونات السرية والأنفاق التحتية كانت عبقرية أحمد العمري ومفاجأته الصاعقة المذهلة التي لم يتصورها عدو ولا صديق.

***

لكم أشعر بالخزي لأنني لم أعرفه قبل ذلك.. ولكم أدين كل (الميديا) الملوثة المدنسة الممزقة..

وأدين أيضاً النقاد والصحف..

***

كان لقائي الأول معه في: ( ليلة سقوط بغداد )..

كان مذهلاً لي أيضاً ومرعباً ذات عين الرعب الذي أصاب العمري بما يشبه صعقة الكهرباء عندما تذكر عيادته فـ: " ارتعبت كمن قالوا له إن على الباب يوجد شخص يطلبه، وقد كان يتوهمه مات منذ عدة عقود ".

أنا أيضاً ظننت كل شيء في العراق قد انتهى وانقضى، وأن علينا أن ننتظر قروناً كي نرى فيها الحياة من جديد..

***

لكن..

كيف يكون العراق قد مات وانتهى وهاهو ذا ابن من أبنائه يصف صباح الاحتلال الأول ما يدل على الأقل أن بعضاً من أهل العراق لم يموتوا! (وليس أحمد العمري نبياً على أي حال ليصف الدنيا بعد موته كما وصف سيدنا موسى عليه السلام في التوراة تفاصيل موته وما حدث بعدها!.. بالأحرى: كما زعموا وحرفوا أنه وصف)..

يتذكر أحمد العمري ما حدث يوم الاحتلال الأول:

صباح الاحتلال الأول تجربة لا أتمنى لأحد أن يمر بها.

صباح الاحتلال الأول، تفتح عينك على ما تتمنى أن يكون كابوساً وانتهى، تفتح عينيك وأنت تتذكر حوادث الأمس وتتمنى أنها كلها لم تحدث، كلها كانت مجرد كابوس وانتهى بمجرد أن تفتح عينيك.. للأسف لا. ستنتظر أن يصحح دماغك ما تشعر به، ويقول لك: لقد كان مجرد كابوس..

أبداً. لا أحد يصحح لك شيئاً. إنه حقاً صباح الاحتلال الأول، ماذا ستفعل؟ هل ستقول: صباح الخير أيها الاحتلال؟..

ربما ستغلق عينيك من جديد، ترغب في النوم مرّة أخرى، ترغب في الهروب وتعطي فرصة لأن يكون كل شيء قد تغير عندما تفتح عينيك مجدداً، قد تنجح في النوم، لكن ستفشل في الهروب، وعندما تفتح عينيك، ستجد الاحتلال لا يزال جاثماً.. ستجده لا يزال قائماً، ولم يستفد من تلك الفرصة التي منحته إياها..

.. نعم. إنه الاحتلال، وبلدك بلدٌ محتل، وأنت تنتمي لشعب وقع في قبضة الاحتلال..

.. وهذا هو يومك الأول فيه، تستطيع أن تعد الأيام إن شئت..

.. ولعل العد سيطول..

ستقول لنفسك: لا، لعله لن يطول، لعلهم لن يطيلوا البقاء .. ويخرجون.. وينتهي هذا الكابوس..

.. وهل أحدثكم عن نفسي، أم أن ذلك سيكون منحازاً ومخالفاً لقواعد التأثير.. هل أحدثكم عن نفسي، أنا الذي لا يزال قلبي يغوص عميقاً كلما رأيت دبابة أو مدرعة أمريكية في الشارع، أنا الذي لا أزال أنظر إلى الإسفلت الذي تدوس عليه المجنزرات الأمريكية كما لو كنت أنظر إلى أشلاء أولادي وقد مزقتها عجلات الدبابات..

***

آآآآه يا بغداد..

نكأت جرح القلب يا أحمد العمري..

الجرح لما يندمل ولن يندمل أبداً، وما يزال ينزف، وها هي ذي كلماتك أسنة رماح تعبث في جرحي كما عبث سن رمح يزيد في شفتي الحسين..

تنهمر الذكرى..

في الصبيحة الدامسة لسقوط بغداد كتبت مقالاً بعنوان ( عتاب على الأمة ) قلت فيه:

ليس في مقدوري - حتى لو حاولت - أن أخدعكم.. ولا أن ألبس لباس الخبير ولا طيلسان العالم ببواطن الأمور.. لأحاول أن أثبت أنني كنت على صواب.. (رغم أن ذلك حق).. أو أنني توقعت ما حدث كما حدث.. ولا أن أخفف الخطب عليكم.. ولا أن أكشف لكم كم هو فادح ومخيف..

ليس في مقدوري أن أفعل أياً من ذلك حتى لو حاولت..

فقط.. أقول لكم إن الشهور الماضية كانت ألماً لا يوصف.. حين بدت الكارثة كأنما هي قدر مقدور لا يمكن دفعه.. وما كانت قدراً بل كانت حماقة وخيانة أودت بنا إلى الهاوية.. ولو أن بعض الدول العربية أخلصت في مقاومة العدوان الفاجر لما حدث هذا العدوان..

كانت الشهور الماضية ألماً لا يوصف..

أما الأيام الماضية فقد كانت محنة لا تطاق.. وكان من أسوأ ما فيها اضطراري للقاء الناس.. واضطراري للتماسك أمامهم.. وكنت أتحين الفرص لأهرب منهم حتى أخلو بنفسي كي أبكي وأنتحب.

***

كانت قسوة الفرحة الوحشية تضطرم في قلبي عندما بدأت قراءة: ( ليلة سقوط بغداد ).

ومقدماً.. قبل أن أبدأ الصفحة الأولى.. بل قبل أن أقلب الغلاف امتلأت عيناي بالدموع.

لم أبك القاهرة كما بكيت بغداد مع أنني لا أظن أن القاهرة أقل احتلالاً من بغداد..

أقف على مشارف ليلة السقوط وكأنني مسترسل لا يدري ما يوشك أن يدهمه.. وكأنني واقف على أعتاب مخبأ العامرية لا أدري الهول الذي ينتظرني فيه.

***

**ليلة سقوط بغداد..**

أتحسر الآن على صحيفة الشعب التي أغلقوها منذ عام (2000) بسبب مقال لي.

كان ذلك قبل سقوط بغداد.. وبعد سقوط القاهرة.. لا والله.. كان بعد سقوط كل عواصمنا.

لو لم يغلقوا صحيفة (الشعب) لظللت أسابيع أكتب عن ( ليلة سقوط بغداد ).. منذ ما يقرب من عشرين عاماً قدمت فيها كتاباً كباراً وفطاحل يعرفهم النخبة ويجهلهم العامة. كنت أتمنى أن أتوج باقتي تلك بأحمد خيري العمري. أيامها كتبت أيضاً عن شاعر من أعظم الشعراء العرب المعاصرين، ومن أقلهم شهرة هو الشاعر محمد عفيفي مطر... عملاق هائل صعب مخيف... احتج على الحرب على العراق.. فاعتقلوه وعذبوه. كتب ديواناً دامياً رهيباً اسمه (احتفالية المومياء المتوحشة) يصف ما جرى..وهم يعذبونه من أجل العراق.. سأتلو لكم بعض ما فيه..

لا بد أن أتلو لكم بعض ما فيه..

فأنا متهم ومن حقي أن أدافع عن نفسي وأن أثبت العكس..

أنا متهم -كبلادي- بالصمت حين سقطت بغداد..

أصرخ: أنا بريء لكن بلادي مدانة..

لقد كنت في صف محمد عفيفي مطر.. لم أتوقف عن الكتابة مثله.. لكنهم أخذوه وتركوني.. أخذوه إلى حيث كان هو مصلوباً معذباً مجلوداً تنهشه الكلاب في مباحث أمن الدولة في لاظوغلي.. فقط لأنه يدافع عن العراق[13]:

تحت العصابة كان وقت من دم..

والأفق مشتعل بوهج حريقه الممتد..

أنت تهز رأسك..

تستفيق من المخدر وانتهاك الذاكرة (كانوا يعطونه عقاقير هلوسة لتدميره)..

شيئاً فشيئاً تخرج النهر المخبأ تحت جلدك (يقصد اعترافاته)..

أغيمة تبدو أم الإبريق صلصلة من الظمأ المفضض في العراء..

قلت اغسل القدمين والرسغين، أطفئ جمرة الفولاذ تحت أساور الصلب المحبك(يقصد القيود المعدنية)..

وارتخت في القيد أطرافي..

وكنت أفيق من خلط المخدر وانتهاك الذاكرة..

شيئاً فشيئاً..

قبل أن تبتل أطرافي انتبهت على فحيح الموت

يفهق في العصي وفي كعوب الأحذية:

- قم، طأطيء الرأس، استدر، واصعد، وقف..

كان الهواء رطوبة وحرارة وزهومة تعلو عفونتها..

ورائحة الشواء كأنها نتن الخليقة في سهوب الموت..

وكان القيد في الرسغين جمراً نابضاً:

- (هيئه واحذر أن يموت فعهدة الأفراد كاملة الدفاتر)

كنت مشبوحاً وسلك الكهرباء على يديّ

وكان برق من وحوش الطير ينهش ظاهر الكفّين(يقصد التعذيب بالكهرباء)..

تنبش ثم تلقط..

لا دمي يكفي ولا يكفي طحين العظم..

فانظر هل ترى..

لا شيء يبقى من بلادك غير جير العظم..

هل وطن سوى هذي المسافة بين لحمك في الجحيم وبين سلك الكهرباء

***

كان الاسم الرمزي لحرب تدمير العراق ليس عاصفة الصحراء بل المجد للعذراء: Ave Mary ، وكان الشاعر الكبير محمد عفيفي مطر يشاهد مقدمات سقوط بغداد وهو معلق معذب مهان معصوب العينين في جحيم لاظوغلي:

كان الليل تحت عصابة العينين ينبض ملحه المسنون..

بالبرق المفتت والدخان ومشهد الموت الأخير..

***

ومئذنة يؤذن فوقها الجزار: Ave Mary

ومريم كانت اتكأت تهز النخل لا رطب ولا نجم سوى الفولاذ منصهراً.. يئزّ يؤجّ يهطل..

والدخان معارج الموتى وقافلة الحجيج..

صوت المؤذن من رفات العامرية طالع متوضئ..

باللحم والدم وانصهار الرمل والفولاذ بالموتى

وأنت تخب في عار النجاة تقلب الكفين من مقهى إلى مقهى..

ومن عار الحداثيين في لغو القراءات الدنيئة والضمير المسترق..

من المهارشة الخصية من مصارعة الديوك على بقايا الغائط النفطي.. والتنوير في ظل النعال..

وأنت في عار النجاة تخب..

والصوت المؤذن رائق الترجيع..

كان يثوّب (يوقظ) الموتى..

فينبعثون من روح الظلام..

جماعة يتقطر الدم من وضوئهمو ومن قتلى الظهيرة في الميادين التي امتلأت كتائب من سرايا الأمن..

تبدأ ركعة الميعاد على ربوبيات لاظوغلي..

ونهش الكهرباء على المعاصم والمحاشم..

***

أتذكر ما حدث في العامرية..

كان ما حدث في مخبأ العامرية مجداً للشيطان وأي مجد ...

ومجداً للأمريكان وأي مجد..

هاجمت طائرة أمريكية من نوع الشبح ملجأ العامرية بصاروخ موجه بالليزر: "... محدثاً فتحة في السطح والسقف، وانفجر في مستشفى الملجأ، وبعد أربع دقائق وجه صاروخ آخر عبر الفتحة نفسها التي أحدثها الصاروخ الأول، وأغلق انفجار الصاروخ الثاني الأبواب الفولاذية التي يبلغ وزنها ستة أطنان وسمكها نصف متر، وأحرق مئات عدة من الأشخاص، في الطابق الأعلى تبخر كثيرون منهم بالحرارة، التي بلغت درجتها آلافاً عدة والمتولدة من الانفجار، وكان مصير مئات عدة من الأشخاص الغليان حتى الموت في مياه المراجل الضخمة المدمرة في الانفجار، لا يُعرف على وجه التأكيد عدد المدنيين الذين قُتلوا في ملجأ العامرية في تلك الليلة، كان السجل المدونة به أسماء الأشخاص الذين احتموا بالملجأ قد أودع في الملجأ نفسه ولم يعد له أثر، ولكن من المعروف أنه قبل تلك الليلة، كان (1500) شخص يوقعون عند دخول الملجأ كل ليلة، وعُثر بعد المجزرة على أحد عشر شخصاً قُذف بهم خارج الملجأ، وبعد ساعات عدة مرعبة استُخرجت من البناية البقايا السوداء المشوهة لأربع مئة وثلاثة أشخاص، وقدر أن مئات عدة من الأشخاص قد احترقوا وتبخروا ولم تعد ثمة وسيلة لتحديد هويتهم أو حتى عددهم، ووصف شهود منهم تام دالي، العضو العمالي في البرلمان البريطاني، آثار النساء والأطفال المتفحمة على جدران الملجأ، تفحمت طبعات أقدام وأيد صغيرة على الجدران والسقوف وانطبعت على جدران الطابق الأسفل عند علامة الماء في الخزانات المتفجرة آثار اللحم البشري على ارتفاع خمسة أقدام...".

يومها بكيت بغداد كما لو كانت قد اختفت من الوجود..

***

كيف استطاع أحمد خيري العمري أن ينجو من مخبأ العامرية حين انصهر الفولاذ وتبخرت الأجساد؟.. لكنه بالمعجزة ينجو ليكتب لنا الحكاية.. حكاية: (ليلة سقوط بغداد)..

أنا رأيته هناك.. فكيف نجا؟!.

***

هل قلت لكم إنني تخيلت أنني أعرف أحمد خيري العمري منذ أربعين عاماً؟!

لم أقل لكم كل الحقيقة..

الآن أعترف لكم.. لقد رأيته قبل ذلك بكثير جداً.. رأيته نازفاً وجريحاً عند سقوط بغداد على أيدي المغول الأُوَل.. ورأيته ينتقم لها في عين جالوت.. كان يقف خلف سيف الدين قطز.. وعندما ألقى قطز بخوذته وهو يصرخ واإسلاماه، تلقاها العمريّ وأعادها إليه كي يحمي رأسه.. كما يحمي الآن رؤوسنا.. بل رأيته قبل ذلك.. رأيته يوم كربلاء يكاد يقتله الانفعال ويطيح به الغضب العاصف وهو يحاول اختراق الزمن كي يستشهد مع الإمام الحسين.. وخيل لي أن الإمام الحسين يشير إليه قائلاً:

- ابق عندك.. معركتك قادمة وزمانك آت حيث تستشهد..

رأيته.. رأيت العمري والصخرة على صدره في الهجير يمسك بالبوصلة القرآنية هاتفاً: أحد أحد..

رأيته يتسلل خلف أبي الأنبياء إبراهيم ويحطم الأصنام معه..

ورأيته يهرع إلى سفينة نوح ينجو من الطوفان..

بل رأيته وقابيل يظن أنه قتله فيدفنه، لكنه بمجرد أن يدير قابيل ظهره ينتفض طائراً كالرخ إلى الزمن الآتي..

فهل خف اندهاشكم الآن من قولي لكم في البداية أنني عرفته منذ أربعين عاماً؟!

***

في لحظة عبقرية عبر فيها ( العمري ) في ( ليلة سقوط بغداد ) وهو يحاذر النظر في المرآة خشية أن يواجهه وجهه القديم.. تلك اللحظة الغارقة في الخيال بالنسبة إليه كانت ما روعني عندما قرأته.. رأيت فيه ملامح وجهي القديم..

ها أنذا أظفر مرة أخرى بكاتب يهزني من الأعماق كما هزني ذات يوم العلامة محمود شاكر(المحقق لا المؤرخ-المصري لا السوري) والدكتور محمد محمد حسين ومالك بن نبي ومظفر النواب وماركيز ودستويفسكي وتولستوي وتشيكوف وفوكنر ونجيب محفوظ ويوسف إدريس ومنيف ومطر..

***

المبهر في اكتشافي لأحمد خيري العمري أنني كنت كالكاهن في أصحاب الأخدود.. وظننت أنني أموت حسيراً دون أن أجد غلاماً يحمل علمي ورسالتي.. وفجأة وجد الكاهن الغلام.. وعلم أنه سيتجاوزه ويتفوق عليه.. ولشد ما أفرحه ذلك.

***

كان جزءاً كبيراً من مشروعي الفكري هو ما يفعله الدكتور أحمد خيري العمري الآن.. وهو إرساء قواعد أدب وفكر عربي إسلامي لا يستمد جذوره من الغرب.. ليس بسبب التناقض أو القطيعة.. بل عن طريق تواصل من يعلم أنه أسمى..

حوصرت.. واكتمل حصاري عام (2000) حين صادروا الصحيفة التي كنت أكتب فيها وأظنها كانت أفضل وأقوى صحيفة معارضة في العالم الإسلامي.. كنت قد كتبت فيها مقالاً بعنوان: (من يبايعني على الموت) احتجاجاً على قيام المسؤولين في بلادي بنشر رواية: (وليمة لأعشاب البحر).. وخرج عشرات الآلاف من طلاب الجامعة يتظاهرون ضد ثقافة تروج للكفر والعهر والتطبيع.. ولاحظوا أن الثلاثة متلازمة.. دائماً متلازمة..

عامل العسس الطلاب المتظاهرين بقسوة.. فقد سبعة طلاب عيونهم.. فقأها الرصاص.. فتمزق قلبي واعتليت صهوة الكتابة المباشرة.. وواجهت حملة إعلامية هائلة على مستوى العلمانيين في العالم العربي كله.. حملة تضارع الحملة التي اشتعلت بعد مباراة الكرة بين مصر والجزائر، أو تلك التي اشتعلت حول قافلة شريان الحياة وجورج جالوي والحائط الفولاذي النجس.. وتوقفت عن كتابة الرواية والقصة، وخرجت شاهراً قلمي لأدافع بالمقال المباشر عن البديهيات المنتهكة والمنكرة.. وسلمتنا الهزائم للهزائم حتى خارت العزائم.. وكلما جاءت هزيمة قلت هذه مهلكتي.. فتمضي ولا نهلك حتى تجيء بعدها قارعة أشد فأقول هذه.. هذه.. لكن الأمور لا تنتهي والهزائم أيضاً.

***

لكم كنت حزيناً عندما رأيت مشروعي يوءد.. وما أشد فرحي إذ أراه يولد من جديد على يدي أحمد خيري العمري.. ربما أفضل مما ظننت أني أفعل.

ربما كان هذا بعض سبب من انبهاري بأحمد خيري العمري..

***

في أتون الألم وجحيم العجز وجهنم العذاب كان يستبد بي كابوس لا يفوقه بشاعة إلا أنه واقع.. فينساب إليّ خيال حزين، ربما كان رؤيا، وربما كان من خلال أستار الزمن رؤية، عن فارس، ربما كان في الأندلس أو في العراق أو في فلسطين أو في سيناء أو في البوسنة والهرسك أو الفلبين أو كوسوفا أو في بخارى أو في سمرقند، أو الشيشان أو كشمير أو في دمشق وبيروت والرياض والقاهرة، فارس يحاول الدفاع عن قلعة تهدمت حصونها ونقبت ثغورها، وانشغل ولاتها الخونة، وأمراؤها اللصوص، انشغلوا عن الدفاع عنها بجمع ما سرقوه منها والهرب، ويقف الفارس وحيداً وحيران، هذا الثقب أولى بالدفاع أم تلك الثغرة، تلك الثلة من فرسان العدو أم تلك القلة، هل يندفع إلى اليسار أم اليمين أولى، إلى الأمام أم الخلف أخطر، كلما اتجه إلى مكان اكتشف أن الخطر في المكان الآخر أشد، وكلما عزم على أمر وجد أن فرصة تنفيذه قد ولت، تجيئه النداءات من كل صوب، والاستغاثات من كل جهة، اختلطت الأصوات فما عاد يعلم إن كان الصوت صوت أخيه أم صوت عدوه، وهل تكون الاستغاثة صادرة لتحذيره أم لتضليله كي يندفع إلى المكان الخطأ في الزمان الخطأ، اشتبكت الأصوات واختلطت الملامح، الأعداء يلبسون زي قومه وقومه يلبسون زي الأعداء، لم يعد يعرف، لم يعد يفهم، عيناه تكذبان وأذناه تكذبان وفكره يختل، إلى من يستجيب؟ من يُنجد وبمن يستنجد؟؟ تدور عيناه، تتسعر عيناه، يجري لكن في نفس النقطة من المكان، يلهث، يدور حول نفسه، يظل يدور، ويدور ويدور..

***

يستبد بي هذا الخيال الكابوسي، ثم ما يلبث حتى يستسلم لواقع لا يكاد يختلف عنه.. لزمان طويل كنت أحسب هذا الفارس يحمل ملامحي.. لكن.. الآن تأكدت أنه يحمل ملامح أحمد خيري العمري!..

كان ثمة خيال عبثي صور لي أنني آخر الأحياء المهمومين بالأمة على ظهر الأرض! وأنه لن يأتي بعدي من يعاني ما عانيت.. فإذا بي أكتشف أنني تركت ابناً في هجير الصحراء بواد غير ذي زرع.. سوف يعيد حكايتي ويكمل رسالتي.. ابن.. أبوه اسمه إبراهيم!.

***

أواصل قراءة أحمد خيري العمري فيزداد إعجابي به..

أقرأ (كيمياء الصلاة) حيث إهداؤه الآسر:

" أهدي هذه السلسلة إلى لميس الدفتري، والدتي..محاولة سداد لدين لا يمكن سداده ".

وحيث يقول:

في عالم لم يعد يؤمن بشيء، لا أزال أؤمن بقوة الكلمات..

في عالم لم يعد يؤمن إلا بقوة المادة، لا أزال أؤمن بقوة الكلمات، بقدرتها، بامتلاكها شفرة تفتح مغارات وعوالم..

في عالم فقد رشده منذ زمن طويل، لا أزال أؤمن برشد الكلمات..

أحياناً بمنتهى الشغف، وأحياناً أخرى بمنتهى البؤس، لكني لا أزال أؤمن بالكلمات..

وفي عالم رفع راية الاستسلام منذ زمن بعيد، لا أزال أؤمن أنا بالتغيير..

في عالم فقد الأمل في أن بالإمكان شيئاً ما، لا أزال أؤمن أنا بالإمكان.

وفي عالم صار يؤمن بالعبث.. لا أزال أتمسك أنا بالهدف..

في عالم لم يعد يؤمن إلا بالمصادفة، لا أزال أؤمن بأننا خلقنا من أجل هدف.. وأن الهدف هو أن نغير هذا العالم.. أن نعيد بناءه على أسس أكثر عدالة وتوازناً..

***

أقرأ كل أعمال الدكتور أحمد العمري فتصطخب داخلي مشاعر الإكبار والانبهار والاعتراض والإعجاب والتأييد والانفجار..

لكن.. تظل ( ليلة سقوط بغداد ) حبي الأول..

إن فقرة طويلة منها تحتوي في أحشائها على فكر أحمد العمري كله..

فلتقرؤوا معي:

رغم القصف: يوجد أمل.

.. وماذا لديك - تحت القصف- سوى أن تكون فاراً مذعوراً..

ماذا لديك سوى أن تكون ما أنت عليه.. ترتجف كما تفعل وتحتضن صغارك كما تفعل..

ماذا لديك وعدوك يضربك من كل مكان. من قارة أخرى، من فوق البحار البعيدة، وحتى من أعماقها السحيقة، من الأعالي الشاهقة، ومن الارتفاعات المنخفضة.. من الأقمار الاصطناعية وربما حتى من الطبيعية..

ماذا لديك لتفعله ولا توجد حتى إمكانية للمقارنة - بين عدتك وعدتهم - ماذا لديك لتفعله والحرب محسومة النتائج سلفاً، ونتائجها محض أرقام: أرقام لإعادة الإعمار. أرقام لبراميل النفط. أرقام لأسعار النفط. أرقام للاحتياطي المتوقع وغير المتوقع.

.. وأيضاً أرقام للضحايا..

.. وماذا لديك سوى أن تدعو الله ألاَّ تكون من بين هذهِ الأرقام.. وماذا لديك وأنت وأسلحتك من مخلفات عصر آخر، وأسلحتهم (تنتمي لعصر آخر أيضاً ولكن في المستقبل) إلكترونية ومبرمجة بالحاسوب، وقنابلهم الذكية تسيطر عليها أيد غبية وأدمغة حقودة، حتى أقمارهم الاصطناعية التي تلتقط لبيتك وبيت جدك صوراً، تبدو ممتلئة حقداً عليك وعلى آبائك بشكل شخصي.

.. ماذا لديك لتفعله، وأنت الأعزل ابن الأعزل، المنتمي لأمة عزلاء ومعزولة، انفرد بها قاطعو الطرق في ليلة ظلماء، واغتصبوها عنوة، ونهبوا عفتها ومتاعها وحتى ذاكرتها، وتركوها عارية على قارعة الطريق..

ماذا لديك لتفعله - أيها الأعزل- أمام كل ذلك الجبروت والصلف والطغيان،.. وأنت مرمي على قارعة الطريق؟؟

لكنك لست أعزل قط. إذا كان عندك قيمك...

لست أعزل قط، حتى لو جردوك من سلاحك، حتى لو كنت بلا سلاح أصلاً، إذا ظلت معك قيمك..

لست أعزل أبداً - لا تقلها ولا تفكر بها- لو أنهم لم يتمكنوا من اغتصاب قيمك.. ومن انتهاب قيمك.. ومن استبدال قيمك.

كل تلك الجيوش الجرارة، مشاة البحرية، وسلاح الطيران، قوات التدخل السريع، وفرق الصيانة.. كلها -مجتمعة ومتعددة- لن تصمد أمامك، لو أنك كان عندك قيمك..

سيهزم الجمع وسيولون الدبر، لو أنك استمسكت بقيمك..، سيصبرون على البقاء، سنة أو اثنتين، أو عشراً، لكنهم سيسأمون ويملون إذا وجدوك صامداً، مستمسكاً بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها، لو تكسر صلفهم على صخرة قيمك وأنت تنقلها لأولادك وأولادك يعتبرونها الحجر الأساس لحياتهم، لو استطعت ذلك، لهزموا، ولرحلوا..

في صدام الحضارات، النتائج لا تحسب بتقدم القطعات العسكرية إلى هذه المنطقة، واحتلالها لتلك - في صدام الحضارات النتائج لا تحسب بالكم الجغرافي: ألف كيلو متر مربع أو عشرة آلاف ميل مربع.. ولا تحسب حتى بالنوع الجغرافي تلك التلة الاستراتيجية هناك، وذلك السهل الذي يحتوي على آبار النفط هناك.

في صدام الحضارات، الأمر مرتبط بالقيم..

ولو أن مجنزراتهم فشلت في فرض قيمهم، ولو أنك استمسكت واستعصمت بقيمك، ولو أنك لم تهزم من الداخل، وظلوا يحاصرون بيتك دون أن يحتلوه - وحتى لو اقتحموه- فإنهم لم يقتحموا عقلك.

لو أنك صمدت أمام معسول وعودهم، وقاومت مناهج تعليمهم، وسددت أذنيك بوجه سمومهم، لو أن أبواب عقلك وقلبك ظلت موصدة بوجوههم، وظل الحاجز يحول بينك وبينهم..

سواء رفسوا بابك ليفتحوه، أو حطموه فاقتحموه، أو طرقوه وفتحت فدخلوه.. سواء حدث هذا وذاك: فالمهم ألاَّ يقتحموك..

والمهم أن ترفض الدسم الذي يقدمونه؛ لأنك متيقن أنهم دسوا فيه السم الذي عبروا المحيطات والقارات ليجعلوك تتجرعه..

.. لا، لست أعزل قط، لو كان معك قيمك..

ولا تهن ولا تحزن. فالأمر لم يحسم بعد.

والحسم عند القيم. الحسم عند القيم. الحسم عند القيم.

.. لن يغلبوك أبداً - لو أن قيمهم لم تغلب قيمك..

لا، لست أعزل قط -لا تقل ذلك- لو أنك كنت مدججاً بقيمك..

***

هنا.. لنقف معاً وقفة قصيرة..

لأنني وقفت هنا وحدي طويلاً.. وكنت حائراً كيف أكمل المقال..

أدخل القارئ إلى المأزق الذي وجدت نفسي فيه في هذا المفترق..

كان طموحي أن أكتب مقالاً متكاملاً عن أحمد خيري العمري.. أعددت أدواتي واحتشدت.. جمعت مقتطفات من كتبه، وفوجئت - مع كل الانتقاء الصارم والمختصر- بأن ما انتقيته يزيد على مئتي صفحة من كل أعماله.. وأن ذلك يحتاج إلى مئة صفحة على الأقل من التعليقات..

وأسقط في يدي..

طوال الانتقاء كنت أعزي نفسي بأنني سأعيد الانتقاء مرات حتى أصل إلى حجم معقول..

وبدا لي الأمر مستحيلاً..

كان مستحيلاً أن أختصر أكثر مما اختصرت..

ومن ناحية أخرى كان هناك تأنيب فظيع للضمير.. لأن الأجزاء التي لم أخترها لا تقل روعة وأهمية عن الأجزاء التي اخترتها..

بدت الكلمات كائنات حية تلوم وتحتج وتصرخ..

وأدركت أنني حتى لو استوليت على هذا الكتاب الذي تعده ( دار الفكر ) كله وحدي فلن تكون دراستي عن أحمد خيري العمري كما أريد لها.

إنني أريد أن أتناول أعماله عملاً عملاً بالدراسة والتحليل والتعليق.. إنني أحتاج إلى آلاف الصفحات.. وحتى لو أتيح لي ذلك فإنني لا أستطيع وحدي التصدي لدراسة كل جوانب عبقرية أحمد العمري أو لنقد ما لا أوافقه عليه.

في هذه اللحظة أدركت أنني أمسكت بأهداب حلم مستحيل.. وأن الحلم أفلت مني..

وأن الأمر الذي أريده ليس لي..

إنه خارج نطاق استطاعتي..

إنه مهمة مؤسسات وجامعات وفضائيات وصحافة ومجلات ومعاهد ووزارات للتربية والتعليم..

لذلك أتراجع عما انتويته.. مستعيراً من أحمد خيري العمري إحدى مقولاته المبهرة في البوصلة القرآنية إذ يخاطب القارئ قائلاً له أنه هو بذاته أحد الدلائل على إعجاز القرآن بالتأثير الذي يحدثه القرآن فيه.. وبما يدفعه إليه من تغيير..

إن كتب أحمد خيري العمري كفيلة بتغييرك أيها القارئ.. فعليك بها.. لأن أي محاولة لاختصارها تشبه اختصار تمثال أو لوحة فنية؛ فهي عملية مستحيلة، عليك إذن أن تتكلم عليها وتنشرها وتعرف أصدقاءك بها.. وأن تعلمها لأبنائك.. فهي كالمصل الواقي من مرض مميت.

***

إنني أناشد كل صاحب رسالة في هذه الأمة أن ينشر كتب هذا الكاتب وأن يكتب عنها.. أناشد الصحافة أن تنشر، والفضائيات أن تعد البرامج، والهيئات التعليمية أن تضعها في مقررات التعليم.. وأناشد شبابنا جميعاً أن يقرؤوها. بل أناشد كتابنا أن يدْرُسوها وأن يتعلموا منها وأن يدرِّسوها ويعلِّموها.. لأن أحمد خيري العمري من ذلك النوع من الكتاب الفطاحل الذين يتجاوز تأثيرهم الثقافي القراء إلى الكتاب والمفكرين.

***

في البوصلة القرآنية سيذهلكم أحمد العمري بموهبة فذة وثقافة موسوعية وبفكر مدهش.. وفي الفردوس المستعار والفردوس المستعاد يتحدى العمري الدين الجديد.. دين الحضارة الأمريكية ويثبت بكل الوسائل أنه دين جديد لا يبدأ بالتصارع مع الأديان الرئيسية بل يتعايش معها ليزيحها في النهاية أو ليفرغها بالكامل من مضمونها.

يحاول أحمد العمري أن يعيد لنا فردوسنا المفقود وأن يرجع إليهم فردوسهم الملعون.

لقد اكتشف علي عزت بيجوفيتش شيئاً مشابهاً فقال: "إنهم جعلونا نفخر بما يجب أن نخجل منه ونخجل مما يجب أن نفخر به".

***

ما يزال أحمد العمري يحاول أن يعيد لنا فردوسنا المفقود وأن يرجع إليهم فردوسهم الملعون.

الفردوس الملعون الذي عبر عنه جورج أورويل في روايته الفذة (1984) حيث يصبح شيطانهم إلههم..أو كذلك الذي عبر عنه الأديب الإنجليزي (ألدوس هيكسلي) في روايته المروعة (عالم جديد رائع) التي تكشف لنا المنتج النهائي للحضارة الغربية.. المنتج النهائي الذي سماه (العمري) الفردوس المستعار.. حين يذهب مجموعة من الطلاب في رحلة علمية لأحد المختبرات الوراثية.. حيث يتمّ تعريفهم بالآلية التي يتمّ بها إنتاج البشر وتقسيمهم إلى فئات على حسب دورهم في المجتمع!

في البداية يعتذر المرشد لاضطراره لقول لفظين نابيين بذيئين أمام الطلاب.. وما إن قالهما حتّى احمرت وجنات الطلبة والطالبات في خجل شنيع!..

فيا ترى ما هاتان الكلمتان؟

هاتان الكلمتان هما.... أب وأم!

فقد انتهى تماماً النظام المتخلف المعروف بالأسرة، ويتم إنتاج البشر في المعامل بالهندسة الوراثية.

لا داعي للاستمرار في الرواية لكن هذه هي نهاية الفردوس المستعار الذي يحاربه ويفضحه أحمد خيري العمري.

***

مفتون أنا برائعتيه عن إبراهيم ونوح عليهما السلام في روايتين بديعتين تصلحان للكبار كما للصغار.. ويا له من ملمح يخطف القلب خطفاً وهو يصف الكفار من قوم نوح عليه السلام وهم يشرفون على الغرق، فيقول إنه بان على ملامحهم أن الموت أهون عليهم من الإيمان بالله ومن الاعتراف بأنهم كانوا مخطئين..

وكأنه يصف علمانيينا ودعاة الدولة المدنية..

***

يخطف القلب في مجموعته البديعة عن الصلاة بطريقة عرضه وسرده وبمنهجه الفكري.. إنه يتحدث مثلاً عن تكفير الصلاة عن الذنوب بينها إلا الكبائر.. لكنه يكشف لنا ما لا

يخطر لنا على بال وإن استقر في الضمائر.. ذلك أنه يكشف لنا أن الكبائر ليست فقط ما نرتكب.. بل أيضاً في تلك الأشياء التي لا نفعلها لتكون أكبر الكبائر؛ أن تعيش حياتك لا تفعل شيئاً.

***

مقالات العمري رائعة..

تحليلاته رائعة..

الجانب الروائي فيه رائع..

لكن (ليلة سقوط بغداد) تظل حبي الأول..

ولكن المساحة المتاحة لم تعد تتسع لمزيد.

فقط أقول إنه لن ينال جائزة نوبل أبداً.. سوف ينالها زميله طبيب الأسنان الآخر الدكتور علاء الأسواني.. وقد تعلم كلاهما وعمل فترة في أمريكة.. وبادر الأسواني بالتشهير بأمته والسخرية من ثوابتها، فحق له أن تطبق شهرته الآفاق، وأن يبدأ انتظاره لنوبل بعد ثلاثة أعمال قيمتها مشكوك فيها تماماً..

أحمد خيري العمري لن ينال نوبل أبداً لأنه يدافع عن ثوابت أمته.. يكتب بدمه وبجماع عقله وروحه.. إنه لا يبيعهم شيئاً فكيف ينال منهم شيئاً؟!.

المقارنة بين الاثنين تدل على مدى فساد الثقافة في بلادنا.

أحمد خيري العمري ومضة أمل وشعاع ضوء يحمل لنا رسالة أننا لن نتلاشى ولن نبيد ولن تهلك بيضتنا..

أحمد خيري العمري دليل على أمة ولود ستقهر ما تواجهه من صعاب..

أحمد خيري العمري لطمة هائلة على وجوه غليظة لأشباه كتاب وأشباه نقاد وأشباه مفكرين سلعهم الشقاق والنفاق والسحاق والشذوذ والعهر والكفر وعبادة الذات.

أحمد خيري العمري شجرة وارفة تستحق من كبار نقادنا الشرفاء أن يلتفتوا إليها.. فذلك حق القارئ في عالمنا العربي والإسلامي.. حق القارئ الذي أغرق في مستنقعات الدنس وغياهب الظلمات أن يحس لمسة طهر وبصيص نور.

***

يا عمري.. يا بن بغداد العظيمة.. بغداد الحبيبة.. بغداد الجريحة.. بغداد الشهيدة..

بل يا بن أمتنا.. بل يا بن الإسلام!!

***

الآن أدرك بعض سرك.. يا حبيبتي.. يا جريحتي.. يا شهيدتي.. يا بغداد..

الآن أدرك كيف استطعت-أيتها البسيطة الصريحة الصادقة الأبية- أن تخدعي العالم.. ولم يكن لديك مخابئ ولا كهوف ولا وسائل تشويش تجعل المرئي لا يرى..

الآن أدرك بعض عبقريتك وأرى بعيني رأسي أين خبأت أسلحة الدمار الشامل التي عجز العالم بكل ما فيه من علم وشر أن يعثر عليها..

الآن أدرك يا حبيبتي.. يا جريحتي.. يا شهيدتي.. يا بغداد.. أنك خبأتيها في قلوب أبنائك..

ها أنذا أصفعك يا عالم الشيطان وأبصق في وجهك وأقهقه ساخراً على خيبتك، بل وغباء ذكائك لأشير إلى أحمد خيري العمري صائحاً صادقاً جاداً: هذا هو سلاح دمارنا الشامل.. هذا سلاح لا تستطيع راداراتكم رصده ولا طائراتكم قصفه ولا صواريخكم نسفه.. إنه بعض عبقرية أمتنا.. إنه سلاحها السري.. وهو حيث لا تستطيعون العثور عليه أبداً، فمكانه القلوب والعقول، أما زمانه فهو المستقبل.. نعم.. خبأته بغداد في الزمن الآتي.. حيث لا تستطيع جحافل جيوشهم ومسوخ مخابراتهم الوصول إليه.

سيحاولون الحيلولة بينه وبين الناس.. سيسلطون عملاءهم على تجاهله.. وفضائياتهم على عدم استضافته.. وصحافتهم على عدم النشر له.. لكنه سيحفر أنفاقاً بينه وبين الناس.. سيصنعها على عينه.. سيحاولون بناء الجدر الفولاذية بينه وبين الناس.. لكنه سينتصر.. وأنفاقه ستتصل..وفولاذهم سيذوب ويتلاشى..

أدرك يا بغداد يا حبيبتي.. يا جريحتي.. يا شهيدتي.. أنهم سيحاولون إسكاته بكل وسيلة.. لكن ما لا يدركونه أنه جاء من وراء ما يدركون.. وأنك يا بغداد.. يا حبيبتي.. تحتفظين بشفرة جيناته السرية، فكلما قتلوا لك ابناً أنجبت لهم آخرين.. سيأتون لك-أبناؤك- يا

بغداد كما أتى الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم يوم حنين إذ ناداهم: أنا النبي لا كذب.. أنا ابن عبد المطلب..

سيأتونك يا بغداد عبر دربوناتك السرية.. في طرق لم تتدنس بأعدائك.. سيأتونك عبر الأنفاق التي تتحدى الخيانات وجدر الفولاذ يا بغداد.. يا حبيبتي.. يا جريحتي.. يا شهيدتي.. يا بغداد..

***

أما أنت يا أحمد العمريّ: فيجب أن تدرك أنك جوهرة نادرة.. وأنك لست ملك نفسك.. وأن تتعهد نفسك بالرعاية الفكرية والوجدانية والثقافية التي تجعلك تؤدي دورك..وأن تحافظ لنا عليك..لنا.. ولبغداد.. ووالله إني لأرجو أن تكون ممن عناهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: "إن الله يبعث على رأس كل مئة عام من يصلح لهذه الأمة أمر دينها".

# العمري - قلمي الذي لا أمسكه بيدي

**د. عبد الرحمن ذاكر الهاشمي***

الحمد لله أولاً وآخراً... والصلاة والسلام على معلم الناس الخير... وعلى آله وصحابته وتابعيهم...

سأبدأ بقول الله جل في علاه في القرآن: {وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ *} [الأنفال: 8/63] ... وقول الحبيب صلى الله عليه وسلم في الحديث المتفق عليه: "ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان... وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله"...

هذا هو أحمد خيري العمري الذي عرفته... وأعرفه...

إذا جاز لي أن أتطاول لأعتبر هذه الرسالة وساماً يُمنح تكريماً للأصدقاء وأهل الفكر والمبدعين والمتقنين والمجاهدين... فأنا لا أبالغ إذا قلت بأن الوسام هو على صدري أنا.. أنا كاتب هذه السطور... فإن مجرد توهم أن مثلي له أن يكرم عملاقاً في مقام (العمري)... لهو وسام على صدري أنا...

نعم... الكتابة في شيء من حق (العمري) هي تطاول أتقاصر دونه وأرنو إليه...

وسبحان الله... الذي قدر فهدى...

بدأت قصتي مع (العمري) يوم أن كنت أحاضر في حلقة تدريبية في دبي... فقامت إحدى الأخوات المتدربات لتسألني إن كنت قد سمعت عن "هذا الكاتب الجديد الذي يقولون إنه عراقي"... ثم ألقت إلي بكتاب (ليلة سقوط بغداد)... وكان الوقت قد حان لصلاة المغرب... فتوقفنا للصلاة... وجرت سنّة الفواصل التدريبية أن يكون هناك دقائق بعد الصلاة يتناول فيها الحضور شيئاً من المقبلات والمشروبات الساخنة قبل أن نواصل المادة التدريبية... فدفعني الفضول لمطالعة الكتاب... وما شعرت بالوقت إلا وإحدى الأخوات تسألني: "دكتور عبدالرحمن... خيراً إن شاء الله؟! هل سنكمل الدورة اليوم؟"... فعلمت حينها أن العمري قد

(سرقني) من طلابي وطالباتي... كان قد مضى علي ما يقارب الساعة إلا الربع وأنا (أسير) العمري...

كنت قد نويت قراءة المقدمة... فقط المقدمة... وانتهى بي الأمر أن تحولت مادة الحلقة التدريبية يومها للحديث عن (العمري)... و(ليلة سقوط بغداد)... و(الصمود) في القرآن...

كان موضوع الحلقة التدريبية يومها عن الصلاة بوصفها محطة تزكية عملية وفاعلة في حياتنا اليومية... وعن (الأنس بالله) وتطبيقاته فيما يعرف بالصحة النفسية... فوجدت شيئاً من ضالتي في ما اقتبسته من كلماته: "الصمود هو ما تكتشف فجأة أنك تستمده منه بالذات... وبشكل شخصي... ومن اسمه بالذات: الصمد"...

كانت هذه هي البداية...

قد لا أستغرب هذا إذا كنت من (رواد الأدب)... أو من (مريدي الروايات)... ولكنني من المقلين... جداً... في قراءة الروايات... حتى لبعض (المفكرين الإسلاميين)، وإن كانوا يعدون على أصابع اليد الواحدة... كما أنني ناقد شديد... لا يعجبني ما أقرؤه بسهولة... حتى إن بعض المقربين مني يتردد في عرض كتاب أو مجلة أو حتى رسالة علمية علي... وحتى إن البعض يفهم الأمر - خطأ - على أن فيه شيئاً من العجب بالنفس أو رائحة كبر... (وأعوذ بالله أن أكون كذلك)... إلا أنني صعب المراس إذا ما تعلق الأمر بقراءة (الأدب) و(الفكر)... ولا يعني هذا بالضرورة أنني متقدم في هذا (الفن)... إلا أن الأمر بكل بساطة... وبكل تعقيد في الوقت ذاته... أنني لا أتذوق كل ما في (السوق)...

حتى جاء من يقول لي: مكانك...

هذا هو أحمد خيري العمري الذي عرفته... وأعرفه...

كانت (ليلة سقوط بغداد) قد خاطبت لدي أمراً شخصياً... فموضوع (العراق)... و(الإنسان العراقي)... و(حضارة العراق)... و(أحياء العراق)... و(بيوت العراق)... إن كان هذا كله لن يخاطب فيَّ أمراً شخصياً... فماذا بقي من إسلامي وعراقيتي؟! فكيف إذا كانت القصة تحكي واقعاً يكاد يصادق عليه كل (عراقي)؟!

ولم أفاجأ بـ(عراقيته)... بل ارتسمت على شفتي ابتسامة "كنت أتوقع ذلك"... فملامح (العمرية) في شخصية (العمري) لا بد لها من (بذرة عراقية)... وأهل مكة أدرى بشعابها... وكل (تقدير النفس) و(العزة) المتعمدة والواضحة في كتاباته تنبئ عن (عراقية) من نوع

خاص... نوع أعرفه جيداً... وإن كنت غادرت العراق صغيراً... إلا أن ملامح (العمرية) سنأتي على ذكرها بشكل (شخصي) لاحقاً...

واحتفظت بمحبتي له في سري... ولم أبدها لكل من سألني عنه... حتى أتحقق أكثر من (شخصيته)... فإن من أهم ما يوثق عرا (الحب في الله) لدي هو صفة التواضع... فقلت: أنتظر حتى أرى إلى أي درجة تمضي به قوته في طرح ما يؤمن به!

ثم بدأت بتتبع مقالات (العمري)... وكانت تعزز ما لمحته في (ليلة سقوط بغداد)... بل تزيد عليه ما يجعل مقالاته وكتاباته أمراً مرتقباً... بشغف...

أعجبني في كتاباته حتى تلك اللحظات:

قلمه الذي يمسك بالقلب واللب معاً... صدقاً وعقلاً وحكمة... وضوحاً (بل جلاء) في الرؤية...

(الإنسان) الذي أحب أن يتواصل مع الناس ويعرفوه كما هو... لا كما (يتوهمون)...

(تربية المساجد) التي أبحث عنها... وأشتاق إليها...

(التأصيل) الذي أفتقده... تأصيل الجديد... وتجديد الأصول...

(الأدب) كما أحب أن أتذوقه... أدب (يؤدبني) ويفتح لي آفاقاً عديدة...

(الرواية) كما أعقلها... حكمة تستقى من "العاقل من اتعظ بغيره"...

(السباحة ضد التيار) التي أعشقها... وأدعو إليها... والتي كان - ولا يزال - رائداً من روادها...

كان (يتعبني) بموسوعيته... (روايته الفكرية) فيها بلاغة نادرة... ففي الجملة الواحدة نقرأ أدباً... وتأريخاً... وشريعة... حتى إنني كنت أحتاج أن أتوقف أحياناً لأتحقق من حدث تاريخي أو أبحث عن رمز تاريخي لم أقف عليه، أو حتى لأتأكد من صحة حديث اكتشفت اللحظة أنه ضعيف!

ومع هذا (التعب)... كان هناك ذلك الشعور (بالإثارة)...

أحببته في الله (من القراءة) الأولى... قبل أن أعرف من هو (حقيقة)... ولا سيما أنني من أولئك الذين يحبون أن يعلموا حقيقة من يضعونهم في صندوق (العمالقة) و(المقربين) في (مستودع الدماغ)... إلا أن (الحب في الله) يقتضي بتعريفه وطبيعته وضرورته "أحبب حبيبك هوناً ما"... فكان هناك بعض التحفظات التي لا تشكل ما يستحق التوقف عندها...

هذا هو أحمد خيري العمري الذي عرفته... وأعرفه...

كان هذا كله قبل أن أعلم بأمر (الفردوس)... فلما (وجدتها)... أدركت أنه ينتظرني الكثير من هذا الرجل...

لاح (الفردوس)... رائعة أدبية وحضارية غير مسبوقة... أقولها بكل ثقة...

لاح (الفردوس) في وقت كنت فيه مقبلاً على تجربة شخصية جداً... ألا وهي السفر إلى (أمريكة)...

نطق (الفردوس) بكل ما كنت أظهره وأبطنه من تصورات حول (طاغوت القرن)... كل هواجسي ومخاوفي وظنوني ومعتقداتي فيما يتعلق بجاهلية (لا إله) التي تعمل جاهدة للإطاحة بأمة (إلا الله)... كثير مما يحويه - وأكثر مما لا يحويه - خيالي من صور (العبودية الحديثة) و(الوهن العصري)...

بل بلغ الأمر بي أنني كنت في لحظات معينة أبتسم ابتسامة "الله يفتح عليك يا أحمد"، أو "الله يرضى عليك يا أحمد"، أو "كنت سأقولها يا أحمد"، أو "كيف استطعت أن تصوغها هكذا يا أحمد؟"...

أسرني (العمري) منذ البداية في كلماته التي أهدى بها كتابه إلى ذلك (القناص الأمريكي)... وإلى (دقته في التصويب)... وإلى (قيمه)... وإلى (رأسه الفارغ)... وإلى (حضارته)... وإلى (ثقافة البوب كورن)... حتى بلغت الجملة التي اختصرت... وتجاوزت... كل مؤتمرات (حوار الحضارات)... تلك الجملة التي اختتم بها إهداءه: (هذا الكتاب هو ردي عليه... وهو سطوري أنا في ذلك الحوار... وكما كان هو دقيقاً في التصويب... آمل أن أكون أكثر دقة)...

ما زلت أذكر أن (العمري) استطاع أن يدفعني - وبالأحرى يجذبني - لأغير هيئتي من الاضطجاع إلى الجلوس والانتباه وهو يخوض في تفاصيل حياتنا (الاستهلاكية) - وأسميها أنا (البهيمية) -... تصوير درامي بارع في واقع الحياة اليومية الذي يعيشه الغالب من أمتنا...

والأمم الأخرى... كم أعجبني وصف (الصنم) لصندوق الإعلام المسمى بالتلفاز... قلت يوماً لزوجتي: "أتساءل إذا كان هذا الرجل يعيش في العراق أم خارجه! لأن الوصف دقيق إلى حد الإزعاج"...

لاح (الفردوس)... عدسة مكبرة... وأشعة إكس التي تكشف باطن (الزخرف)... ظهر لي (العمري) في (الفردوس) كذلك المراقب من بعيد... الناظر من الخارج... الذي يرى المشهد بكل أبعاده... ثم هو لا يفتقر إلى تجربة أولئك الذين في الداخل... بل هو (شيخ حكيم) في تحليلها... يأتي (من أقصى المدينة) إلى أولئك الذين يظنون خيراً بذلك (القادم الوافد)... (الدجال)... الذي يعدهم (بفردوس آخر)... يأتي (العمري) ليدق ناقوس الخطر... ليحذرهم... ليقدم لهم الإسلام... كما هو... ليس على أنه بديل... ليس كأولئك النفر الذين وقعوا في فخ (الدفاعية) بتقديم حلول (بديلة) لما يقدمه (الآخر)... فصاروا يقدمون صورة (ممسوخة) عن الإسلام... صورة أرادها (الآخر)... لا كما نفهمها من صريح القرآن وصحيح السنة...

نعم... قدم (العمري) الإسلام كما أراد له خالقه - والله أعلم -... بعزة استقاها من (العزيز)... قدم الإسلام كما هو في أصوله... في أركانه... في منظومته الحضارية التي رسمها الله (للخليفة)...

(العمري) في (الفردوس) ينبه كثيراً من أهل العلم والمفكرين والمشتغلين بأمر التربية والتعليم والدعوة إلى خطورة - وخطأ - ما يوجهون أسلحتهم لمحاربته في الوقت الذي تؤتى أمتنا فيه من ثغر آخر تماماً... الفكر والحضارة... الدين بوصفه منهج حياة... هذا الثغر الذي قد يكون هؤلاء القوم الذين ينتسبون إلى (الدعوة) قد أتوا منه قبل غيرهم...

(العمري) في (الفردوس) يقوم بدور (الفيلسوف) و(عالم النفس الاجتماعي)... يؤدي الدورين... بل يتقمصهما بكل تفوق... اقرؤوا معي (دين جديد) و(سيناريو الفقدان وخطة الاستعادة)... ستجدون أن (العمري) قد تفوق على نفسه حينها... لأنني اكتشفت أنه تفوق عليها كثيراً لاحقاً -... حلل ما يعرفه (النفسيون) (بالحيل الدفاعية) في محاولة الإنسان التغلب على (ضعفه الكامن)...

فكك (العمري) رموز (الحلم الأمريكي) إلى (ثوابته الخمسة): المادية والفردية والاقتصاد الحر والاستهلاك والعيش في الحاضر (الآن وهنا)... تفكيك لم أر مثيله من قبل... على الأقل ليس بهذا الوضوح... وليس بهذه (العزة) في الطرح...

ولعل هذا ما دفعني لأهدي (الفردوس) إلى عدد أكبر من (غير المسلمين)... وتلقوه بشكل أكثر من تلقيهم (للبوصلة) لاحقاً...

(العمري) كان يمشي متبختراً - وحق له أن يتبختر - في (خيمة أمريكة)... يذكرني بمشية ربعي بن عامر في بلاط رستم... يمزق (النمارق) ليعري ما فيها من (حضارة زائفة وزائلة)... ليغدو رستم بعد أيام أسيراً في يد الأعرابي...

قرَّب (الفردوس) صورة (العمري) من شخصيتي أكثر وأكثر... أحببت - بل أكبرت - فيه "المسلم العزيز بربه أولاً"... والذي صرت أراني في طلبه غريباً في زمن سادت فيه لغة (المهادنة) المغلفة (بالمداراة)... ولا سيما مع تلك اللغة الغريبة - عني - والتي صرت أسمعها يتداولها "دعاة جدد" في خطابهم لأنفسهم ولأقوامهم و(للآخر)...

هذا هو أحمد خيري العمري الذي عرفته... وأعرفه...

ثم وجدت (البوصلة)...

استوقفتني (فلسفة العنوان): "إبحار مختلف بحثاً عن الخريطة المفقودة"... إلا أن (الخريطة المفقودة) جعلتني أتوقف لأقول في نفسي: "يظهر أن الرحلة ستكون مليئة بالمشكلات"... وكنت أعني بالمشكلات هنا (النقد السالب) الذي كنت أخشى أنه سيقود إلى (سوداوية النظرة)!!! ثم جاء الإهداء ليظهر وسطية استشراف المستقبل عند (العمري): "إهداء لا بد منه... إلى جيل آخر... قادم لا محالة"... فعلمت أن الرجل ليس واقعاً في فخ (الإغراق في السلبية)... بل هو (الطبيب) الذي توجب عليه أمانة المهنة أن يشخص المرض كما هو... لا كما يتمنى المرضى أو يتوهمون... مع سعيه - في الوقت ذاته - ليبشر المرضى بعلاج متوافر... لكنه يحتاج إلى وقت وجهد...

و(البوصلة)... كاسمه... دليل لا بد منه لأي مسافر أو مسافرة في طريق الله... بل حتى لأولئك الذين يتوهمون أنهم في طريق غير طريق الله... قد تستغربون إذا قلت لكم أنني نصحت (بالبوصلة) بعض (غير المسلمين)... فخرجوا - بعض منهم - منه باتجاه آخر لتفكيرهم وحياتهم...

قال لي أحدهم - وهو غير مسلم -: "هذا الرجل لا بد أن يكون درس في الغرب... إن أسلوب كتابته ليس شرقياً..."... فقلت له: "أنا لا أعلم حقيقة أين تلقى تعليمه... ولكن لم تقول ذلك؟"... فقال: "إن أسلوب الرواية المختلط بالفكر ليس معهوداً عندنا... كما أن استخدام الرموز

لديه ظاهرة فيه النزعة التجريدية... أضف إلى هذا استخدام مصطلحات ومفردات متنوعة في سفر واحد يتناول فيه (كتاب المسلمين الأول) - يعني القرآن -... مفردات مثل: المورفين... اسأل عدوك... المؤسسة الدينية... التيار العقلاني واللاعقلاني... اللوغوس... شعوب الجنوب... هامبرجر أم يقطين... قلق من الموت... ماغنا كارتا... وغيرها"...

أذكر أن هذا الشخص كان قد تنبأ بأن يتربع (العمري) على عرش (الرواية) في الشرق...

لافتة: كان هذا الشخص قد قرأ (الفردوس) فصار (مدمناً) على (العمري)... هذا الشخص يهاتفني بين الحين والآخر ليسألني عن جديد (العمري)... المشكلة أنه بعد كل قراءة لجديد (العمري) أعلق في نقاش طويل معه... لأقول بعدها: "ما الذي ورطني هذه الورطة؟"...

والبحث باستخدام (بوصلة العمري) تمرد من نوع خاص... وانتصار مبدع للأصول بأدوات العصر... وقلب للطاولة على (جاهلية التقليد)... وسلفية حقيقية... ودعوة صريحة وجريئة ومغامرة لإعادة النظر... بل لإرجاع البصر... في قراءتنا لـ "اقرأ"...

وكما كان (لليلة سقوط بغداد) و(الفردوس) وقع شخصي... كان (للبوصلة) وقعه الخاص... جداً... فلما علمت بأن زوجتي حامل... عزمت على إعداد (موسوعة قرآنية) لتكون أول (هدية تربوية) لابنتي (مريم)... ونويت أن أتتبع القرآن منذ أن تكلم به الله حتى نزلت "اقرأ" على رسول الله صلى الله عليه وسلم... ثم قادني تفكيري إلى أن أتتبع (تنزل القرآن) من زاويته (التربوية) التي أنتجت (القرن الأول)...

وجاء (البوصلة)... ليضع كل ما كنت أتصوره... بل أكثر منه بكثير... في قالب واحد... وسفر موجز... وأداء مبدع... وطرح متسلسل منطقي... وأهم من هذا كله... منهج علمي تأصيلي فريد... مع إسقاط واقعي وتحليل عملي لمفردات معاصرة...

اقرؤوا معي بلاغة الفكرة وأدب الثقة وجلاء التصور في تصميم (البوصلة):

"والمتصدي لهذه الأمور يعرف جيداً جسامة مهمته، بل إنه يكاد يحفظ غيباً كل التهم التي ستلقى عليه، لكنه يحتمي بما هو أقوى من المؤسسة التقليدية نفسها؛ إنه يحتمي بالقرآن وكفى بمنزله وكيلاً وحسيباً"...

واقرؤوا معي تلك الفلسفة الجديدة لـ (المعجزة):

"فقد كانت البداية: (اقرأ) وهي بداية من الصعب تجاوزها بسهولة - أو حتى بصعوبة - لقد وجدت أنها تمثل الجوهر الأساسي للرسالة التي ابتدأت ملامحها تتضح تباعاً، وبالتوالي وهو جوهر ملتحم ومتمثل أساساً بالوسيلة القرآنية في استشعار المعجزة: العقل"...

أفكر - معكم - بصوت عالٍ: متى كانت آخر مرة قرأنا فيها شيئاً من هذا البيان لمقام العقل في الإسلام؟

خرجت من (البوصلة)... وكأني (بالعمري) يقول: يا أيها الذين أسلموا... أسلموا...

هذا هو أحمد خيري العمري الذي عرفته... وأعرفه...

ثم أتاني (أبي اسمه إبراهيم)... فتلقيته بلهفة بالغة وتوق شديد... لأن شخصية (إبراهيم) عليه السلام لها مكانة خاصة في تكويني... ولعل (للبوصلة) دوراً في هذا... شخصية (إبراهيم) عليه السلام هي الشخصية العقلانية التي ترد كل ما علق في أذهاننا من (المؤسسة التقليدية)...

أما الإهداء... فجمع شغف القراءة... وإثارة الكتابة... وعاطفة الأبوة التي رقرقت الدمع في عيني... ألم أقل لكم أن في كل كتاب خطاباً شخصياً إلي؟!

وكما فعلت مع (الفردوس) و(البوصلة)... فعلت مع (أبي اسمه إبراهيم)... وأهديته لكثيرين... كان أحدهم طالباً من طلابي... لا يتجاوز الحادية عشرة... إلا أنه قارئ نهم... قال: "هذه الرواية تذكرني بـ(هاري بوتر)... ولكنها نسخة إسلامية حقيقة وليست خيالية... لكنني لم يعجبني مثال (الفئران الميتة)... أتمنى أن يكتب الدكتور العمري رواية مماثلة عن (يوسف) عليه السلام"...

(أبي اسمه إبراهيم)... رواية تربوية... تقيم الحجة على (دور التربية والتعليم) في تعليم الأبناء أهمية (التفكير) ومكانة (العقل) وما يتميز به (الإنسان)...

وكما هي موجهة في ظاهرها للصغار... فإنها تخاطب... وبكل عمق... عالم الكبار اليوم... في هذه الجاهلية المعاصرة... تخاطب (الملاحدة) و(الوجوديين) و(اللا أدريين)... تخاطبهم بكل بساطة وتعقيد...

ولعلني كنت أتوقع الكثير من (أبي اسمه إبراهيم)... ولهذا... فقد خرجت بتحفظات كثيرة... أكثر مما كنت أتوقع... ولا سيما في ما أراه أنه خيال جانح في تصوير (الشخصية المتمردة) لخليل الله (إبراهيم) عليه السلام...

ولكن يحق (للعمري) ما لا يحق لغيره... يغفر له - هذا إذا ثبتت التهمة - ما أحسبه إخلاصاً... ولا أزكيه على الله... كما يغفر له قوة الحجة التي أعلم أنه - غالباً - سيغلبني بها... (أبتسم هنا ابتسامة مشاغبة).

هذا هو أحمد خيري العمري الذي عرفته... وأعرفه...

ثم سطع (ضوء في المجرة)... فكان لكل عنوان في هذه السلسلة وقعه الخاص...

وإن كان من شيء أذكره حول هذه (السلسلة)... فقد ضاعفت من إعجابي بقدرة (العمري) الفائقة على تناول خاطرة أو حدث ما... ثم تحويلها إلى لوحة أدبية وفكرية... وموعظة دينية... بل جولة حضارية... لقيمات سريعة... لكن كل واحدة منها تحمل وجبة غذائية دسمة... لا أكاد أملك أن أنهيها في (وجبة) واحدة...

أضيف إلى هذا... الأخوة العارمة التي غمرني بها (العمري)... قصد أم لم يقصد... من خلال هذه (السلسلة)...

هذا هو أحمد خيري العمري الذي عرفته... وأعرفه...

ثم شاء الله لي أن أقدم إلى الولايات المتحدة الأمريكية... فأدركت جلاء الرؤية ونفاذ البصيرة عند (العمري)... رجعت أقلب صفحات (الفردوس)... لأجدني وكأني أقرأ (كتيباً إرشادياً سياحياً) ولكن من زاوية (روحية) تحمل الخلافة هوية ووظيفة وهدفاً على وجه هذه البسيطة... قرأت في (الفردوس) معنى (البوصلة)...

وفي (أمريكة)... وصلني (كيمياء الصلاة)...

قرأت (كيمياء الصلاة)... فغاظني ما فيه بقدر ما أدهشني... مطابقة الأفكار لحلقة تدريبية لي بعنوان (صلاة عند سدرة المنتهى)... لكن (الكيمياء) جعلني (أرفع القبعة) (للعمري)... وأدرك مدى (عملقته)... بل أعيد التفكير في صياغة الحلقة التدريبية... ببساطة... لأن (الكيمياء) - كما يدل اسمه - هو تفكيك لعناصر الصلاة ومكوناتها... إعادة لتعبئة (الشحنات) التي تنطلق من نواة كل عنصر من عناصر الصلاة... تناول مبدع (لصفة صلاة النبي)... بتأصيل سلفي عتيق... ورؤية عصرية عملية...

(كيمياء الصلاة)... أو (الكيمياء) كما يحب أن يسميه (العمري)... هي نصيحتي... عفواً... هي هديتي لكليات أصول الدين... لخريجي كليات الشريعة... لخطباء المساجد...

لخطباء المساجد... لخطباء المساجد... (حتى قلنا: ليته سكت)... لمدرسي التربية الإسلامية... ثم لعوام المسلمين...

إذا لم أخرج من (الكيمياء) إلا بعلاقة متينة... أو على الأقل متجددة... مع الصلاة... فإن هذا صدقة جارية يتركها (العمري) في رقبتي وفي رقبة كل من درس (الكيمياء)...

وفي أمريكة... كنت أرسل بعض كتب (العمري) إلى عدد من الإخوة والأخوات هنا... بدأت بكتاب (كيمياء الصلاة) و(الذين لم يولدوا بعد) و(الفردوس) و(البوصلة)... ثم انتهى الأمر (بتوصيات) للمجموعة الكاملة من (الشام)...

ثم قررت ما كنت قد أجلته منذ أمد...

أرسلت إليه أول رسالة رقمية... كان ذلك بعد ثلاثة شهور من وصولي إلى أمريكة... افتتحتها بكلمات: "الأخ الحبيب... والطبيب المسلم... والكاتب الحكيم... أحمد خيري العمري"... ثم كان أن ضمنت الرسالة تصريحاً بمحبتي له في الله... ثم تعريفاً موجزاً بي... وسبب وجودي في أمريكة... وإعجابي بكتاباته... ولا سيما السبب المباشر لكتابة الرسالة: رائعة (كيمياء الصلاة)... ثم عرجت على بعض الملاحظات وشيء من النقد...

وأجابني (العمري) في أقل من يومين... وافتتح رسالته بالاعتذار عن التأخر في الإجابة!!! تخيلوا... التأخر في الإجابة التي وصلتني في أقل من يومين... أدب جم... ثم ثنى بتعليق على الملاحظات: "أشكرك جزيل الشكر على كل ما ورد في رسالتك من ملاحظات ونصائح... وأشهد الله أني أحتاج النصح والدعاء من قلب محب صادق ناضج أكثر من أي شيء آخر... فلا شيء يؤذي من هو مثلي أكثر من ثناء في غير محله أو مجرد مدح مجامل"...

وهنا... اجتاز (العمري) امتحان التواضع... وبتفوق...

ثم علق على الملاحظات مفتتحاً بجملة: "وفي الوقت الذي أوافق على معظم ما ذكرت فإني أشير إلى ما يلي..."... وبدأ بـ (تفنيد) الملاحظات واحدة تلو الأخرى... حتى (أتى) عليها...

وهنا... بدأت ملامح (العمرية) تبرز أكثر فأكثر... ثقة بالرأي... مع مرونة في التلقي... و(طول نفس) في إيضاح الرأي وإيصال الفكرة...

وبعد أقل من شهر... فوجئت بمهاتفة من (رقم دولي غريب)... وإذ به (العمري) يهاتفني من الشام... ليعلمني أن هناك (مشروعاً) قد يؤدي به إلى القدوم إلى (أمريكة)...

كانت المهاتفة وساماً على صدري... وثقة كبيرة... ولا سيما أنه لم يسبق هذه المهاتفة سوى تلك الرسالة الرقمية... هذا في عالم المادة... إلا أنه سبقها - في عالم الروح - زيارات وجلسات ومناقشات...

تحول (العمري) إلى (صديق قديم) بعد هذه المهاتفة... واستمرت المهاتفات لترتيب أمر قدومه وحجز الفندق والبحث عن مسكن...

ومع أن (الغربة) ليس لها مكان عندي إلا في قاموس المفردات... ومع أنني أؤمن بأن (الأنس بالله) لا يعدله شيء في هذا الوجود... إلا إن هذا لم يمنع فرحتي بقدوم (العمري) إلى أمريكة... فرحة (المهاجر) بمقدم فرد من عائلته... أخيه الأكبر على سبيل التحديد...

ومع أن وجهة (العمري) كانت ولاية بعيدة عن الولاية التي أقيم فيها... إلا أن هذا لم يمنع أمراً راودني بقوة...

وكما فاجأني... قررت أن أفاجئه...

وفعلاً... سافرت إليه بصحبة ابنتي (مريم)... ولم أخبره بذلك... حتى التقينا في (الفندق) حال وصوله من المطار...

وكان لقاء..... أستطيع أن أصفه بأنه... لا يوصف...

قضينا يومين معاً... نحاول أن نغتنم كل لحظة فيهما... متجاوزين برغبتنا العارمة اختلاف التوقيت... ونعاسه في الصباح... (أبتسم هنا)... وارتباطه بالعمل مبكراً... ثم محاولته النوم باكراً... مع الرغبة بالسهر حتى نتحدث عن كل ما يجمعنا... وعن كل ما نختلف فيه...

لا أبالغ إذا قلت أننا فتحنا عشرات الملفات... على أمل أن نغلقها لاحقاً!!!

كان أشبه ما يكون بلقاء (أصدقاء الطفولة)... مع أنه اللقاء (المادي) الأول على وجه هذه الأرض...

صلينا صلاة الفجر أول يوم... وقال لي بعد أن سلمنا: "إن من نعم الله أن أجد من أصلي معه صلاة كهذه"... ولا يعلم هو حتى لحظة قراءته هذه الكلمات أنني - بعد مغادرته الغرفة -

بكيت... نعم بكيت... على صدق هذه الكلمات... وعلى رقة قائلها... وعلى عظمته...

سألته بفضول التعب الذي كان يورثنيه (بموسوعيته): "كم كتاباً قرأت في الطائرة؟" فقال لي: "أربعة"...

من اللطيف ذكره هنا... أن (مريم) كونت علاقة سريعة مع (عمو أحمد)... ومع أنها كانت لا تتجاوز العامين من عمرها يوم التقته مرة واحدة - لمدة يومين فقط -... إلا أنها لا تزال تذكره عندما ترى الوسادة التي أهداها لها قبيل ساعات من مغادرتنا الفندق... "هذه على عمو أحمد"؛ أي "هذه من عمو أحمد"...

وغادرنا الفندق... على أمل التواصل...

وفعلاً... صرنا - ولا نزال - نتواصل عن طريق الهاتف بشكل يومي - في بداية الأمر -... وأسبوعي - بعد الأسابيع الأولى لوصوله -... ولعل ما يمنع التواصل اليومي أمرين: الأول هو أن مهاتفاتنا عادة ما تكون طويلة... والثاني هو حقيقة أن (العمري) ينام باكراً... ومع ظروف العمل اليومية... فإن المكالمات في (نهاية الأسبوع) هي الخيار الأنسب... بل بلغ الأمر بنا أننا إذا لم نتهاتف أسبوعياً فإن المكالمة - أو الرسالة القصيرة - التالية ستكون حتماً (عتباً) من الطراز الثقيل... فأنتم لا تعلمون أن محبة (العمري) ليست (مجانية)... (أبتسم هنا ابتسامة يعرف سرها العمري).

يأسرني عندما يبدأ مكالمته بمناداتي بـ (عبودي)... مع أنني أعلم أن المكالمة تحمل في طياتها ما هو (أخطر) من ذلك (الدلع الظاهر)...

وهنا... في أمريكة... صار من الممكن أن أتحقق مما كنت أنتظره... قراءة شخص (العمري) وملامحه (العمرية)...

مهاتفاتنا حملت كل أنواع التواصل الممكنة بين الإخوة... والمفكرين... والأنداد: حوار... وجدال... ومحاججة... وسؤال... واستشارة... وإخبار... واختلاف... واتفاق... وتعزيز... وعناد... وتحدٍّ... وتناصح... وتثبيت...

بدأت ملامحه (العمرية)... ملامحه التي كنت قد رأيت بوادرها سابقاً... بدأت بالبروز على أرض الواقع... ثقة بالرأي واعتداد بالحجة قل مثيلهما فيمن أعرفهم من (أهل الحق)... مع مرونة في التلقي وتواضع في الطرح لم أجدهما إلا عند أولئك الذين (أحسبهم) يقصدون الله في

حياتهم... ند صعب... منافس شريف حتى النخاع... عنيد حتى اليأس في الدفاع عما يعتقده... ثم هو مرن حتى الغرابة إذا ما بدت له الحجة...

لكن أبرز ما ظهر لي من تلك الملامح... تلك الصفة التي كانت (تأسرني) في كلمات كتبه ومقالاته... الصدق مع النفس... نعم... الصدق مع النفس... فلقد رأيت كثيرين... وخبرت كثيرين... من أهل الفكر والمشتغلين بأمر النهضة... إلا أنني قل أن أرى هذا (الجهد) في الصدق... يدل عليه الوقوف مع النفس كثيراً... والتردد كثيراً قبل إقرار أمر أو رأي أو معتقد... وسهولة الاعتراف بالخطأ إن وجد...

رأيت (العمري)... ضعيفاً في قوته... وقوياً في ضعفه... يملك عاطفة إنسانية غامرة... تظهر جلية في كتاباته... يقرؤها أولئك الذين يتقنون لغة القلوب...

هذا هو أحمد خيري العمري الذي عرفته... وأعرفه...

يختار كلماته بذكاء متفوق... وبلاغة غير معهودة...

لطالما قلت لزوجتي: هذا الرجل يختصر رسائل طويلة أنوي كتابتها بجملة واحدة...

اقرؤوا معي:

"في نقطة كهذه على جيلي أن يلتقي بمالك... ليس لقاء الصدفة عند باعة الكتب المستعملة... بل لقاء الحتمية... لقاء الضرورة التاريخية - والحضارية"...

"فعلاقتنا بالصلوات الخمس اليومية تشبه علاقة النهر بجيران عمره. لا حب جارف صاعق من النظرة الأولى؛ ولكن علاقة ود ومودة ورحمة، يزيدها الزمن متانة وقوة وحكمة"...

"رمضان يعطيك قطعة أرض غالية الثمن، مطلة على شاطئ النهر مباشرة... يسجلها باسمك... ويعلمك السباحة!... نهر جار عذب ببابك دارك. وأقول لك: خذ نفساً عميقاً جداً، واغطس!"...

هذا هو أحمد خيري العمري الذي عرفته... وأعرفه...

إنسان... مسلم...

أديب الفكرة... ومفكر الأدب...

أول من استوقفني لأقرأ (رواية) تؤصل للدين... أو (أصول دين) في (رواية)...

عندما أقرأ له... فإنني أقرأ: فقه الأصول... وأصول الفكر... وفكر الأدب... وأدب التأريخ... وتاريخ الإسلام والنهضة والحضارة...

هذا هو أحمد خيري العمري الذي عرفته... وأعرفه...

أحمد خيري العمري...

قلمي الذي لا أمسكه بيدي...

وأفكاري التي لا أنطقها بلساني...

وأخي الذي لم ألتقه إلا يومين فقط...

أحمد...

إني أحبك في الله...

# العمري.. كيميائي الفردوس المستعاد

**قراءة موجزة في مجمل الأعمال**

**غياث خليل هواري** *

**بسم الله الرحمن الرحيم**

الحمد لله والصلاة على رسول الله المرسل بالقرآن رحمة للعالمين:

لقد كانت دار الفكر رائدة في التجديد من خلال اختيارها أن يكون المكرّم شاباً، مخالفة بذلك النمط السائد، برؤية الشخص العالم أنه من الشيوخ الكبار وممن مر على آثارهم السنوات الطوال، ومساهمة من خلال ذلك بتغيير حقيقي يقضي بتبني (صناعة العالم) منذ بزوغ فجر إبداعه، وانتظار حين نضوج ثماره وأكله للناس.

من خلال هذه المبادرة الجديدة تحمل دار الفكر الدكتور الشاب أحمد العمري - وأنا معهم بهذا- مسؤولية وأمانة العلماء منذ شبابه وإنتاجه الأول، ويتحمل أيضاً انتظار أمته مساهمته في الصناعة والتوجيه لجيل قادم لا محالة، وظننا بالله بأن يكون المكرم أهلاً لهذه الأمانة، والدعاء منا له بالصبر والثبات والبصيرة، ومنا له المناصحة والمناصرة والتسديد، والتعلم منه أيضاً.

لابد أن أشير إلى قارئي أن منهج الإنسان يعكس خلق صاحبه، ومنذ لقائي بالدكتور أحمد في بغداد ووصولاً إلى هذه الأيام، لابد من الإشارة إلى ما تمتع به الدكتور من خلق حري على أمثاله أن ينال الفضل فيه؛ وهو الوفاء ، الذي ألمسه من شخصه سواء على مستوى التواصل المستمر معه أم في حديثه أم إهداءات كتبه أم مقالاته، الذاتية منها والموضوعية، كما في بحثه الجميل الذي أهداه إلى دمشق ( في البدء كان الياسمين ) وضمن في طياته كل عبارات الوفاء والتقدير لمن كانوا معه في أول مسيرته في بغداد وصولاً إلى دمشق والعيش فيها. إن كان الحديث عن العمري كشخص فيه الكثير مما يمتع القارئ، إلا أن الحديث عما قدم، وتعريف القارئ والشباب به، ربما يكون الأقرب في حديثنا هذا.

ما قدمه د. العمري في كتاباته هو تعبير عن لسان جيل يطرح أسئلة يسعى إلى فهم دينه وجعله واقعاً بين الناس، وبوصفي واحداً من أبناء هذا الجيل أجد أن ما كتبه د. العمري هو حال المئات بل الآلاف من أمثالي في رقعة أمة الإسلام الممتدة، وقد وُفِّق د. أحمد في كتاباته إلى التعبير عنها والإفصاح عما فيها.

سأشارك القارئ في رؤية لتجربة الدكتور أحمد موجزاً لأهم ما كتبه وفق تصنيف أعماله في ثلاثة محاور:

1) السؤال المشروع: إبحار مختلف بحثاً عن الخريطة المفقودة.

2) الاعتراض والبحث: الفردوس وأضواء المجرة.

3) الوجهة البناءة: كيمياء الصلاة ومعادلات الصلاة السننية.

**السؤال المشروع**

حول هذا البند الأساسي فإن كتابات العمري منصبة في إثارة التفكير والتساؤل، وكان ذلك في كتابه (البوصلة القرآنية) وفي روايته (أبي اسمه إبراهيم)، هذا السؤال الذي جاء بدوره يوجهنا للبحث عن جواب سؤال التوجه الحقيقي لنا: ما هي المبادئ التي ينبغي أن ترشدنا في حياتنا ؟ ومن خلال عنوان الكتاب يقول لنا أن اتجاه البوصلة الذي يحدده مسار القرآن هو الذي يأخذ بنا نحو التوجه الصحيح، وأن القرآن كان وسيبقى الهادي إلى المبادئ التي ترشدنا في حياتنا. وشرع العمري في هذا بإحياء معنى التساؤل الذي كان يهدف إلى:

- إعادة اعتبار التفكر والتساؤل بوصفه أساساً لقراءة أحداث الماضي: ما هو المقدس في تاريخنا الإسلامي وما هو غير المقدس؟!

- إعادة اعتبار التفكير عبر "أبي التساؤلات" سيدنا إبراهيم في تزكية الدين مما لحقه من آبائية أو تقليدية أو شخصانية أو عصبية أو (مؤسساتية) أضفت عليه أموراً جعلته لا يحقق الهدف من وجوده.

- القرآن بوصفه منطلقاً وأساساً للنهضة.

من خلال التساؤل ظهرت بعض المساهمات في كتابات العمري من خلال الاعتراض والبحث.

في هذه المرحلة ظهر العمري بكتابه (الفردوس المستعار والفردوس المستعاد) ليشكل بالكتاب تواصلاً مع السؤال المشروع من جهة، وانقطاعاً من جهة أخرى.

بنية الكتاب قائمة على مقارنة ما بين أساس الحضارة الغربية ومفرزاتها، وبين أساس الحضارة القائمة على قيم القرآن الكريم. ولقد وفق العمري في كتابة وتفكيك نموذج القيم باكتشافه القيم المحركة والمولدة لسلوكيات هذا الفكر، واعتبار هذه القيم الكامنة حاضرة في كل مقولات الفكر الفردي وآثاره ونتائجه على المجتمعات العربية أولاً وعلى من استورد هذه الحضارة كما هي كبديل لنهضة الأمة العربية والإسلامية ثانياً.

ولا أخفي عن القارئ تعجبي في دمشق من تبني الكثير من الخطباء، على الأقل الذين كانوا يطلعون على ما يكتب العمري، والذين كان بعضهم على خلاف شديد مع ما كتب في (البوصلة القرآنية) بسبب ما أسموه (تعرض العمري للثوابت وللمؤسسة الدينية)، أنهم جعلوا الكتاب أساساً للكثير من خطبهم وتوجيههم الشباب لقراءته، الأمر الذي أسعدني للوهلة الأولى وقلت: من الجيد أن نمتلك فكراً للمقارنة وتأسيس فكر شبابنا على مبدأ المدافعة الحضارية، بل وحتى نعرف من أين أتينا، ولكن من خلال سماعي للعديد من الإطراءات على الكتاب عرفت أحد أهم أسباب اهتمام البعض به ، لقد جعل منه أساساً لنقض الحضارة الغربية وتعداد نقائصها والإيذان بغروب شمسها، والنعي على من يسلك سلوكها أو يتبنى منتجها أو يتفاعل معها. لقد اعتمد الشق الأول من الفردوس المستعار فقط ليكون أساساً لتبرير فقدنا (الفردوس المستعاد) ، الأمر الذي جعلني أنبه الكثيرين إلى فحوى رسالة الكتاب، فالكتاب لم يتحدث عن جاهلية القرن العشرين ، التي حذر منها بعض الكتاب الإسلاميين بوصفها شراً علينا الابتعاد عنه، ثم تُرك الباب مفتوحاً للوعظ بالابتعاد عنه، في الوقت الذي يغرق العالم الإسلامي حتى الثمالة في منتجات الحضارة الغربية، المادية منها والفكرية، بل جاء الكتاب ليمهد لقارئه فهم منظومة القيم الغربية والإسلامية بوصفها محركاً للسلوك الحضاري لكل حضارة، ومعرفة آثار قيم (الفردوس المستعاد) الذي وصفه د. العمري معبراً به عن قيم المجتمع والحضارة الإسلامية.

فجاء الكتاب بهذا الفهم مرشداً كافياً، ساعد على ذلك لغة د. العمري الرائعة، وتفحصه للكثير من الإحصائيات، وسرده للكثير من القصص التي تطرب القارئ العربي بالنعي على الحضارة الغربية.

في ورقتنا هذه نريد أن نلفت نظر القارئ إلى أن د. العمري قد عالج سؤال النهضة والتفاعل بين الحضارات في حديثه عن مالك بن نبي عندما تحدث عن (بارادايم الإسلام الحضاري) وما هو الموقف الأساسي في التعامل مع الحضارة الغربية.

وجاء القسم الثاني (الفردوس المستعاد) ليضع الشق المقارن (لجاهلية القرن العشرين) عبر (نهضة تعاد بالقرآن الكريم)، قيم تتشعب وتتدخل في كل مفهومات حياتنا، الأمر الذي أغفله

الكثير من قراء الفردوس، وأساء استخدامه الكثير ممن (شددوا على أهمية قراءة الكتاب وخصوصاً الفصول الأولى منها) على حد تعبير أحد قارئيه.

في هذا السياق استمر العمري - وحتى بعد سفره إلى واشنطن لضرورة العمل- بالحديث.. وهذه المرة عن قرب.. عن (أمريكة التي رآها)، ولقد رآها العمري - ابن بغداد المغتصبة بأيد أمريكية- ابن الأصالة الإسلامية، والفردوس المستعاد، فبدأ برصد الكثير من الخراب الداخلي، بالذات لرأس الحضارة الغربية اليوم: الولايات المتحدة الأمريكية، جاءت سلسلة المقالات هذه لتبدأ بطرح الأسئلة الصعبة.

ماذا يريد العمري من نقده للغرب؟ هل يضرب بمعوله الإبراهيمي أوثان الحضارة الغربية؟! وهل يوجه المسلم إلى أن يعتز بدينه لأن الضعفاء الآخرين منهارون من الداخل؟!! لعل هذه الأسئلة تساعد العمري في توجيه ما يكتبه لنا وما نقرؤه بشغف، نحو بوصلة تجعلنا نرصد الغاية من وراء هذه المقالات.

**النقد والبحث**

في أثناء النقد والبحث المرافق للفردوس جاءت توجهات العمري هذه المرة ليخرج من التفكيك إلى التوجيه العملي، وبدأت هذه المرة من (ضوء في المجرة) تشكل بارقة للحديث مع الناس عن قيم الفردوس المستعاد. قيم الإسلام في الواقع المعاش ليضيف إجابات ذكية وتوجيهات عملية تفيد قارئ العمري في حياته اليومية وفي جملة (لمدافعة الأقدار الحضارية التي تحيط به)، فالمسلم المعاصر اليوم يعيش دوائر من التدافعات تبدأ بنفسه التي بين جنبيه ولا تنتهي عند الشيطان الذي يغويه، بل تتعداه إلى مدافعات تنغيصات المجتمع والمال والشهرة وغيرها وما يلحق بها. من هنا نرى أن سلسلة (ضوء في المجرة) كانت أول طريق البحث عن الإجابات، وربما بعد انتهاء السلسلة كثير من يسأل كيف يقرأ هذه السلسلة، وأقترح للقارئ طريقة تسلسل قراءتها، فيفهم أولاً (كش ملك) وبعد ذلك يقرأ (أدرينالين) ثم (الذين لم يولدوا بعد) ثم (تسعة من عشرة) ويلج بعد ذلك في (يوم شهر سنة) خاتماً قراءة هذه السلسلة بـ (غريب في المجرة). ما بين (كش ملك) و(غريب في المجرة) إجابات العمري عن بعض أسئلة البوصلة واعتراضات الفردوس، مهيئاً بذلك إلى الدخول إلى مرحلة ثالثة أسميها:

**الوجهة البناءة**

من الأمور التي امتنَّ الله بها علي قربي من الكثير من أهل الفكر والدعوة والتربية، وأحاديثي الدائمة معهم والتواصي المستمر، ومن هؤلاء كانت صداقتي مع د. العمري، مما جعل

لي بعض الحظ بأن أكون من أوائل من يطلع على كتاباته ويناقشه فيها قبل أن تذهب إلى القارئ، ومن الأشياء التي كنت أتناولها مع د. العمري هو وجود منهج علمي تركيبي يجعلنا نتجاوز النقد والتفكيك إلى البناء والتركيب بما يفيد الناس ويعدل الخطاب الفكري إلى خطاب عملي يساعدنا على أن نعيش قيمنا في حياتنا اليومية، ونعكس صورة الإسلام من خلال تجليات (مدافعاتنا الحضارية)، وكثيراً ما كنت أتطلع لأن يقدم د. العمري شيئاً يتحول إلى إرشادات عملية لفكر النهضة المستند إلى القرآن والهدي النبوي، ويضع كلمته وفكره في مشروع يخدم هذا الهدف، ومنذ أن أرسل لي المسودة الأولى من الجزء الأول لـ (كيمياء الصلاة) هاتفته عند الصباح قائلاً :(هذا هو؟!!).

1) خطط استعادة الفردوس (تبدأ من الصلاة): لابد من أن تكون قيم الفردوس المستعاد ظاهرة للناس، وكما ذكر العمري فإن التدافع موجود اليوم بين قيم الفردوس المستعار وقيم الفردوس المستعاد، فلابد أن يظهر هذا التدافع وأن يكون الحاكم الرئيسي له هو (ظهور حضارة الاستخلاف) كما قال العمري في تعريفه للنموذج البديل للفردوس المستعار.

بانتهاء كتابه الفردوس المستعار تم التعريف بخصائص كل من الفردوسين المستعار والمستعاد... وتم الانتهاء من الكتاب وكان السؤال: «كيف أبدأ الاستعادة؟!».

2) وتمضي بنا سلسلة كيمياء الصلاة إلى فهم ملكوت الواقع: وهو نطاق عمل الصلاة.. والإطار الذي ينبغي أن يبدأ به. هذه الأداة العظيمة العمل، لابد من أن نفهم عملها في إطار التكبير لله عز وجل.

فعندما أعلن الإنسان بأن الله أكبر كانت تلك الليلة التي جاءت بها التساؤلات الإبراهيمية في البحث عن البوصلة بأن الله أكبر.

ومن خلال فهمنا للصلاة يشكل الدعاء لها - وهو الأذان- الذي يهيئ الإنسان للتعامل مع ملكوت الواقع، فهماً يتجاوز مجرد الترديد الى الإقرار بتوحيد الله، وبأن محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله، وبالهمة إلى الصلاة والفلاح ومن ثم إقامتها، إلى توحيد يطلق النية بأن يكون ملكوت الواقع أساساً للحياة والفلاح والتوحيد.

في كيمياء الصلاة يكون نموذج العالم الجديد هو الفاتحة ، حين تكون أداة تفسيرية للعالم، وتصبح عدسة لاصقة على عيني المؤمن يرى بها المعاني ويفسرها ويقيس على معاييرها، فاتحة الكتاب، عماد الصلاة، لتحول الفاتحة في هذا العالم الجديد إلى شاهد على الحياة، شاهد على الإيجابية التي تنطلق "من حقيقية أن الواقع سيئ جداً وأنه مليء بالظلم والقهر والجهل وكل ما هو سلبي وسيئ، لكنها تنطلق من هذه الحقيقة لا لكي تتجه للنواح والندب واليأس، بل لتؤكد أن ذلك كله على سلبيته، ليس قدراً مقدراً وليس حتماً مقضياً، بل هو شيء يمكن أن تعتبره مشروعاً للعمل على إزالته واستئصاله من جذوره إذا كان الخطأ من أساسه". من كلام العمري.

وليحول (الحمد) في فاتحة الكتاب إلى "استراتيجية شاملة باتجاه التغيير وإعادة بناء العالم". ولتكون بذلك الصلاة "ليست من أجل الهروب من العالم بل من أجل اقتحامه ومواجهته بكل ماهيته"، لتتحول فاتحة الكتاب " فاتحة للحياة: تمنح الحياة القلب-الجوهر ، وتتفتح الروح بها، مستمدة منها القوة والعزم، ويسير فيها وعبرها النسغ الصاعد اللازم للبناء.. بناء ذلك العالم.. عالم جديد ممكن..".

3) والجواب كان في سلسلة كيمياء الصلاة... نعم تبدأ خطة استعادة الفردوس بإقامة الصلاة بكل ما تحويه، بدءاً من اختيار الوجهة والقبلة التي كانت تساؤلات البوصلة القرآنية تدور حولها لتقول لنا أن مكة والكعبة هي قبلة الصلاة وصلة المسلمين وقبلة الوجهة التي علينا أن نتوجه إليها، وانتهاء بالشعائر التي لابد أن تتضمن قيم الفردوس، هذه الشعائر التي هي من تقوى القلوب، تقف الصلاة على رأسها أهمية وتجلياً في الواقع.

فالمهمة غير المستحيلة تكون عندما نبدأ بيان هذه المهمة باعتبار الصلاة أداة لتغيير وبناء الإنسان لنفسه ولمجتمعه.. امتداداً لتكون بناءً للعالم على نهج الفردوس المستعاد، فإقامة الصلاة تشبه "تشييد شيء ما: كما لو أنك تقيم مبنى كبيراً، مدرسة أو مشفى أو مصحاً أو مسجداً أو شيئاً أكبر من هذا كله... الكلمة تشير ليس إلى أداء فعل ما، بل إلى بنائه وجعله منتصباً شامخاً"، فالمهمة تبدأ بـ "إصلاح ما يمكن إصلاحه، بما يضع أسساً جديدة أو ركائز جديدة أو مؤونة جديدة" العمري ج 1.

والمهمة تبدأ بـ "تنزيل القيم المجردة إلى أرض الواقع، أو جعل الواقع مؤهلاً لاستلام القيم والتعامل معها من أجل واقع أكثر توازناً وفهم أكثر فاعلية.." العمري ج 1.

والمهمة تبدأ بأن "تكون مؤهلاً لما كان السبب في خلقك، إنها من أجل أن تشحذ قدراتك وتوجه مهاراتك وتعدل من مسارك... وتنظف ما تراكم منك ".

والمهمة تبدأ باستخدام الصلاة على أنها "فرضت من أجل أن تغيرنا، كتبت علينا من أجل كتابة التاريخ، وتعيد صناعة العالم بعد أن تساعدنا على إعادة صناعة أنفسنا..".

ويقود د. العمري القارئ في كيمياء الصلاة عبر المعاني باعتبار الفهم العميق لهيئات الصلاة، بعيداً عن التقليدية والشعائرية التي أفرغت من محتواها، وصولاً إلى فهم مقاصد هيئات الصلاة، وهذه "الهيئات والقوالب لها هندسة خاصة تعبر عن المعنى، وتحتويه وتتحد معه، شكل هذه الهيئات سيقوي المعنى ويكرسه، وكان في سدرة المنتهى لوضع الإجابة التي كان سؤال البوصلة يبحث عنها والفردوس المستعاد ينطلق منها. وذلك بوضع حجر النهضة ومنصة الانطلاق ليكون أحد أهم أركانها اتباعاً للنبي الذي جسد كل معاني الصلاة، فلا يمكن فهم سيرته

الشريفة حقاً دون فهم تلك المعالم في الصلاة، ولا يمكن فهم النقلة الاجتماعية والنهضة التي شكلها الإسلام دون فهم انعكاس هذه المعاني والسيرة معاً على مجتمع قيد التكوين" د. العمري ج 5.

# د. العمري: الكيميائي الأديب

تلقف الناس رواية الأديب كاولوبولو (الخيميائي) بكثير من التجاوب والتفاعل حول العالم، لتصنف من بين الروايات الأكثر انتشاراً ورواجاً في العالم، وبعيداً عن الحس الإعلاني للرواية كان لابد من أن نفهم ما وراء هذا الاهتمام -على طريقة د. العمري!-.

من قرأ الرواية عرف أن الكاتب تحدث عن أسطورة الكنز الحقيقي، والذي لخصه بفكرة أنك إذا آمنت بهدفك ورؤيتك فلابد أن تحصل عليها، تنتهي الرواية عند حد الأسطورة مع أسلوب كاولوبولو الأدبي الرفيع، لتدخل في سياق الفردوس المستعار في دفع سكان هذا الفردوس للحصول على مرادهم والإيمان بأحلامهم.

ولسكان الفردوس المستعاد أيضاً (كيميائي) ، ولكن هذا الكيميائي كانت مواده مستمدة من إكسير الفردوس المستعاد... من أساس الحياة، ومن قرآن جاء هدايةً ونوراً للعالمين، إلى رسول ورحمة أيضاً للعالمين. مستخدماً ومعرفاً بأداة فاتحة كل المعاني.. وهي الصلاة، لتكون أهدافنا وأحلامنا على هدى بوصلة القرآن، وهدي محمد صلى الله عليه وسلم في إقامته للصلاة بكونها أدة لبناء العالم.

**كيمياء الصلاة: ركن من أركان الفردوس المستعاد**

في هذه النقطة ربما أحث كاتبنا العمري على إكمال مشاريع الكيمياء لتشمل تفاعلات جديدة، فكيمياء الصلاة جاء مقابله ثابت من ثوابت الفردوس المستعار وهو الفردية ، ليكون مقابله ثابت هو الصلاة التي تجعل الفرد داخل الجماعة في علاقة توازن بديعة ورائعة .

لابد أن يكون هناك كيمياء الشهادة، والإيمان بالغيب ، لتكون مقابل (المادية الطاغية) إحدى قيم الفردوس المستعار.

لابد أن تكون هناك كيمياء الزكاة؛ لأن من ثوابت الفردوس المستعاد التدخل لإحياء التوازن بين الفقر والغنى، ليقف هذا الثابت مقابل ركن (عدم التدخل في السوق) في الفردوس المستعار.

لابد أن يكون هناك كيمياء الصيام ، الانقطاع عن اللذة والاستهلاك، مقابل ما يدعو إليه الفردوس المستعار من استهلاك بلا حدود.

أما كيمياء الحج والعمرة فليكون مقابلاً للتعجل والآنية التي يروج لها الفردوس المستعار أكاذيبه وأباطيله الإعلانية.

كل هذه "الكيمياءات" تنتظر د. العمري في مشروعه النهضوي ليعمل فكره الثاقب وقلمه الأديب وروحه الوثابة وأصالته الراسخة في الإسلام، ثم ليقدم كل هذا إلى شباب عصر المعرفة، شباب يمثلهم د. العمري ويساهم في تنوير طريقهم إلى بوصلة القرآن الكريم على هدي أهل الخير والفلاح ممن سبقوه من الأكرمين، لينضم بعد ذلك من تعلم فنون كيمياء الصلاة إلى المهرة والمحترفين ليساهم في نهضة يكون أساسها القرآن، ومصلين بعد ذلك على رسول الله محمد، خير من أقام الصلاة.

ومنا... الحب والوفاء والدعاء للدكتور العمري أن يكون منارة من منارات الخير، وأن ينفع الله به ويجزل له الثواب ويسدد خطاه ويبارك أعماله، وهذا أقل ما نملك لقياداتنا الشابة بعد المناصحة والمناصرة.

والله أعلم

# لقد أتعبتنا أيها العمري

**طالب شلب الشام**

نعم لقد أتعبتنا ونحن نحاول الارتقاء إلى القمم الروحية والفكرية التي تقدمها لنا مع كل وجبة من عصارة فكرك.

لقد أتعبتنا وآلمتنا عندما قلت لنا: إنه السرطان منتشر في أجسادنا، وإن عمره بطول أعمارنا، لا بل يسبقنا بقرون، مع كل ما يبدو علينا من مظاهر الصحة.

لقد أتعبتنا وآلمتنا عندما كشطت عنا الجلود، فتبدّى ما تخفي تحتها من الأمركة والتغريب، حتى في عباداتنا، مع كل ما يبدو علينا من صلاح والتزام ظاهريين.

لقد أتعبتنا وصدمتنا عندما نزعت المجهر عن أعيننا، وأخبرتنا أن هناك أداة أخرى هي التلسكوب، تختلف عن المجاهر التي اعتادتها عيوننا.

التلسكوب الذي ينظر إلى الكون الفسيح، حتى يخفي الدقائق والتفاصيل التي قضينا أعمارنا وأبصارنا نحدق فيها، فإذا أعمارنا بدقائقها وتفاصيلها لا تكاد تبين، أمام هذا الكون الفسيح.

لقد أتعبتنا وصدمتنا عندما أخبرتنا -بما نعرفه ونتجاهله- من أن للأمة قمماً تقتدي بهم، غير أعرابي مجهول النسب، تحتج الأمة بمقولته عند كل المفاصل المهمة، بحيث تصبح التفاصيل المجهرية لأحكام الشرع، والتي تشكلت عبر البحث المجهري خلال مئات السنين، لا تساوي الورق الذي كتبت عليه، مادام الحد الأدنى كافياً.

لقد أتعبتنا ونحن نحاول إعراب كلمات (اقرأ) و(أقيموا الصلاة) وغيرها من صيغ الأمر والطلب القرآنية، التي أظهرت معانيها ومقاصدها التلسكوبية، التي يعجز المجهريون عن رؤيتها، فقد كانت الرؤية المجهرية تعربها فعل أمر، حصل في ماض من الزمان.

لكن لحظة!!

فهذا الإعراب لا يعبر عن المعنى الذي تحمله هذه الكلمات.

إنها كلمات للمستقبل، وليست فيما مضى من الزمان...

هل يوجب هذا على عباقرة اللغة اشتقاق إعراب جديد، هو فعل المستقبل -بعيداً عن سوف وسين التسويف- لنعبر عن كلمة (اقرأ) التي طالبنا بها القرآن الكريم.

لقد أتعبتنا وصدمتنا عندما أخبرتنا أن أداءنا لصلاتنا سبب لعزوف الآخرين عن الصلاة، بدل أن تكون عامل جذب لهم، وعندما أخبرتنا أن الصلاة إنما تكون خارج الصلاة، وتدوم أربعاً وعشرين ساعة، فتكون بذلك رافعة لنهوض الأمة.

لقد أتعبتنا مع كل صفحة تخطها....

لكن....

هل التعب والألم سيئان دائماً؟؟!!

ألا يكون التعب والألم مطلوبان في كثير من الأحيان؟؟!!

ألا يكون التعب والألم مفضلين على المسكنات والراحة التي يعقبها تفاقم المرض.

ألا يبحث المريض عن العلاج بما يحمل من ألم وعذاب أملاً في شفاء قريب؟

ألا يفضل المريض الألم على المسكنات والمخدرات التي يعقبها الموت المحتوم؟

لا يمكن أن يكون استئصال سرطان منتشر بلا ألم. لكنه ألم ينشده كل مصاب، لا حباً بالألم، لكن رغبة في البرء من الداء.

لابد لمبضع الجراح من ألم في جسد المريض، لكنه ألم تعقبه صحة بإذن الله تعالى.

إن البتر والاستئصال الكامل ربما يكون مشوهاً وشديد الإيلام، لكن لابد مما ليس منه بد، والمريض نفسه ينشد هذا العلاج، برضا وطمأنينة، بل هو يطالب أن يكون الاستئصال جذرياً، لينجو من نهايته المحتومة.

لقد أتعبتنا أيها العمري....

لكن لابد من مبضع الجراح..

نعم....

لقد أتعبتنا..

لكننا نشكر لك هذا التعب والألم...

فلابد للمخاض من ألم

وإنه الفجر القريب بإذن الله تعالى....

# مرّة في الأسبوع.. - إلى أن تحدث اليقظة!!

**د.نهلة الشابندر**[14]

لا تزال ذاكرتي تحتفظ بمشهد أولادي ذات ظهيرة في السبعينيات وهم يستقبلونني ووالدهم وهم في غاية الحيوية والاستثارة، ما الأمر؟.. لقد وجدوا أثناء لعبهم في الحديقة كنزاً دفيناً في الأرض!!!..

أو هكذا وصفوا ذلك الصندوق الخشبي الذي تنبهوا لحافته تطل من التراب، وجعلهم فضولهم وخيالهم يتصورون أنهم عثروا على كنز ملئ بالجواهر والياقوت يستخرجونه من مخبئه الأمين..

يومها قلنا لهم إن هذا كنز فعلاً، بل إنه الكنز الحقيقي الذي تفوق قيمته كل كنوز مغارة علي بابا وسواها..

كان ذلك الصندوق يضم كتباً ومؤلفات إسلامية قيمة، قمنا بإخفائها في فترة اضطرابات أمنية إبّان ذلك العقد..

وكان ذلك هو الكنز حقاً...

عندما التقيت أحمد في عام 1994 وكان قد تقدم لطلب يد ابنتي الوحيدة بين ثلاثة أبناء لم يدر في مخيلتي وقتئذٍ أنه سيقدم إضافات مهمة إلى ذلك الكنز.. كما لم يخطر في بالي أن علاقتنا ستتخذ شكلاً يختلف عن العلاقة الأسرية التقليدية، سيكون ابناً رابعاً لنا، هذا ما لا شك فيه، لكن الأمور اتخذت شكلا آخر. لم يقف الأمر عند كونه قارئاً نهماً مثلي، لا، بل أكثر بمراحل؛ أصبحت لا أستطيع ملاحقته في الكتب التي نقرؤها في الوقت نفسه. علاقتنا أصبحت ثقافية وفكرية، وكنا نناقش ما نقرأ ونتناول الاتجاهات الثقافية السائدة، نتفق حيناً ونختلف أحياناً، وما أكثر ما تنتهي الجلسة بحدة في النبرات والقسمات، وما أكثر ما يتخذ أحمد مواقف غاضبة من آراء كانت قد أصبحت عندي قناعات ثابتة.. أحياناً يثبت لي الوقت أنه كان محقاً، وأحياناً يثبت له هو العكس..

ومع كل هذه المناكفات والمشاكسات الفكرية فقد كان يتحفني بكل ما يستطيع مما يصدر من الكتب الجديدة، ولا أدري كيف كانت تصل إلى العراق؛ فقد كان الحصار يحكم قبضته على الحياة الثقافية، وربما كان الحصار الثقافي أهم عند المحاصرين من حصار الغذاء والدواء...

بدأ أحمد الكتابة ربما منذ صباه المتأخر وبداية شبابه، ولكنه كان يكتب، ويكتب ويكتب- سراً - ولا يري هذا النتاج أحداً. حين علمت هذا قلت في نفسي إنه ينسج حول نفسه الكلمات والسطور حتى تتكون حوله شرنقة كبيرة، ولكنها ستتفتق يوماً لينطلق كالفراشة يجوب الفضاءات الثقافية حراً طليقاً.

في يوم - تبين لي لاحقاً أنه يوم مهم - جاء وفي يده أوراق تحمل عنواناً ساحراً (اقرأ).. هذه الكلمة التي تلقاها الرسول (عليه الصلاة والسلام) وهو يرتجف ويقول: ما أنا بقارئ..، أعطاني الأوراق وقال: إن هذا بعضاً من إنتاجه وعلى شيء من الوجل والخجل، وطلب أن أبدي رأيي فيما كتب.

احتضنت الأوراق وكأنها طفل ولد تواً! أليس الاثنان نتاجاً يثري الإنسان والكون، خلق الإنسان وخلق الأفكار في عقل الإنسان: عجائب الله التي لا نفكر في إبداعها وروعتها لأنها بيننا في كل وقت، ولبساطتها في الوجود لا نفكر كم هي معقدة وذات عمق وبعد وجودي في الكون.

انكببت على الأوراق فوراً، وهي عادة لي لا أستطيع الفكاك عنها؛ إذ ما إن تسطُ يدي على كتاب ما فإنني أنسى كل شيء حتى أنهي قراءته، وهكذا كان!

فور انتهائي من قراءة الأوراق هاتفت أحمد، لم أستطع الصبر حتى نلتقي، قلت له يومها كلاماً كثيراً لا أدري إن كان يذكر كثيراً مما قلت، لكني أذكر جيداً أنني أخبرته أنه قد خلق ليكون كاتباً.. طبيب أسنان! نعم إنها مهنة للعيش.. (بالمناسبة طبيب الأسنان ليس كالطبيب البشري؛ طبيب الأسنان مزيج من العلمي والفنان، وفيه من خيال الحالمين الكثير، وحين ترى أحمد يمارس عمله تأخذك ابتسامة التعجب: يداه منهمكتان بالعمل وفكره يسبح في بحر عميق...).

قلت له يومها إنك ستكون كاتباً متميزاً، إنك تتمتع بشيء ينقص الكثير من الكتاب والمفكرين؛ الإيقاع المتأني، إنه ميزة فريدة ستتيح لك السياحة في الموضوع، سياحة ستجوب فيها جميع الجوانب والمرتكزات، سياحة تجمع الأطراف مع المركز في نسيج جميل واقعي وحالم، وفي الوقت نفسه فكري وفلسفي رائد. أحمد أنت كاتب مبدع.

لم يصدق ما قلته حينها، فقد عهد مني أن الأولوية في النقد عندي للسلبيات وليس للإيجابيات...

استمر أحمد يكتب، وتزداد الشرنقة سمكاً إلى أن قيض الله له الانطلاقة. لم يكن أحمد يستعجل الانطلاقة، لكن صبري أنا كاد ينفد.

كنت أخشى أنه يكتب لنفسه فقط، في الوقت ذاته كنت مؤمنة أن ما يكتب يجب أن يصل إلى عقول الناس إلى قلوبهم، هذه الأفكار يجب أن تهز الغافلين، أن تنبه النائمين (الذين لم يولدوا بعد).. وكنت أحمل أيضاً مخاوف زوجته من أن يقوده هاجس الإتقان إلى استمراء إعادة الكتابة إلى ما لا نهاية..

لم يكن يحاول أن يتصل بدور النشر العراقية، كان رأيه أن الكاتب الجيد ينشر في غير بلده. طبعاً أحمد لم يعش الفورة الثقافية في الستينيات من القرن الماضي لأنه لم يكن قد ولد بعد.

حدثت الانطلاقة بالصدفة، لا لم تكن صدفة، إن الله مدبر كل شيء في الكون، دبر ذلك اللقاء الذي حدث في معرض للكتاب أقيم في قاعات بناية نقابة المهندسين في المنصور (بغداد)، حيث التقى أحمد بالسيد غياث هواري الذي كان أحد المسؤولين عن جناح دار الفكر في المعرض. حدث أن أعجب السيد غياث بفكرة الكتاب الذي أعطي بعدئذٍ عنوان (البوصلة القرآنية). انطلق أحمد بعدها، ليس كالفراشة وإنما كالسهم في الأجواء الثقافية. البوصلة القرآنية هز الجمود المحيط بالكثيرين، فانقسموا بين مهاجم وبين من حركه هذا الفكر الجديد، وأصبح مسكوناً بالندم على الوقت الطويل الذي انقضى ولم يشارك في التمهيد أو التأهيل لتجديد الأمة.

(ليلة سقوط بغداد) كتاب مهم جداً في رأيي، وفي رأي كل من قرأه من حولي، كنت أتمنى لو أنه وجد فرصة أفضل للنشر والتوزيع. كتاب مهم للعراقيين كما لسواهم، إذ إن احتلال العراق ليس حدثاً محلياً أو إقليمياً فحسب، بل هو زلزال أصاب كل مسلم بغض النظر عن موقعه الجغرافي..

لقد تمكن أحمد من اقتناص تلك اللحظة التاريخية التي فقدنا فيها الوعي، فقدنا فيها الهوية لحين، فقدنا الحقيقة التاريخية! من كان مسؤولاً عن هذا الزلزال؟؟ نحن أم عامل خارجي هو نتاج غيبوبة استغرقت وقتاً أطول مما تعيه الذاكرة؟ لم يُفق العراقيون حتى الآن ولم يأخذوا بزمام الأمور حتى الآن. ولعله من المفيد أن يقرأ كل عراقي (ليلة سقوط بغداد) مرة في الأسبوع إلى أن تحدث اليقظة!!

كنت شاهدة على ولادة رسائل (ضوء في المجرة) التي ابتكر أحمد فيها لغة جديدة في الدعوة، لا تقف عند الألفاظ على جمالها، بل تستخدمها لتمرر أفكاراً عميقة امتهنت بتكرار لغة عتيقة كانت مبدعة حتماً يوماً ما... اختار لذلك أيضاً شكلاً سهل التداول عند الشباب في ذلك العصر الذي يسمى (عصر السرعة).. أدرك أن أحمد مثلي لا يزال يؤمن بالقراءة بشكلها التقليدي وبالكتاب بشكله الذي تعودنا عليه، لكنه يقول ببساطة: إن من لا يأتي لنا، نذهب نحن إليه...!!

كنت كثيراً ما أقرأ للسيدات في الجمعية مقاطع طويلة من هذه الرسائل، فتثير دموعهن حيناً وحماسهن حيناً آخر.. من الكاتب؟ كانت السيدات يسألنني.. وكان أحمد قد اشترط عدم ذكر اسمه..! فصهري يومها لم يعرف إلا بكونه طبيب الأسنان..!

استمر أحمد في الكتابة مستوعباً التاريخ والمستقبل في (الفردوس المستعار) الذي سوف يستعاد. يمارس ربط الأسباب بالمسببات في منطق سليم يدخل العقل أولاً ثم يثبت يقيناً بالتفكير ويلتصق بالقلب.. الفردوس المستعار كان مثل خريطة لعالم اليوم، ولكن بعد أن تم وضع البوصلة القرآنية عليها.. لقد قرأ أحمد الواقع المعاصر بعين الثوابت والقيم القرآنية، فأنتج ملحمة فكرية لا غنى لمسلم اليوم، ليس عن الاطلاع عليها فحسب، بل عن حفظها وتدارسها وغرسها في عقله..

ينتقل أحمد من الفكر الى المقالة الأسبوعية في الجرائد المحترمة (القدس العربي - العرب)، فيقدم وجبات سريعة دسمة تكون الفخ التدريجي للقارئ لكي يذهب إلى الكتب التي تضم الوجبة كاملة!!..

ثم جدد أحمد تجربته مع الكتب الصغيرة المركزة والمكثفة التي يسهل حملها وإهداؤها (كيمياء الصلاة). استغل أحمد فيها قدرته الفريدة في بعث الثقافة القديمة برؤى جديدة وتحليل جديد. (كيمياء الصلاة) كائنات حية جديدة بعثت في الصلاة حيوية جديدة، يا ويحنا كأننا لم نصلِّ قبل الآن.

(كيمياء الصلاة) أثبتت فاعليتها العظيمة في إحياء حركة التجديد في مختلف أجزاء الوطن العربي؛ في الجزائر أدرجت في بعض المدارس الدينية ضمن المقرر الدراسي، وفي بيروت قام شبان وشابات متحمسون لدراستها ونشرها... والآتي ربما أعظم...

انتقل أحمد إلى الصغار، فألف لهم رواية جميلة (أبي اسمه إبراهيم). الحقيقة أن أحمد لم يبدأ بالاهتمام بثقافة الطفل في هذه الرواية، فقد كانت له إسهامات شتى في التوجيه والتربية في

برامج روضة الأطفال التي كانت تديرها زوجته في العراق، حيث كان يؤلف لهم الأناشيد والتمثيليات والفعاليات المتنوعة. ومن يعرف أحمد عن قرب يدرك مدى تعلقه بالصغار عموماً وبأولاده خصوصاً، لن أنسى أبداً يوماً كان أحمد مقبلاً على امتحان نهائي في دراسته العليا المتخصصة، ويومها اقترحت أن يبقى (زين) عندي بحجة أن يتمكن والده من التركيز!..

ليلة الامتحان قرر أحمد أنه لا يمكنه التركيز بلا ابنه الذي كان وقتها دون السنتين.. وتم إرجاع الطفل على عجل يومها!!..

قال لي عن (ألواح ودسر) إنها "ولاّدية القياس"، ويقصد أنها في ذلك العمر (المحير) بين الطفولة والمراهقة والنضج، لكني اكتشفت لاحقاً أن الرواية للكبار أيضاً؛ الكبار الذين يحلمون بالعودة إلى الطفولة كي يتخلصوا من الشعور بالمسؤولية، مسؤولية تجديد أنفسهم وإدماجها بالكون المتجدد أبداً. لا لن نتخلص أنا وغيري ممن هم في السبعينيات من العمر من مسؤولية أن نكون نوحاً جديداً.

ألواح أحمد ودسره تنزل كالمطارق على رؤوسنا، يفزعنا مستقبلنا، يصدمنا واقعنا المشتبك بالعولمة وحضارة الكوكا كولا ونحن كالمقيدين لا نفعل شيئاً..

أمل جديد يحمله مشروع (القرآن من أجل النهضة) والاستجابة من الشباب كبيرة... أحمد الذي ينتمي إلى جيل الشباب يمكنه أن يتواصل معهم عبر هذا المشروع، وكما فعل سابقاً في (ضوء في المجرة) عبر لغة جديدة، يستخدم هنا وسيلة جديدة تسهل على الشباب التفاعل مع فكره، وتوصل أفكاره إلى بقاع لا يصلها موزعو دار الفكر.. وربما سيكون في هذا الوصف ظلم للمشروع ولصاحبه وللكثير من مرتاديه الذين تجاوزوا سن الشباب بعقود، لكنهم تسللوا على استحياء إلى الموقع ووجدوا في هذا الفكر ما يزيد ثقتهم بالجيل الجديد الطالع..

ذهاب أحمد إلى أمريكة أثار الكثير من التساؤلات واللغط في محيط الأصدقاء والأقرباء ولكني شجعته، ولا أخفي هنا أنه قال لي لاحقاً أن تشجيعي كان له عاملاً حاسماً في قرار السفر... ولعل السفر بحد ذاته، يثري التجارب الإنسانية ويصقل الخبرات، إنه قد يزيد الانبهار لمن كان منبهراً أصلاً، لكنه يزيد الحصانة والمناعة لمن كانت الحصانة زاده في تلك الرحلة، وها هو ذا العطاء الأجزل يأتي. كان أحمد خير مسافر وخير مستوعب للتجربة، وأتت المقالات المختلفة عن نيويورك وواشنطون لترصد لنا أحمد وهو يرصد المجتمع الأمريكي ويستوعب التحولات فيه، وكعادته يغوص بعيداً في التاريخ ويعود إلى الحاضر ويستشف المستقبل. هذه المقالات فتحت عيوناً كانت مغمضة، وأضافت لمعلوماتنا وثقافتنا الشيء الكثير. بحكم قربي منه

أعرف وجود مقالات عن التجربة فضل أحمد أن يؤجل نشرها، ولا أشك أن ذلك سيكون في كتاب يؤرشف المنشور وغير المنشور، ويقدم للقارئ العربي نمطاً جديداً من أدب الرحلات، حيث يتجاوز أحمد النمط السياحي في الوصف إلى التحليل العميق، حتى يصير (أدب الرحلات) فكراً للرحلات!

وأنا أفخر بأن أكون أمه الروحية بين عدة أمهات منهن السيدة هدايت سالم والسيدة حنان لحام والراحلة العزيزة السيدة رشيقة العمري رحمها الله، بالإضافة إلى أمه البيولوجية والروحية الأستاذة المحامية لميس محمود صبحي الدفتري حفظها الله...

أحمد خيري العمري لم يكن طائر فينيق انبثق من رماد، بل إنه ترعرع في أسرة معروفة بالثقافة، حيث كان والده خيري العمري رحمه الله مؤلفاً وقانونياً معروفاً تقلد عدة مناصب قضائية في العراق، كان آخرها عضوية مجلس ديوان التدوين القانوني الذي كان أهم مؤسسة قضائية في العراق قبل الاحتلال، وقد ألف كتباً عديدة قبل أن يختطفه المرض مبكراً فامتنعت عليه الكتابة، لكنه بقي سنوات عديدة يستقبل في صالونه الأدبي الأسبوعي العديد من الأدباء والمثقفين إلى أن توفي رحمه الله. كما أن جده لوالدته وهو المرحوم محمود صبحي الدفتري، وهو بالإضافة إلى كونه من أوائل الحقوقيين في الدولة العراقية الحديثة، وتسنمه مناصب عديدة في هذا المجال، كان أيضاً صاحب أهم صالون ثقافي أدبي سياسي في النصف الأول من القرن العشرين، وهو الصالون الذي عرف باسم (صالون الجمعة) الذي شهدت أرجاؤه التغيرات العميقة التي كان يشهده المجتمع العراقي في تلك المدة.

وفي الأخير أرى لزاماً أن نشكر دار الفكر في تكريمها للشباب من المؤلفين والمفكرين بتكريمها لشخص الدكتور أحمد خيري العمري، إنها التفاتة عظيمة لتشجيع الشباب ولتشجيع الكهول والشيوخ كي يتبعوا النور من أي مشكاة أتى، وقد اتخذوا شعار التكريم الآية الكريمة {يَاأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا *}.

وأنا أشهدكم أني سأتبع أحمد، أنا في السبعين وهو لم يبلغ الأربعين.. اتباع مشروط باستمرار الاختلاف والخلاف.. (فالمناكفات والمجادلات هيَ هيَ إلى الآن!!)... أرجو من الله أن يبقى أحمد هادياً لصراط سوي، وأن تزدهر دار الفكر في كل مشاريعها وإنجازاتها، وأن تساهم دوماً بإخراج الكنز الدفين، من رؤوس المفكرين إلى أرض الواقع، فذلك هو السماد الأفضل...

# أحمد العمري - ونظارتي الوردية!

**د.أثير الشيخلي**

ربما تكون كتابة الإنسان عن نفسه بتجرد هي واحدة من أصعب الممارسات، وكذا هي عن صديق حقيقي يحمل من التميز في الفكر والأسلوب الشيء الكثير، ليس بشهادتي (المجروحة بحقه) وإنما بشهادة كثر لا يتطرق الجرح إلى شهادتهم..

مر على معرفتي بالدكتور أحمد العمري قرابة الثمانية عشر عاماً (مستمرة بلا انقطاع!) وعندما أخبرني بذلك قبل أشهر، احتجت إلى ثوانٍ طويلة لأستوعب ذلك، سواء لفضاء الفترة نفسها أو لاستمراريتها، ثمانية عشر عاماً طويلة من عمرنا وعمر العراق، وتلك على أي حال قصة أخرى، يبدو أننا خضنا وشهدنا معاً المشاهد كلها لو صح لي أن أعبر، مع أننا أبناء حي واحد فإن تعارفنا جاء من خلال مسجد الحي، ففارق الست السنوات بيننا (الذي اضمحل تأثيره الآن) كان يمثل في حينه فاصلة بين جيلين لا تجسّره إلا علاقة مسجد.. بل أكثر من ذلك.. كانت بداية التعارف من خلال مواعيد صلاة الفجر، ولا يمكن الإحساس بعمق وطبيعة مثل هذه التعارفات إلا لمن عاشها وعرفها بالفعل. أحمد العمري لم يكن قد أصبح طبيباً بعد، لكنه كان دؤوباً في الدعوة بشكل (مزعج!) نحسده عليه،كان يقتنص شباب المسجد الجدد ويقضي الساعات الطوال معهم بلا كلل ولا ملل، حتى كنا لنتساءل هل بقي ما يمكن أن يتحدث فيه؟! وكنا ننتظر ونرشح فيما بيننا (ضحيته!) التالية!

فيه من الخصال (العمرية) الكثير، إذا أحب أحب بشدة ووضوح، وإن كره كره بلا هوادة، فيه من الطيبة الخفيّة أضعاف ما فيه من الجدية الظاهرة، مرهف الإحساس بشكل كبير مع كل ما قد يراه البعض من حدة في الطباع وحسم في الرأي والحكم. شديد التمسك بآرائه، مستميت في الدفاع عنها، بارع في استدعاء الحجج المفحمة، وإذا كنت ما أزال أتكلم على تلك المدة السابقة لنضوجه الفكري، فإن أبرز ما كان يميز العمري في ذلك الوقت هو قدرته على الانقلاب بالرأي والتأييد لفكر ما أو لصاحبه عندما يتبين له من هذا الفكر أو من صاحبه ما

يخالف ثوابته، والغريب العجيب قدرته على استدعاء الحجج والأدلة التي تؤيد موقفه في المرتين بنفس القدرة والكفاءة على الإقناع..

إن كنت سأنسى يوماً فلن أنسى تلك الساعات التي تعقب عودتنا من صلاة الفجر وإلى ما بعد شروق الشمس بفترة ونحن جالسان في سيارته أو في سيارتي نتجادل ونتحاور ونتقارع في كل أمر يمكنك أو لا يمكنك تصوره! وهو يصول ويجول في الدفاع عن فكرته، وربما بعدها بأيام أو أسابيع عن فكرة مخالفة!..كان هذا قبل أن يستقر على بوصلته بشكل نهائي..

الدكتور العمري من أشد الناس الذين عرفتهم في حياتي ثقافة، يلتهم الكتب التهاماً، كان (وربما لا يزال) ضيفاً دائماً على المكتبات ومعارض الكتب، حباه الله بذاكرة فولاذية، وطالما ذكّرني (وبعد سنوات) بمواقف كنت قد رويتها له في وقتها، فلا يتذكر تفاصيل الموقف فحسب، بل حتى الجو الذي روي فيه، وأسماء أبطال ذلك الموقف الذي أكون أنا قد نسيته ونسيتهم!

ربما كنت من الأوائل الذين كان العمري قد أطلعهم على بواكير كتابته على تلك الأوراق الصفراء المسطّرة بخطه والمرسومة كلماته رسماً، وبالذات طريقته المميزة في رسم الحركات فوق بعض الأحرف أو تحتها، كان بعضها ربما مسودات من كتابه الأول لاحقاً (البوصلة القرآنية)، وقبل أسابيع كنت في بغداد (بعد غياب مؤلم وشبه قسري لأكثر من ثلاث سنوات!)، كنت أُعيد ترتيب مكتبتي وأنظفها من طبقات (تلك السنوات) من تراب بغداد (وما أدراك ما تراب بغداد!) يساعدني ابني الأصغر، فجاءني بأوراق صفراء مطوية يسألني إن كنت بحاجة إليها، فإذا بها مجموعة من تلك المسودات! تداعت فوراً الذكريات، فقلت لولدي: هذه لعمو أحمد العمري، سنحتفظ بها، سيأتي اليوم الذي سترى هذه الأوراق كنزاً (معنوياً! وحتى ربما مادياً من يدري!)، لأن صاحبها هو من بدأ يفتت الفكر المتحجر ويذيب جليد الجمود الفكري السائد.

عندما كتب الدكتور محمد عباس أن الدكتور العمري لن ينال جائزة نوبل يوماً ما، لأن لجنة نوبل (للأسباب المعروفة) لا يمكن أن تعطي الجائزة لصاحب فكر كهذا، وجدت نفسي متفائلاً أكثر بكثير من الدكتور عباس، لأنني واثق من أن الدكتور العمري بفكره الخلاق، وإخلاصه للمبدأ، واجتهاده ووضوح الفكرة لديه، قادر (بإذن الله) حتى على تغيير فكر أعضاء تلك اللجنة، ليصل بهم المطاف إلى أن يمنحوها إياه في يوم ما، ولِمَ لا؟!.

قد أكون مفرطاً في التفاؤل بنظر البعض، وعلى رأسهم الدكتور العمري نفسه، وهو الذي كان يقول لي باستمرار: "إنك ترتدي نظارة وردية"..، اليوم أقول له بقلب محب، لقد رأيت (ومنذ أيام مسجد الحي) بتلك النظارة ما يمكن أن تصل إليه في وقت احتاج الكثير من عمالقة

الفكر ربما إلى ضعفه ليصلوا إلى مثل هذه المكانة، ومن خلال نفس هذه النظارة أنظر اليوم إلى تلك القمة التي تتجه نحوها برعاية الله وحفظه.

يتهمني الدكتور العمري مازحاً أنني أقرأ له بأبطأ مما يكتب هو! ربما هو على حق فيما يخص كتبه، ولكنه ليس كذلك فيما يخص مقالاته التي أصبحتُ أنتظرها بشغف، وفي الحقيقة فإن هذا الاتهام كالذم الذي يراد به المدح، والسبب أن أسلوبه يشدني إلى درجة أنني لا أتمنى أن ينتهي الكتاب، ولذلك فأنا أقرؤه بأبطأ ما يمكن، ومن جهة أخرى، فإن الأفكار الواردة في تلك الكتب بحاجة إلى صفاء في الفكر حتى يتم هضمها بعمق، لكونها وجبة فكرية غنية ودسمة.

إن أسلوب العمري في الكتابة متفرد حقاً من حيث انسياب العبارات وتدفق المعاني بتشويق يشدك إلى متابعة ما سيقول في الجملة اللاحقة ببلاغة أنيقة دون تكلف، وأسلوبه يجمع كل تلك المواضيع التي ذكر أحد أساتذة الصحافة أنه لا بد منها أو من أحدها على الأقل لتجعل من مقال أو رواية ما ناجحة بكل المقاييس، وقصد بها، الدين والسياسة والجنس والجريمة والغموض، حتى إنه جمعها في تلك العبارة الشهيرة التي تقول: "رباه إن الملكة حامل! من الذي فعل ذلك؟".

من النادر أن تجد مقالاً أو كتاباً للعمري لا يجمع بين كل تلك (الثيمات) أو معظمها، سواء من حيث الأسلوب أم الموضوع، وهو في ذلك كله لا تجده متكلفاً ولا متشتتاً ولا مشتتاً، تركيز على المراد، تشخيص للعلة واقتراحات عملية للعلاجات. لا أقول إن ذلك جاء وتحقق بين ليلة وضحاها، بل هو نضج لا يزال مستمراً، صحيح أنه احتاج ليتحقق إلى سنوات، لكنها قليلة بالمقارنة مع ما احتاجه غيره ممن يحمل أسماء لامعة وبقامات سامقة في مجال الفكر والأدب كما ذكرت آنفاً، والسبب بتصوري هو امتلاكه لذكاء وقاد، دأب لا يعرف الكلال، ثقافة متميزة، منظومة فكرية واضحة المعالم، إخلاص للمبدأ، وقبل كل ذلك وبعده توفيق من الله سبحانه.

لن أفي أخي وصديقي الرائع والحبيب أحمد العمري استحقاقه بهذه الكلمات البسيطة، ولا شك أنني لا أجيد (دندنته) في التعبير، كما أنني لم أكن مجاملاً في وصفه أو وصف أسلوبه، فهذا ما أراه فيه حقاً، وإن كان لا بد من ذكر بعض جوانب التقصير لديه، فأقول إن في عصرنا هذا، مهما يكن للقلم من تأثير، تبقى سطوة الصورة هي الغالبة وهي المؤثرة في العقول والقلوب بدرجة أكبر، لذا أناشد الدكتور العمري أن ينطلق بفكره إلى آفاق أوسع من الكتاب والمقال والشبكة العنكبوتية إذا ما توافرت الفرصة، أتفهم بشدة بعض المحاذير، وأتفهم أيضاً أن إجادة التعبير بالكتابة لا تعني بالضرورة إجادة التعبير بالكلام والعكس صحيح، لكنها خبرة تستحق التجربة، ونظارتي الوردية تخبرني أن الأمور ستكون وردية هناك أيضاً.

# وقفة مع الدكتور العمري

**أ. بكاي أحمد بن صالح** *

**مقدمة**

قال الله جلَّ ثناؤه: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَانُ وُدًّا *} [مريم: 19/96] .

الحمد لله رب العالمين، وصلاة ربي وسلامه على حبيبنا وقدوتنا وقرة أعيننا؛ نبي الرحمة والأمن والسلام محمد بن عبد الله.

اسمحوا لنا أن نتحدث عن عظيم وحبيب إلى القلوب..

هذا الذي أحببناه ولم نره يوماً، أحببناه ولم نسمع صوته يوماً، لا نعرف له شكلاً ولوناً إلا بما توحي إليه صورته.

التقينا معه لساعات طويلة، فأبهجنا وأحزننا، وحرّك فكرنا وألهب وجداننا، لقد كان يقودنا بسرعة البرق، من دون كلال ولا ملل، وإن نحن تعبنا فَرَرْنَا منه من دون إذن، ثم نعود إليه من دون إذن، لقد كان سخياً كريماً، لقد تجاوز الزمان والمكان بقلم وورقة، لقد اعتلى عروش العقول والقلوب، لقد كان رسولَ خيرٍ عمريًّا لا أعرابياً.

لقد قيل قديماً: «إن الطيور على أشكالها تقع»، لقد جمعنا الإيمانُ والعمل الصالح فأنزل الله برحمته الود بيننا كي يكون نتيجة لما مضى وسبباً فيما سيأتي.

نذكره بالخير ولنا الشرف في الدنيا والآخرة على ذكره، نذكره ولا نمل، ونقول إنه الأستاذ الدكتور الجراح الماهر، الذي تجاوز جراحة الأسنان إلى جراحة العقول والقلوب والأمم، إنه أخونا في الله أحمد خيري العمري.

لقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يجمعنا بهذا العالِم، ونلمس فيه ذلك التميز في كتاباته وأعماله، فهو فريد في منهجه وأسلوبه، قوي في الفكر كما الأدب، استطاع أن يتخذ لنفسه خطاً

منهجياً، وأن يجعله قضيته في كل ما يرفع من أجله قلماً؛ إنها النهضة بأشكالها وألوانها، من لدن آدم إلى قيام الساعة، المهم أن يمكّن الله لدينه ونكونَ سبباً في ذلك، ومما يسترعي الانتباه في الدكتور العمري صغر سنه بالنسبة إلى أعماله التي تجدها مباركة في العدد، وعميقة في الطرح، فلقد نسي الدكتور ما يسمى بالسطح إلا نادراً متى ما شاء أن يريح قُرَّاءَه ويستنشقوا الهواء، ولكن سرعان ما يُرجعهم إلى الأعماق، أعماق النفس، أعماق التاريخ، أعماق القرآن، أعماق الحقيقة حتى ينهض الروح من جديد فيقيم أمة الحق والعدل على وجه الأرض، كما علَّمنا الدكتور الوضوح والصدق، فلا يوجد في العُمُرِ عُمُرَان، فإن كنا خلقنا لمهمة ما، لأمانة ما،فيجب أن نتحملها وكفى، من دون كثرة جدال أو كلام أو لغط، فبها سنلقى الله وعليها سنحاسب. وإن القارئ ليلمح الصدق جلياً عندما يجد الدكتور يحطم الأصنام الأمريكية من رؤوسنا، ولمّا تبحث عنه أين يسكن؟ وأين يعمل؟ تجده في قلب الولايات المتحدة الأمريكية، تلك التي دمرت بلاده، فحوّل تلك المحنة وذلك الحب العميق لوطنه العراق تحدياً وقوة يعلوان فوق كل شيء من أجل الفردوس المستعاد[15].

إن القرآنَ الكريم منطلقُه ومنهجُه؛ فلقد أبدع في تفسير بعض الآيات، دون أن يرفض تفاسير التراث الإسلامي، وجعل ذلك بناء معرفياً لا ينفي الماضي ولا يلغي الفهوم الجديدة، التي تناسب عصرنا.

لقد ألّف وصدق فأبدع، يحمل همًّا واحداً.. إنه التمكين لدين الله، إنه نهضة الأمة الإسلامية.

لا ندّعي أننا أحصينا كتبه قراءة ونقداً ولكن مما يسر الله لنا فعله نلاحظ ما يلي في فكر دكتورنا:

1-يدفع الدكتور من خلال كتاباته إلى فكر النهضة. ويؤكّد أنَّ واجب كل مؤمن أن يكون همه بناء حضارة الأمة.

2- يدافع الدكتور عن فكر النهضة من خلال استئصال الأفكار السلبية من فلسفة مادية وفهوم خاطئة للدين، ثم تبيين الأفكار الصحيحة من منطلق قرآني.

3- يعتمد كذلك على منهج تفجير المصطلحات. فمثلاً بُغية الوصول إلى مفهوم الصلاة، يأخذ المعاني اللغوية ويحاول تقديم أبعاد لها حتى يقدم قيمة حضارية للصلاة.

4- قدرة الدكتور على سبر الأغوار، والربط بين التاريخ والحاضر والمستقبل، من خلال قصص القرآن على سبيل المثال.

5- ومن الملاحظ كذلك أن الدكتور أحياناً يغوص في معنى من المعاني بطريقة تعطل القدرة على تطبيق تلك الفكرة، لأن المعاني أحياناً لا يمكن أن نتوصل إليها إلا بالسلوك، فعندما أغوص في معنى الإنفاق مثلاً لن أعرف حلاوته ولن

أحصد ثماره إلا بالإنفاق.

6- يناقش الدكتور الكريم قضايا فكرية عميقة، ويعالج مشكلات قد تكون أحياناً وليدة واقعٍ عاشه الدكتور أو تأثر به، فعلى من أراد أن يتبنى فكر الدكتور أو مؤلفات في مقرراته أن ينتبه إلى أنه ليس كل ما يعالجه الدكتور يمسُّ واقع أي إنسان، لا لقصور في فكر الدكتور وإنما لاختلاف الفئة المستهدفة، فمثلاً إن كان المقصود صياغة مقررات مدرسية انطلاقاً من كتبه فمن الضوابط الانطلاق من واقع التلميذ وعودته إليه معالجاً ومغيراً.

هذه بعض الملاحظ على فكر الدكتور، ولكن الأهم كيف يمكن أن نحول هذه الدرر الثمينة إلى واقع؟

لقد وفقنا الله في مركز التطوير العلمي أن نقوم بمحاولة لتحويل سلسلة كيمياء الصلاة إلى واقع من خلال محور مبادئ الدين الإسلامي.

وأعتقد أن من ثمار صدق المرء وإخلاصه أن يقيّض له من يحوّل فكره إلى واقع، بل أكثر من ذلك يصبح فكره خلفية فكرية لمنهج تربوي تستفيد منه أجيال متعاقبة.

وارتأينا أن يكون حديثنا عن دكتورنا بهذا الشكل، حديثاً عن العمل والتغيير، حديثاً عن الذي فعله فكره في واقع الأمة، ونحن نعتقد أنها بداية، وسيقيض الله للأمر الآلاف من الناس.

ولا بأس أن نعرف بمركز التطوير العلمي، وفلسفة مبادئ الدين الإسلامي فيه، والمنهج الذي اعتمدناه في تحويل أفكار الدكتور إلى منهج عملي.

# نبذة تعريفية

مركز التطوير العلمي مؤسسة علمية وبحثية، تقوم بتدريس الأبناء والبنات القرآن الكريم، ومبادئ الدين الإسلامي، واللغات الأجنبية، وبعض المهارات كالتواصل والتخطيط وإعمال العقل وإشباع الوجدان.

كما خصص المركز مقراً خاصاً بالبحث العلمي في مجالات تدريسها، والإشكاليات التربوية ويفرَّغ لكل محور متخصصٌ..

والمركز يعمل وفق مبادئ يحرص على حضورها في كل برامجه ومقرراته.

فالغاية هي: ابتغاء رضوان الله تعالى.

والرسالة هي: التغيير في المنهج من منطلق قرآني.

والهدف هو: إعداد فرد مؤمن، فعال في محيطه، يعيش عصره.

أما عن فلسفة محور مبادئ الدين الإسلامي فهي: بيان أن الدينَ الإسلامي منهجُ حياة ، فيه الجواب الشافي الكافي لكل ما ينقدح في أذهاننا، وهو الملاذ الوحيد لبناء حضارة شاملة متكاملة. فلابد للمؤمن من معرفة الحكم قبل الإقدام على أي خطوة في حياته.

والهدف من تدريس مواد مبادئ الدين الإسلامي - في هذه السنة - هو: اتخاذ (الصلاة) مدخلاً لتغيير الواقع، ومفتاحاً للحياة الطيبة.

فما هو عمادٌ للدين، يمكن أن يكون عماداً للشخصية.. وللفرد.. وللمجتمع.. وللحضارة.. (كما يقول الدكتور العمري).

وعملنا مع الكتاب - في المقرر - لم يكن تتبُّع فصوله كلِّها، وإنما اتخذناه نبراساً نعود إليه عند الحاجة، ومنارة تضيء لنا الطريق وتنير الدرب.

وهذه نماذج من بعض المعاني العميقة التي استقيناها من كتاب الدكتور الفريد (كيمياء الصلاة)، اقتصرنا في النماذج على الجزء الأول.

**تبيين منهج عرض النماذج**

لقد اعتمدنا في عرض النماذج التي استفدناها من الجزء الأول من سلسلة كتاب الصلاة على ما يلي:

1-اقتباس الفكرة حرفياً من النص.

2-تحليل الفكرة.

3-التوجيه العملي: نكتب الآليات التي اعتمدناها لتحويل الفكرة إلى سلوك في مركز التطوير العلمي.

**الفكرة الأولى صفحة: 15 - 16**

والحقيقة أن عملية تغيير السلوك أمر أصعب من عملية تغيير الأفكار، فهي لا تشمل الإيمان بفكرة جديدة فحسب، بل استئصال الفكرة السلبية أيضاً، وهو أمر سيكون- سلوكياً- أصعب وأعقد من مجرد الاقتناع، لأن الفكرة السلبية قد تكون لها رواسبها وجذورها المتأصلة في اللاواعي. بينما الفكرة الجديدة ما تزال في سطح الوعي وغير مؤصلة ولا مرسخة بمفاهيم ونمط سلوك اجتماعي، كما هو الأمر مع الفكرة السلبية.

**التحليل**

نجد الحديث في العقيدة الإسلامية عن فكرة (التخلية قبل التحلية)، وهي الفكرة السابقة نفسها عن استئصال السلبي ثم زرع الإيجابي، قد يبدو الأمر واضحاً وسهلاً عندما نود حرث أرض غطتها الأعشاب والنباتات الضارة، فما علينا إلا أن ننقي الأرض تماماً، ثم نتّبع التعليمات الفلاحية حتى نُتْمِم العملية إلى النهاية.

إلا أن الأمر يصعب كثيراً مع الإنسان لتعقده وصعوبته؛ فتحيز[16] إنسان إلى أفكار معينة لا ينتهي بفرض أفكار جديدة قد تكون مناقضة، وإنما يكمن في فهم الأفكار المتحيَّز إليها وأسباب ذلك التحيز، ثم الاجتهاد في كسر التّحيز وأسبابه بالأدلة والحجج وبناء التحيز الجديد بالأدلة والحجج، ثم تحويله إلى واقع وتطبيق حتى يترسخ حقيقة.

ولما كان أي إنسان تتشكل لديه قناعات وأفكار وخلفيات تمثل تحيُّزَه في الحياة، وهي تشكَّل أساساً من والديه ومحيطه ومدرسته ووسائل الإعلام ومن ذاته، فيجب التعامل معه

انطلاقاً منها.

ولأن المدرسة والمعلم هما من أهم منابر تشكيل تحيُّزات البشر، فسيصبح الأمر أشدَّ خطورة إن لم يكن أرباب التربية والتعليم أصحابَ فكر وأصحابَ مراكز بحوث تسبر الأغوار وتَمِيز الخبيثَ من الطيِّب من أجل أن تقدم الصالح لأبناء الأمة حتى يغيروها ويطوروها.

**التوجيه العملي**

1- بتوفيق من الله سبحانه وتعالى أخذنا على عاتقنا في مركز التطوير العلمي أن يصاحب التدريسَ البحثُ العلمي في كل ما يُدَرَّسُ، حتى تتحقق الأهداف ونبني تحيُّزَاتٍ حقيقيةً لدى الأبناء والبنات.

2- من بين المناهج المعتمدة في تدريسنا ضرورة معرفة أفكار التلاميذ وطريقة تفكيرهم، ثم تخلية السيئ منها ثم بناء الإيجابي.

أنموذج لذلك:

- في إطار العمل في موضوع ( الهوية والانتماء ) مع أحبتنا الطلبة والطالبات، إذ أصبح الأمر صعباً خاصة مع اعتناق الدين الجديد[17] (العولمة أو الأنموذج الأمريكي) بوعي أو من دونه، فبات من الضروري اتِّباع هذه الخطوات في التدريس:

- اطِّلاع الأستاذ الباحث في المركز على الدين الجديد والفلسفة التي يقوم عليها، وتبني الإطار النظري للدكتور عبد الوهاب المسيري (الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان).

- العمل مع التلاميذ في القسم على فهم علاقة سلوكاتهم مع خلفياتهم الفكرية التي غالباً ما يظهر فيها الجانب المادي؛ من الرغبة في الاستهلاك، وضعف تقدير الذات، واحتقار الضعيف، والجري نحو حصد النقاط...

- زرع الفلسفة الإسلامية معتمدين دائماً على الإطار النظري للدكتور المسيري، ومعتمدين على المنظومة المعرفية الرشيدة للدكتور محمد بن موسى باباعمي.

وللتنبيه فإن الموضوع قيد البناء، والأهم في الأمر كله هو: كيف انطلقنا من فكرة كتاب ( كيمياء الصلاة ) حتى تصبح في غرفة القسم تبسَّط للطلبة حتى ترشد سلوكاتهم.

وهناك أفكار تم تطبيقها حتى مع التلاميذ الصغار.

**الفكرة الثانية صفحة: 27**

لماذا نصلي؟...سؤال غير مطروح، على الأقل ليس بصوت عال، فقد تعودنا أن نعد ما هو بدهيّ لا يناقش، ولو لغرض ترسيخه وهكذا، ولأن الصلاة فرض مكتوب، ولأنها الخط

الفاصل بين الكفر والإيمان، ولأن الصلاة فرض مكتوب، ولأنها عماد الدين، ولأنها الخط الفاصل بين الكفر والإيمان، ولأن من أقامها فقد أقام الدين، ومن هدمها فقد هدم الدين، فإننا نستبعد السؤال، ونحاول تكريس الأمر وترسيخه في نفوسنا ونفوس أولادنا، ونفوس من حولنا....دونما محاولة البحث عن أسئلة لذلك....فالصلاة (فرض) وهذا يكفي.

**التحليل**

المناهج الدراسية في الوطن العربي غالباً ما تعتمد منهج التلقين في التدريس، منذ أن يدخل التلميذ الروضة إلى أن يتخرج دكتوراً في الجامعة، فلا مجال للسؤال والنقاش والنقد، بل أحياناً يصل إلى حد الحرام، وحدّ قلة الأدب لو حاول التلميذ أن يناقش أستاذه.

وزيادة على ذلك، الترهيب الذي يرافق التلميذ خلال مسيرته الدراسية، لأن الحب والعطف هما من دواعي تدليل الطفل، أما الضرب والإرهاب فهما من دواعي تخريج أبطال وشجعان ومغيرين..

للأسف لقد أخفقت هذه الفكرة؛ فلقد خرّجت مدارسنا جيلاً أقل ما يقال عنه: إنه لا يمكن أن يطرح سؤالاً...

لذلك بات الحديث عن: لماذا أصلي؟؟ أمراً صعب المنال، لأن الخلفية الفكرية معكّرة الصفو تحتاج إلى تطهير عميق.

**التوجيه العملي**

أول ما قرأت السؤال: لماذا نصلي؟ فوجئت أني لم أجد الجوابَ مباشرة،وبعد التفكير فوجئت بالجواب!!!!!!

لقد كان الجواب: أصلي لأن الصلاة واجبة..

حاولت أن أكون صادقاً قدر المستطاع، فقلت لنفسي: كيف يمكننا أن نتجاوز حدود المألوف في تدريسنا إذ درّبنا الأبناء والبنات على أن يكون همهم هو نهضة الأمة، ولكن لم نفكر أن ندرّبهم على أن تكون صلاتهم من أجل ذلك؟

بل أخطر من ذلك أن ندرب أنفسنا نحن الأساتذة على ذلك لأنني طرحت السؤال نفسه على أساتذتنا الذين يعلّمون الصلاة، فوجدت الجواب لم يتجاوز إسقاط الفرض وأداء الواجب...

لذلك ستعاد صياغة الهدف من الصلاة مع كل الأبناء والبنات الذي وصلوا سنَّ التكليف حتى تكون متناغمة مع تفكيرهم وإرادتهم في التمكين لدين الله.

**الفكرة الثالثة صفحة: 14**

"الأمور الحقيقية العميقة في الحياة - ومن ضمنها الخشوع - لا يمكن أن تأتي أبداً بوصفة جاهزة كما هي وصفات الأطعمة وكتب الطبخ.

ربما الإرشادات والنصائح العامة تساعد بطريقة ما، لكن تلك الوصفات التي تضع نقاطاً وترقمها، لا تؤدي حقاً إلى النتائج المرجوة منها على الرغم من أنها مغرية لسهولتها".

**التحليل**

لتحليل هذه الفكرة أودّ أن أضرب مثالاً بأمر حقيقي وعميق في الحياة ألا وهو الزَّواج، فنجد بعض الناس يتمنى الزواج ويرجوه، ويُعدُّ لذلك العدة ويهيئ الأسباب من أجل ذلك اليوم أو تلك الليلة معتقداً أنها ليلة السحر، فيها يجد الحب والمودة على أطباق مهداة، يتناول منها ما لا ينفد إلا بموته..

وسرعان ما يكتشف أمراً آخر.. يصرح به أو يكتمه، وهو أن الأمر عادي جداً، فإمّا أن تركد علاقته الزوجية وإما أن تتدهور، إلا أنّ المُحيِّر في الأمر هو كيف يصف الله الزواج بأنه آية من آياته، وأنه جعله للسكن، وأنزل فيه المودة والرحمة، ثم يكون الروتين والعادة هما النتيجةَ الحتمية للزواج عند البعض.

حاشا لله أن يكون الأمر كذلك، فلنراجع الآية وسنجد فيها أمراً عميقاً وهو الذي يوصل إلى الحقيقة {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ *} [الروم: 30/21] .

يقول الدكتور وهبة الزحيلي: "إن في ذلك الخلق والإيجاد الأصلي من التراب، وجعْل الأزواج من أنفس الرجال، وتقوية الروابط بينها بالمودة والمحبة والرحمة والرأفة، لدلالة على الخالق الموجد، والمنعم المتفضل، لمن تأمَّل وفكر في أسباب الحياة، وتحقيق النتائج وبناء الروابط على وفق الحكمة والمصلحة، والنظام البديع "[18].

إذن فحقيقة الحياة الزوجية لا يُلقَّاها إلا أولئك الذين يتفكرون ثم يتبعونه سلوكاً وعملاً وليست طَبَقًا يُهدى من غير مجهود يبذل.

والأمر في الصلاة أعمق.. فلا يمكن أن نُثقل النّاس بدروس الوعظ بِحَثِّهم على الخشوع في الصلاة دون وعي لحقيقة الصلاة ولحقيقة الإنسان ولحقيقة الوجود.

**التوجيه العملي**

بعدما تعلَّم الطلبة في المركز الصلاةَ من جانبها التّقني حتى يتمكّنوا من أدائها، وصلْنا إلى مرحلة كيف يمكن للصلاة أن تكون عماداً للفرد والمجتمع والحضارة؟ فوجدنا أنه من غير المعقول أن نتحدث عن الصلاة في هذا المستوى دون أن نوجد لدى الطالب توازناً نفسياً وفكرياً وحتى اجتماعياً.

فمن مدخل علاقته مع نفسه ركزنا على موضوع ( العودة إلى الذات ) كي يكتشفها ويتعرف نقاط قوته ونقاط ضعفه حتى يكتشف وُسْعه[19] بالعمل في الحوض الذي خلق من أجله.

لأننا - وللأسف - نهمل كثيراً ميولات الناس، ونتعامل معها وكأنها ضرب من الترف، إذ لا يجوز لك أن تدرس أو تعمل إلا فيما قرّره المجتمع، فيفقد بذلك الإنسان معنى حياته، ولو أنه يصلي ويصوم و...

فالله خلق كل إنسان ووضع في داخله عالماً خاصاً به، لابد أن يكتشفه ويعمل وفقه حتى يتوازن.

ولقد قال الدكتور عبد الكريم بكار: "إن أرقى أنواع الوعي هو الوعي بالذات، وأعظم أنواع الجهل هو الجهل بها"[20].

ثم بعد ذلك نحن نعمل مع الطلبة في موضوع ( الهوية والانتماء )، إذ لا يمكن أن نتحدث عن صلاة تصنع حضارة ومؤديها ينتمي ويتحيَّز إلى اللاعبين وإلى الاستهلاك وإلى المادة.

وبالتوازي نغرس في الطالب أركان الإيمان؛ من الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر بطريقة تساهم في بناء إنسان الحضارة من مدخل الصلاة.

إذن هكذا نشتغل حتى نصل إلى الخشوع في الصلاة، الذي يوصلنا إلى التمكين. فهي دورة حياة متكاملة ليست معالجة جزئية تبدأ ببداية الصلاة وتنتهي بنهايتها، بنتائج على العموم فاشلة.

ومن الأمور العملية التي كانت إسقاطاً للفكرة، أنه عندما يحين وقت زواج إحدى طالباتنا، فإننا نقيم لها دورة تكوينية، ومن الأمور الأساسية بيانُ أن الزواجَ عميقٌ لا نلتمس نتائجه بوصفات جاهزة وإنما بعمل فكري حقيقي وبمجهود في الحياة الزوجية حتى يحقق الله السكن والسعادة والطمأنينة والعمل نفسه نقوم به مع أساتذتنا قبل زواجهم.

**الفكرة الرابعة صفحة: 109**

(...) واللزوم أيضاً، يعني البقاء في مكان واحد.. وقد جاء اللفظ القرآني خاصة في آيات الوعيد بالمكوث في جهنم {جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ *} [إبراهيم: 14/29] ، [الانفطار: 15-82/14] ، {خُذُوهُ فَغُلُّوهُ (*) ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ} [الحاقة: 30/69-31] .

الربط هنا، باللزوم في جهنم يوحي بالمكوث هناك، بالبقاء هناك، فلفظ (صلى) يصور في سياق، عدم المغادرة، في سياق (لزوم) مكان ما..

ما الذي يعني هذا تلسكوبياً، على الجهة الأخرى، من المعاني؟ ما المكان الذي توحي به الصلاة؟ يعني ذلك كله، أن صلاتك، هي بطريقة ما، لزوم وضع معين، وعدم تركه حتى بعد انتهاء (وقت الصلاة)، إنه ألا تترك قيامك وركوعك وسجودك بعد أن تنتهي منها، بل تجسد حياتك هذه الأوضاع كلها، أن تكون قائماً وراكعاً وساجداً في سائر أفعالك بكل ما يعنيه ذلك..

**التحليل**

هل الصلاة هدف أم وسيلة لبلوغ هدف؟

من اعتقد - ولو لم يصرح - بأن الصلاة هدف في حد ذاتها، فإنَّ أجَلَ التزامه هو التسليم وإنهاء تلك الصلاة، وإن مبلغ جهده ووسعه أن يحسن الوضوء ويزين الملبس و(يخشع) أثناء (أدائه) الصلاة، ثم لايهمه بعدها أتركت أثراً فيه أم لا؟ أنهته عن الفحشاء والمنكر أم لا؟

وربما يكون من الذين يقفون إلى الصلاة - وربما في الصف الأول - وخلفه من ينظر إليه شزراً لأن له عليه مظلمة.

في حين أن من ينظر إلى الصلاة على أنها وسيلة للتمكين لدين الله، فإنه لا يهمل الوضوء والملبس والخشوع، وهو أيضاً لا يهمل دور الصلاة الحقيقي، فتراه يستصحب معه معنى اللزوم خارج الصلاة.

**التوجيه العملي**

في سياق بيان كيفية تعامل المسلم الفعال مع المعلومة، حاولنا مع طالبات المستوى الثالث وعيَ القاعدة التي يعمل المركز وفقها:

**معلومة معرفة سلوك تبليغ**

وكنموذج تطبيقي، استنجدنا بالدكتور الكريم العمري في إبداعه المذكور أعلاه، على النحو التالي:

المعلومة : هي المعنى المجهري لـ: "صلى" الذي هو "اللزوم".

المعرفة[21]: هي المعنى التلسكوبي الذي هو "لزوم وضع معين، وعدم تركه حتى بعد انتهاء وقت الصلاة".

السلوك : ما تحرص الطالبات على امتثاله واقعاً، من مثل:

- استصحاب حالة الخضوع والاستسلام لله تعالى في جميع أحوال حياتنا، في أقوالنا وأفعالنا، في حركاتنا وسكناتنا، فالعبادة لا تقتصر على الشعائر فقط، وإنما الإسلام منهج حياة، فهو وحدة متكاملة لا يؤخذ مجزأ، ولا يقبل مبتسراً، وإنما هو الإيمان كله، أو لا إيمان.

- إذا كان المطلوب منا - في الصلاة - التزام لباس مخصوص، نجد تفصيله في كتب الفقه، فالواجب علينا - رجالاً ونساء - التقيُّدُ بضوابط اللباس الشرعي في جميع أحوالنا خارج الصلاة، استصحاباً لمعنى اللزوم.

وإن لم تكن الضوابط نفسها بين لباس الصلاة واللباس خارجَها إلا أن مبدأ الالتزام واحد. {إِنَّما كانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنا وَأَطَعْنا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (*) وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفائِزُونَ} [النور: 51/24-52] .

- الصلاة مدرسة لإعمال العقل[22] الذي هو مطلَب رئيس في صحّتها، بالتدبر في الآيات الكريمات - كما في أقوال الصلاة وأفعالها جميعها - ومحاولة سبر أبعادها وإسقاطها على الواقع.

إذن - ونتيجة لذلك واستصحاباً لمعنى "اللزوم" - على المؤمن الممكّن لدين الله أن يكون وقّاد الفكر، معتدلاً غير متطرف، منصفاً غير متعصب، معملاً عقله في كل ما يتلقاه، وكل ما يصدر عنه من كلام أو حركة أو منهج تعامل أو طريقة لباس أو..

التبليغ : تبليغ ما تعلمتْه الطالبة وعملت به، بالفعل والقول، (القدوة قبل الدعوة).

**الفكرة الخامسة صفحة: 124**

فالإعراض عن اللغو، واللغو هو أي سقط من الكلام والفعل، أي كل ما هو تافه مسطح بلا غرض ولا اعتماد من الأفعال، هو ليس إعراضاً لمجرد الإعراض، بل لأنك مشغول بقضايا أهم، وأغنى، وأجدر، لأن وقتك المحدود على هذه الأرض أثمن من أن يضيع فيما هو (لغو).

**التحليل**

فكرتان فريدتان في كلام الدكتور نريد الضغط عليهما.

الأولى : أن ثمة من يظن أن اللغو إنما هو منحصر في (القول) دون (الفعل)..

وهذا أمر لا يستغرب إذا كان الفكر الذي يحمله - ولو من دون وعي - يخرجُ العملَ من الإيمان، أو كان ممن هَمُّه شحذ ذهنه بالآيات والأحاديث وأقوال العلماء، ثم تأخذه العزة بالإثم، فيشوه صورة الدين، وهو في الآخرة من الخاسرين.

أو كان من أرباب المنابر أو قاعات التدريس، فيجعل كلَّ همه إبهار المتلقِّين بالتعابير الوعرة والأساليب الشائكة، فيخدِّرهم ويسجنهم في عالم الأقوال، ولا يدفعهم إلى العمل، لا بل لا يمنحهم القدرة على ذلك، فأنّى لهؤلاء أن يجعلوا في الفعل ما هو (لغو) وهم لا يعترفون أصلا بـ: (جنس) العمل؟؟!!

الثانية : أنه من الإجحاف بحق ديننا العظيم أن نجعل (الدليل) هو الوسيلةَ الوحيدة لتغيير المعتقدات وتقويم السلوك، في حين أن للسياق والظروف المحيطة والاستعداد للتقبُّل والتركيز على الجواهر لا الأعراض دوراً في عملية التبليغ والتغيير.

وإلا صوَّرنا للناس أن الدليل ضعيف، في حين أن الضعف في الأسلوب والمنهج.

وفي قضية (اللغو) نبَّه الدكتور إلى أن من أقوى أسباب ارتكابه هو إشغال الفكر بوَضِيع الأمور، وعدم العيش لقضية واضحة وحقيقية تأخذ من صاحبها جل تفكيره وسلوكه.

والتعليم ما لا يحمل قضية واضحة وحقيقية، فلا نطمع أن يقدم لنا أحسن مما يقدم الآن.

**التوجيه العملي**

اتصلت طالباتٌ راشدات بأستاذ لهنّ، في سعيٍ منهن إلى اتخاذ موقف ووضع حدٍّ لـ: (اللغو)[23] الذي صدر من بعض أخواتهن في القسم.

شكرَ الأستاذ لهن سعيهنَّ، فهو من قبيل (الموقف) الذي ينبغي أن يقوم به (الرجل الرشيد) الذي دعا إليه سيدُنا لوط عليه السلام {أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ} [هود: 11/78] .

ذلك أنه من الخسران أن يكون (الرجل الرشيد) في المدارس دائماً هو الأستاذ أو المدير، في حين أن للطلبة دوراً في اتخاذ المواقف إزاء ما لم يكن من صفات جيل التمكين في غياب الأستاذ أو المدير خاصة.

اقتضى المنهج أن يكون البحثُ في الأسباب التي أوصلت الطالبات إلى الوقوع في ذلك (اللغو)، حتى نعالج الجواهر لا الأعراض.

كان من أقوى الأسباب؛ أنَّ المدارك متفاوتةٌ بين الطالبات، فمنهن من حملتْ همَّ التمكين لدين الله بحقّ، فشغلها البحث في أسباب انتفاء التمكين ومناقشة آليات النهوض عن (اللغو)، وردَّها عن الوقوع فيه أنها من جيل التمكين وتفكُّرُها في {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ *} [المؤمنون: 23/115] .

ومنهنَّ من لَم تعِ بعدُ - بالقدر المطلوب - دورَها في الحياة، فانشغلت بسفاسف الأمور عن قضية التمكين، وغفلتْ عن:

والأرض ترفض أن نحيا بها عبثاً

إن لم تكن فاعلاً فارحل إلى الأبدِ[24]

ولمعالجة الذي أدّى إلى الوقوع في (اللغو) كان الاستنجاد بفكرة الدكتور العمري في أنَّ المؤمن البصير يُعرض عن اللغو لأنه (مشغول بقضايا أهم).

فكيف تُجدي الأدلة المقنعة والقوانين اللاذعة والمواعظ الرادعة إذا لم يكن مرتكب اللغو (مشغولاً بقضايا أهم)؟؟

فكان العملُ مع الطالبات - إضافة إلى بيان ضرورة الإعراض عن اللغو وعاقبة مرتكبه - على ربط اهتماماتهن بقضايا النهوض بالأمة والتمكين لدين الله في أرض الله.

# خاتمة

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، لقد جاءت رسل ربنا بالحق.

نهنئ أنفسنا ونهنئ أمتنا بهذا الرسول المفكر، الذي أنار لنا ظلمة طريقنا وهو في مقتبل العمر، وشاء الله سبحانه وتعالى أن نتعرف كتاب: (كيمياء الصلاة) في السنة التي أردنا أن نجعل من صلاتنا دافعة للحضارة، فإذا بالقدر الرباني يتنزل ليأتي من مسافة أميال، ويطأ صحراء الجزائر، فيقول أنا كيمياء الصلاة هو النور الذي سألتم الله أن يأتيكم، فها هو بينكم، فلننظر ما أنتم به فاعلون.

لذا نقول لدكتورنا العزيز: سِرْ، فأنت على الدرب وستصل بإذن الله، اكتب وارم القنينة في أي مكان في العالم فإنها ستصل، وستتكسر القنينة، وستحترق الرسالة، وسيبقى الرجال والنساء والأطفال، وسيبقى الإنسان، ليس بإنسان الأشياء ولكنه إنسان المبادئ والأفكار، إنسان الحقيقة، إنسان النهضة..........

نكتب هذا الكلام والقلوب والعقول ملء بالإيمان والقوة والتحدي.......

نكتب هذه الأسطر والدموع تترقرق في الجفون أملاً في تلك الأيام القادمات التي تحمل في طياتها الحق والعدل والحياة الطيبة........

نسأل الله سبحانه وتعالى أن يكلل أعمالنا بالنجاح، وأن يحفظ دكتورنا، وأن يكتب له العودة إلى مسقط رأسه عزيزاً قوياً موفقاً........

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين.

# أحمد خيري العمري

**صانع الأنفاق**

هكذا أطلق بعض أصدقاء الدكتور أحمد خيري العمري عليه. فلماذا أطلقوه؟

وإن كان ذلك كذلك.. فلماذا يصنعها؟

وأين يصنعها؟ ولمن يصنعها؟ وكيف يصنعها؟

إن صناعة الأنفاق في هذا الزمن قد تكون ضرورية في مكان، خطرة في مكان آخر، غير لازمة في مكان ثالث.. فأي هذه الثلاثة يصنعها العمري؟

هل صنعها صعب عليه أم يسير؟

هذا الكتاب وقفات معه كتبها أصدقاؤه من بلدان شتى، وبأقلام مختلفة، وبألوان متباينة، من أعمار متفاوتة.

هل نغوص في أنفاقه؟

أم نحذر منها؟

أم نتحدث عنها؟

اقرؤوا هذا الكتاب، واحكموا.. وخبرونا.

---

* كتبت بعيد زيارتي الأولى لدمشق التي شهدت صدور سلسلة ضوء في المجرة في معرض دمشق للكتاب لعام 2005م، أعيد النظر في بعض أجزاء مما كتب، لكن الإطار العام بقي نفسه. تشرفت لاحقاً، عندما أقمت في دمشق، بمعرفة أشخاص آخرين، لكن لم أتطرق إليهم إطلاقاً هنا .

[1] الحاجة رشيقة العمري: مربية دمشقية فاضلة من جيل الرواد، كان بيتها مفتوحاً للعلم ولجلساته، لم أتشرف بلقائها في تلك الزيارة تحديداً؛ إذ لم تكن في دمشق، لكني نلت الشرف لاحقاً، فإذا بها أم حنون وقارئة نهمة ذواقة، وأديبة مرهفة الحس، فضلاً عن كونها سيدة مجلس ثقافي من الطراز الأول. توفيت رحمها الله عن عمر ناهز الثالثة والثمانين في أيلول/ سبتمبر 2008م، رمضان 1429هـ .

[2] سيعترض الدمشقيون هنا، فحبهم للكمال يجعلهم يرفضون ملاحظة كهذه، لكن الأمر نسبي .

[3] هو الصديق العزيز لاحقاً عادل كزبري .

[4] هو الدكتور أحمد هاشم .

* طائر الضفة هو اسم مستعار لكاتب المقال الذي نتشرف بكونه أحد الأسرى الفلسطينيين في سجون العدو الإسرائيلي، لا يمكن الإفصاح عن اسمه الحقيقي لأسباب معلومة، وندعو الله تعالى أن يفك أسره وأسرهم جميعاً وأن يمدهم بأسباب نصره .

* ريما محمد أنيس الحكيم: من جيل الشباب الطالع، مديرة موقع (رسالتي)، ماجستير اقتصاد إسلامي .

[5] جودت سعيد - بحوث ومقالات مهداة إليه، دار الفكر، ط1، 2006، مقال د. العمري: حدثنا مالك قال، ص 319 .

[6] المرجع نفسه، ص 356 .

[7] المرجع نفسه، ص 318 .

[8] المرجع نفسه، ص 321 .

[9] المرجع نفسه، ص 321 .

[10] المرجع نفسه، ص 321 .

[11] المرجع نفسه، ص 330 .

[12] المرجع نفسه، ص 330 - 331 .

[13] ما بين الأقواس شرح من عندي لبعض الكلمات .

* من مدينة تشارليستون، قلب ولاية كارولينا الجنوبية بأمريكة.

* باحث وكاتب ومحاضر في مجال التدريب والتعليم والتنمية وتأصيلها وفق المنظور الإسلامي.

[14] د. نهلة الشابندر، ولدت عام 1939 لأسرة بغدادية عريقة، ووالدها هو القاضي المعروف المرحوم مزاحم الشابندر أحد أعلام القضاء العراقي، تخرجت من كلية الطب 1963، وكانت أول طبيبة عراقية ترتدي الحجاب، شكلت مع زوجها الأستاذ الدكتور الجراح محمد صالح العاني مثالاً عملياً على الجمع بين النجاح المهني والعمل الدعوي. أكملت دراستها العليا في بريطانية، وعملت أستاذة في الكلية الطبية بجامعة بغداد، بالإضافة إلى عملها في تخصصها شاركت في العمل الخيري والعمل الدعوي الإسلامي، وكانت عضواً أساسياً في منتدى المرأة المسلمة، وأسست لاحقاً جمعية "خديجة الكبرى" .

* الأستاذ: بكاي أحمد بن صالح - مؤسس ومدير مركز التطوير العلمي- ليسانس في تخصص فكر وتربية من الجامعة الإسكندنافية بالنرويج.

[15] الفردوس المستعاد: هي الحضارة الإسلامية كما قصدها الدكتور في كتابه الفردوس المستعار والفردوس المستعاد.

[16] التحيز مصطلح طوره الدكتور عبد الوهاب المسيري، وقد ألف كتاباً بعنوان: (فقه التحيز)، والمصطلح الذي ذكرناه هو بمفهوم الدكتور المسيري .

[17] الدين الجديد مصطلح استعمله الدكتور أحمد خيري العمري في كتابة الفردوس المستعار والفردوس المستعاد.

[18] التفسير المنير 11/75.

[19] الوسع هو من الآية الكريمة ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 2/286] .

[20] فصول في التفكير الموضوعي، ص8 .

[21] تحويل المعلومة إلى معرفة هو توظيف تلك المعلومة في سياق آخر .

[22] سبق أن تناول الطلبة موضوع (إعمال العقل) السنةَ الماضية، في فصل كامل، فكما يقول الدكتور محمد موسى باباعمي : "الوحي وحده لا يصنع حضارة ما لم يرتبط بالعقل والعودة إلى العلم بكل معانيه، والعقل وحده لا يصنع حضارة ما لم يرتبط بالوحي والفهم الصحيح له" .

[23] بالمعنى الذي ذكره الدكتور العمري .

[24] البيت من ديوان "متى الصبح يا وطني؟" للشاعر: مسعود بن بالحاج خرازي .